روايات الهلال

الأم

بيرل بك



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٣٧٣ ـ يناير ١٩٨٠ ـ صفر ١٤٠٠
No. 373 — Janvier 1980

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٢٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغــلاف بريشـــة :
الفنانة سميحة حسنين

الأم

بقلم

بيرل بك

ترجمة

محمود مسعود



دار الهلال

مقدمة

اذا ذكرت الروايات الانسانية التى خلدت فى الآداب العالمية من طراز « البؤساء » لفكتور هوجو « كوخ العم توما » للكاتبة الأمريكية هـ . ب . ستو و « دافيد كوبر فيلد » لتشارلز دكنز ، فان رواية « الأم » تحتل بينها مكان الصدارة بما حفلت به من الصور الانسانية العميقة والمشاعر التحليلية الدقيقة والنماذج البشرية التى وان كانت وليدة بيئة بعينها فانها فى تقلباتها ومنازعها قاسم مشترك فى كثير من البيئات على اختلاف المكان والزمان ، حتى لتحس وانت تتابعها بين فصول الرواية بانك ازاء شخوص بشرية معهودة لديك ، وان ما تتاثر به هذه الشخوص من الانفعالات والأحاسيس وما تنحو اليه من التصرفات وتسلكه من المسالك هو جزء من النفس البشرية فى ضعفها وتساميها وفى انقيادها وتمردها وفى خنوعها وعسفها وفى اطماعها وقناعاتها وفى غرورها وتواضعها وفى زللها وتندمها وفى سخطها ورضاها . والواقع ان ذلك يتجلى على أشده فى هذه الرواية التى صورت فيها الكاتبة الأمريكية الكبيرة بيرل باك حياة الريف الصينى تصويرا مستفيضا رائعا فى شخص هذه الأم الفتية التى تداب على العمل نهارها فى الحقل مع زوجها متفانية كادحة ثم تتوفر آخر اليوم على رعاية الزوج والأطفال وتقبل على الانجاب كل عام قريرة العين دون ان تجد فى دورة هذه الحياة المتكررة المتجددة ما يصرفها الى شىء آخر ـ لولا ضيق الزوج الشاب المفتون بنفسه بحياة بعدها رتيبة مملولة وغيابه من حياتها هربا الى المدينة مما كان بداية للكارثة التى عصفت بحياة الأسرة وقوضت سعادة الأم وعرضتها لزلة كانت فى اعتقادها هى السبب فيما امتحنت به من صروف وارزاء فى ذاتها وفى ابنائها . وبغير رغبة فى الاستطراد مع احداث الرواية تفاديا لضياع عنصر الجدة والتشويق فى هذه العجالة ، تراك وانت ماض فى السياق مشدودا الى شخصية الأم التى لا يثنيها شىء عن احتمال مشاق العمل واعباء رعاية الأسرة مدفوعة بغريزة الأمومة وبهذا الداب الذى ينتظم البيئة كلها كوحدة ناصعة منتجة . وانت واجد فى صورة الأم خاصة وافراد

الاسرة الصغيرة وفى محيط البيئة من حولهم وفى شتى مسالكهم وتأثرهم بكل ما يعرض لهم فى حياتهم البسيطة العانية شبها غير قليل بما تراه وتقرأه وتسمع به فى بيئات كثيرة أخرى من هذا العالم المتباعد الأطراف المتقارب فى الخصائص والسمات البشرية ، مما يجعلك تحس احساسا غير قليل بوثاقة الروابط الانسانية بينك وبين هذه الصور المجلوة فى قالب البساطة والصدق والواقعية . ومن ثم كان للرواية طابعها الانسانى الذى يسلكها فى عداد الادب العالمى ويهيىء لها مقومات الخلود .

ولن يكون من دواعى العجب أن تختص بيرل باك بهذه القدرة الباهرة فى تصوير الحياة والأحياء فى الصين وهى التى عاشت فيها منذ نعومة اظافرها حتى شبت وترعرعت ثم تزوجت وأصبحت أما ولا تكاد تبعد عنها حتى تعود اليها لتستأنف الحياة فيما عدته وطنها الثانى . فهى اذن قد خبرت هذه الحياة وأحبتها وشغفت بها الى الحد الذى جعلها تؤلف ثمانى روايات عنها من جملة رواياتها السبع عشرة . وكذلك كان تصويرها للحياة الصينية صادقا ينبض بالحيوية والنفاذ الى اعماق الناس واغوار السرائر . اضف الى هذا قدرتها كامرأة على تحليل طبائع المرأة وانفعالاتها ذلك التحليل البارع الذى يتأدى الى أدق البواطن وأخفى الخلجات ويميط اللثام عن مكنون المشاعر التى تنضج بها طبيعة المرأة فى شتى المواقف مما يجلى للقارىء ذخيرة نفيسة رائعة من الصور النفسية والتحليلات العاطفية يندر أن يوفق الى مثلها الكتاب والمؤلفون من الجنس الآخر . وربما كان من أبرع هذه الصور ما أزجته المؤلفة فى تحليلها لشخصية الأم التى وصفتها بأنها كانت منذ شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة واحاسيس عميقة ولكنها ساكنة صامتة ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال ، وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها واشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الذى كان يجيش فى صدرها وعرفت أنها لا تستطيع الحياة دون وجوده معها . « على ان الرجل وحده لم يكن يكفى ، بل كان ينبغى أن تحمل منه وان تستشعر الطفل يتكون فى أحشائها وتدب فيه الحياة ، وبهذا تتم الزوجية ، وعندئذ كانت

نسمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها . وكانت اذا نالعتها علائم حمل جديد ساورها احساس رضاء جسدى مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية ... لقد كان هذا الاحساس أسمى وأعظم حتى من الطفل نفسه ؛ بل كان أسمى وأعظم من شخصها ومن شخص الزوج ايضا . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء فى نظرها يمثل جزءا من الأمومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل » .

فهل رايت اروع من هذا التحليل فى تصوير طبيعة المراة فى عذريتها ، وزوجيتها وامومتها ؟ .

بل ان هذه الصور الدقيقة المستمدة من عمق البصر بطبائع النفس البشرية عامة وطبيعة المراة خاصة تتعاقب فى سياق الرواية تعاقب اللوحات الرائعة فى معرض فنى حافل . ولعل اغزرها بالمشاعر المؤثرة تلك التى تتصل بالكارثة الكبرى التى نزلت بالأم بعد أن هجرها الزوج نذالة وعرضها لامتحان رهيب افضي بها الى الزلل فى لحظة غواية عمياء . لقد كانت هذه الخطيئة هى اللعنة الكبرى التى عصفت بحياتها عصفا شديدا وجلبت عليها غضب الآلهة حتى لاحقتها الكوارث التى تمثلت فى عمى ابنتها ثم وفاتها فى ظروف مؤسية ، وفى انحراف ابنها الأصغر الى اعتناق ذلك المذهب الهدام الذى افضى به الى الاعدام . واستمع الى صرختها المؤثرة اذ ناءت بهذه الارزاء : « اذا كنت اذنبت فى حياتى أفلم انل من الأحزان ما يكفى ؟ اذا كنت اذنبت فلم لا أموت وحدى واضع حدا لكل شيء ؟ ... لكن أين هى المراة الفاضلة المبرأة من الذنوب ؟ .. ولم أحتمل وحدى هذه الأحزان كلها ؟ الم انل كفايتى من العقاب ؟ » .

وفى غمرة هذه الفواشى ، وكأنما استجيب لتندمها وابتهالها ، تجىء البشرى بمولد حفيد لها بعد طول يأس من الانجاب ، وسرعان ما تتبدد أحزانها وتهتف والدموع تغمر وجهها الذى كلله المشيب وقد رفعت المولود بين يديها : « أنظروا .. اننى أشك فى امتلاء نفسى بالذنوب كما خيل الى فيما مضى » .

هكذا تنتصر الحياة الوليدة على الموت والعدم ويتغلب الأمل البازغ على اليأس والاحباط ، ومن هذا المنطلق كان للكيان البشرى عند نرمها مكانته الأولى فى حياة ان تكاثرت على هذه الصورة المعهودة حتى

اشرف تعدادها على الف مليون نسمة ، فان افراده جميعا كخلية نحل هائلة تنتج دائبة وتبلغ من أسباب القوة ما طوع للأمة كلها أن تحتل مكانتها المرموقة فى المجتمع الدولى وأن تكون قوة مؤثرة تناجز احدى القوتين العظميين فى عالمنا المعاصر ، وتخطب ودها القوة الآخرى .

محمود مسعود

الفصل الأول

جلست الأم فى مطبخ الدار الريفية الصغيرة ، فوق مقعد منخفض من الخيزران ، وراحت تدس الأعشاب فى فتحة الفرن الطينى حيث شبت النار منذ قليل تحت القدر الحديدية . واخذت تضيف اليها بين وقت وآخر غصنا صغيرا ، او حفنة من الأوراق والحشائش اليابسة التى اقتطعت فى الخريف الماضى من سفح التلال ..

وفى احد أركان المطبخ انكمشت قرب النار عجوز شديدة النحول والتهدم ، مدثوة بجلباب سميك أحمر اللون مصنوع من القطن ، يعلوه رداء ازرق مرقع .

كانت العجوز تشكو فى عينيها مرضا اليما كاد يفقدها البصر ويطبق أجفانها . على أنها برغم ذلك كانت تستطيع أن تميز المرئيات من خلال الثقبين الضيقين ، واخذت تراقب وهج السنة اللهب التى كانت تتواثب وتضطرم بين يدى الأم المدربتين . ثم تكلمت اخيرا . فخرجت الكلمات كالفحيح من فم غائر تجرد من أسنانه ، قالت :

ــ عليك بالاقتصاد فى الوقود . لا توجد عندنا سوى حزمة واحدة من الحشائش . ونحن لم نزل فى اول الربيع وسيطول بنا الوقت قبل أن تنمو الحشائش وتصلح للقطع . وانت ترين حالى وما صرت اليه من الشيخوخة والضعف ، وانا اشك فى قدرتى بعد على الخروج لاحضار بعض الوقود . فقد صرت عجوزا لا نفع منها ، وافضل لها أن تموت .

الفت العجوز أن تكرر كلماتها الأخيرة مرات فى اليوم . وفى كل مرة كانت تنتظر من زوجة ابنها أن تجيبها بهذه العبارة التى قالتها لها الآن حقا :

ــ لا تقولى هذا الكلام يا أمى ! ماذا كنا نعمل لو انك كنت غير موجودة لحراسة البيت أثناء ذهابنا الى الحقل ، للاشراف على الاولاد الصغار حتى لا يقعوا فى الترعة ؟ .

فسعلت العجوز سعالا حادا وقالت وهى تلهث :

ــ صحيح انا افعل هذا . يجب حراسة البيت فى هذا الزمن الفاسد ، زمن اللصوص والنهابين فى كل مكان . ولو جاءوا يا ابنتى

لرفعت الصوت عاليا . واذكر أن الحال كانت تختلف عن هذا فى شبابى . كان الانسان يترك فأسه خارج البيت فى أول الليل فيجده مكانه فى الفجر . أو يقيد حيوانه خارج الباب فيجده كما تركه فى اليوم التالى . و . .

ومع ان الأم ضحكت مجاملة وقالت لها : « صحيح يا أمى ؟ » ، فانها لم تقف للاصغاء الى العجوز التى لم تكن تفتأ تثرثر طول النهار . بل تركتها تتكلم وراحت تتساءل فى نفسها عما اذا كان الوقود سيكفى حتى نهاية الربيع اذ يتم نماء النبت ويتسنى لها أن تذهب بسكينها الى حيث تقتطع أفرع الأشجار الصغيرة وتلتقط ما تيسر من الحشائش والأوراق . وصحيح انه كانت توجد فى فناء البيت حزمتان من قش الأرز مضمومة أعواده بعناية ومغطاة بطبقة من الطمى الكثيف الصلب صونا لها من فعل الأمطار والثلوج . لكن قش الأرز كان أثمن من أن يستخدم وقودا . فان أهل المدن هم الذين يجوز لهم وحدهم أن يصطنعوا الوقود من قش الأرز . وكانت هى او زوجها يذهبان به الى المدينة بعد جمعه فى حزم كبيرة حيث يجنيان من بيعه نقودا فضية طيبة . وهكذا لم يكن يجوز أن يوقد قش الأرز فى غير بيوت المدن .

جعلت الأم تغذى الفرن بالحشائش ، واستغرقت هذه المهمة عنايتها فصرفتها عما عداها . وانعكس وهج النار على محياها العريض القوى ذى الشفتين الممتلئتين ، والذى لوحته حرارة الشمس ولفحته الرياح فاكتسى لونا أسمر قاتما ، ولمعت عيناها السوداوان الصافيتان فى ضوء النار . واذا قيل أن وجهها لم يكن جميلا ولا وسيما فقد كان يشف عن حرارة العاطفة وفرط الطيبة .

كانت زوجة مخلصة واما بارة . كما كانت رفيقة بحماتها العجوز .

واسترسلت العجوز فى لغوها . فقد كانت تمضى نهارها وحيدة لا يؤنسها غير حفيديها الصغيرين . اذ كان ابنها وزوجته يسلخان بياض النهار كدا فى الحقل . فلما عادت الزوجة التى كانت العجوز تحبها اخذت تنهال عليها بمختلف الحديث وهى تسعل بين حين وآخر بسبب الدخان المتدفق من فتحة الفرن . فراحت تقول :

ــ قلت دائما أنه متى جاع الرجل ، وخصوصا اذا كان شابا قويا كولدى ، فان بيضة مخلوطة بالأرز . .

ورفعت العجوز صوتها عاليا حين قاطعتها مناوشة طفلين تشبثا بكتفى الأم التى انحنت لامداد النار بالوقود .

لكن الام ما فتئت منهمكة فى انجاز عملها ، وما برح وجهها محتفظا بهدوئه . أجل . كانت هادئة وكأنها لم تسمع مناوشة الولد والبنت ، ولا صوت العجوز المسترسلة فى الحديث .

كانت تفكر فى تأخرها قليلا هذه الليلة عن الموعد المألوف . فقد كان فصل الربيع يقتضيها عملا كثيرا ، وقد بقيت فى الحقل لكى تبذر آخر قدر من الفول . ولم يكن بد من أن يستغل الانسان الى أقصى حد هذه الأيام الدافئة والليالى الرطيبة ، وهكذا فعلت حينما أتمت هذا البذر . وستدب الحياة هذه الليلة فى ذلك الفول الجاف . وملأت نفسها هذه الفكرة بشعور الغبطة والرضاء . بل ستدب الحياة فى سائر نواحى الحقل هذه الليلة حيث التربة دافئة رطبة ، وحيث لم يزل زوجها يعمل هناك ويدفن البذور فى الأرض بقدميه العاريتين ، وقد تركته يعمل وحده اذ سمعت وهى فى الحقل بكاء الطفلين وهتافهما باسمها وسارعت بالعودة الى الدار .

ولما وصلت الى باب المطبخ الفت الطفلين يبكيان جوعا ، وكان الولد يبكى بكاء رفيقا متصلا لا أثر فيه للدموع ، والبنت تبكى بصوت خافت وتلعق يدها الصغيرة . وكانت العجوز تنصت اليهما فى غير ضيق ولا برم . فقد لاطفتهما حينا . لكنهما بلغا الآن حدا لا تجدى معه ملاطفة ، ولذلك تركتهما وشأنهما .

على أن الأم لم تخاطبهما بكلمة . بل تقدمت مسرعة الى الفرن وانحنت فى طريقها وتناولت بعض الوقود . لكن هذه الدلالة كانت أبلغ من كل حديث . فان الطفل كف عن البكاء وركض خلفها بكل ما تسمح له سنواته الخمس . وتلته الطفلة بقدر ما وسعتها قواها ، اذ كانت لا تجاوز الثالثة الا قليلا .

أخذ الطعام يغلى فى القدر . وانبعثت من فرجات الغطاء الخشبى سحائب البخار مشبعة برائحة سائغة . فتلاحقت انفاس العجوز وأخذت تطحن فكيها العتيقين طحنا خفيفا . وتعالت السنة اللهيب تحت القدر حتى بلغت قاعها . ولما لم تجد منصرفا تمددت وانتشرت ، واستحالت دخانا كثيفا انصب فى فضاء الغرفة الصغيرة ، فتراجعت الأم الى الخلف وجذبت الطفلة معها . لكن الدخان الخانق وصل الى الطفلة فأخذت تغمض وتفتح عينيها وتدلكهما بيديها القذرتين . وصرخت باكية وسرعان ما نهضت الأم وحملت الطفلة وأجلستها خارج المطبخ قائلة لها :

ـ اقعدى هنا ! الدخان دائما يؤذى عينيك ولا تكفين عن القرب منه .

ونشرت العجوز سمعها شأنها حينما تسمع زوجة ابنها تتكلم ، ووجدت فى هذا مادة جديدة للكلام . فراحت تقول :

ــ نعم .. قلت دائما أنه لولا اضطرارى لاشعال النار طول حياتى الماضية ، لما أصبت بهذا العمى . الدخان وحده هو سبب عماى . والدخان ..

لكن الأم لم تستمع لكلام العجوز ، بل كانت ملقية بسمعها الى بكاء الطفلة الصغيرة التى انبطحت على الأرض وراحت تصرخ وتدلك عينيها محاولة فتحهما . والحق أن عينى هذه الطفلة كان بهما حمرة دائمة ورمد متصل . بيد انه لو قال قائل للأم أن بعينى ابنتها مرضا لبادرت بهذا الجواب :

ــ ليس بها شيء . وكل ما هناك أنها تدس راسها فى الدخان كلما اشعلت النار فى الفرن .

ما كان بكاء الطفلة ليهز من نفسها وترا حساسا كما حدث فى الماضى . فقد كان عملها متواصلا هذه الأيام . والأطفال يأتون سراعا . وحينما رزقت بطفلها الأول لم تحتمل سماعه يبكى بتاتا . فقد تصورت فى ذلك الحين انه ينبغى للأم عندما يبكى الطفل ان تسكنه على أى وجه من الوجوه . ولذلك كانت اذا بكى الطفل تكف عما هى آخذة به وترضعه ثديها . وما تكاد تفعل حتى يكون زوجها قد غضب لامساكها عن العمل فى الحقل ، ويصيح فيها قائلا :

ــ ما هذا ؟ هل تفعلين هكذا وتتركين العمل كله لى ؟ . انت الآن فى اول عهدك بالأولاد وستقضين العشرين سنة القادمة فى ارضاع الأولاد . فهل احتمل هذا ؟ لست زوجة لرجل غنى حتى ينحصر عملك فى الولادة والرضاع واستئجار من يقوم بالعمل ؟ .

وكانت اذا سمعت منه هذا الكلام تواجهه غاضبة مهتاجة . فكلاهما فى عنفوان الشباب وحدة الطبع وفورة العاطفة ، ثم تصيح فى وجهه :

ــ وهل لا أجد تعويضا يسيرا لآلامى ؟ هل تعمل الشهور مثلى مثقلا بالحمل ؟ وهل تعانى آلام الوضع ؟ ، لا ، انك لا تذهب الى البيت حتى تستريح . أما أنا فاطهو الطعام واهتم بالطفل والاطف العجوز وانظر فى هذا وذاك .

وهكذا كانت تنشب بينهما مشادات حامية لا غالب فيها ولا مغلوب اذ كانا متكافئين . لكن هذا الشجار لم يدم طويلا . فسرعان ما جف ثدياها ، اذ كانت تحمل فى سرعان وخصب الحيوان القوى الصحيح ، بل ان لبنها قد نضب فى الوقت الحالى ، وان كانت قد

اجهضت فى الصيف الماضى على اثر اصطدامها بالمحراث وسقوطها على الأرض .

واذن فقد كان على الأطفال آن يصبروا . واذا لم يكن بد من بكائهم فليبكوا ما شاءوا . فلم يكن بوسعها أن تركض اليهم لارضاعهم ثديها . ولا مفر لهم من الانتظار والصبر على الجوع حتى تعود اليهم .

هكذا كانت الأم تتكلم . لكن الواقع ان قلبها كان ارق من حديثها . ولم يكن يسعها الا ان تسارع الى أطفالها حينما تسمع نداءهم لها .

ولما غلت القــدر وقتا وامتزج الدخان بشذى الأرز جاءت الأم بصحفة وملأتها للعجوز ثم وضعتها على الخوان فى الغــرفة الكبرى حيث يعيش الجميع ، وسارت بالعجوز اليها وهى لا تكاد تعى لغوها وقولها : « واذا خلطت الباسلاء بالأرز نتج منهما لون شهى لذيذ » . ثم جلست العجوز الى الخوان وأمسكت بالصحفة بين يديها الجافتين الباردتين ولزمت الصمت وقد عرتها فجـــأة رعشة النهم ، وسال اللعاب من جانبى فمها المغضن . وقالت مستاءة :

ــ اين الملعقة ؟ لا اجد ملعقتى .

فوضعت الأم الملعقة فى يد العجوز وخرجت من الغرفة الى المطبخ ، حيث جاءت بصحفتين أخريين أصغر حجما وملأتهما أرزا ، وتناولت ملعقتين من خشب الخيزران وحملت احدى الصحفتين الى الطفلة التى ما زالت تبكى وتفرك عينيها بيديها . وكانت الطفلة جالسة على الأرض وقد امتزج الوحل فوق وجهها بالدموع . فانهضتها الأم على قدميها ومسحت وجهها براحة يدها الخشنة السمراء ، ورفعت طرف جلبابها المرقع وجففت دموعها .

فعلت الأم هذا مترفقة ، فقد كانت عينا الطفلة حمراوين ، وتدلت اجفانها وشابتهما حمرة شـــديدة . ولمـــا اشاحت الطفلة براسها وهى تغمض وتفتح عينيها باكية تركتها الأم ولم تعرضها وقد تألمت وقلقت لحالها . وضعت الصحفة فوق خوان خشن خارج الباب وقالت للطفلة بصوتها المرتفع :

ــ تعالى ... كلى .

وتقدمت الطفلة متعثرة ووقفت متشبثة بالخوان وهى تكاد تغمض عينيها المحمرتين فى أشعة الشمس الآفلة . ومدت يديها الى الصحفة . فهتفت الأم :

ــ حاسبى .. سخن .. !

فترددت الطفلة ، وأخذت تنفخ فى الطعام لتبريده . لكن الأم جعلت

تحدق فيها قلقة ، وغمغمت لنفسها :

ــ حينما يقصد الى المدينة حاملا قش الأرز سأطلب منه أن يذهب الى أحد حوانيت الادوية لشراء دواء لرمد العيون .

وما لبث الولد أن تذمر لأنهـــا لم تقدم له صحفته مثل اخته . فذهبت اليه ووضعتها فوق الخوان . وساد الصمت بعض الوقت .

وأحست الأم بتعب شديد حال دون أن تأكل فزفرت زفرة عميقة وحملت مقعدا صـــغيرا من الخيزران ووضعته قرب الباب وجلست فوقه . وتنفست من اعماق رئتيها وجعلت تسوى شعرها الأشعث الأغبر بيديها . وادارت نظرها فيما حولها .

اخذ الظــلام ينســدل فوق التــلال المنخفضة المحيطة بالوادى ، وشحب وجه الأفق . وفى بطن الوادي حيث قامت المزرعة الصغيرة بدأت ســحب الدخان تنبعث من مساكن القــرية مؤذنة بانهماك أهليها فى اعداد طعام العشاء وجعلت الأم تراقب الدخان المتصاعد بطيئا فى الهواء الساكن وهى راضية قريرة . فقد خطر لها فجأة انه ليس بين امهات المزرعة المؤلفة من بضـــعة بيوت لا تجاوز أصابع اليدين من تعنى بأطفالها خيرا من عنايتها بأطفالها . وصحيح أن بعضهن كن أغنى منها مالا . فان زوجة صاحب الخان مثلا كانت تملك بعض الأقراط والخواتم التى كانت الأم تشتهيها فى طفولتها دون ان تنالها . لكن الأم كانت تفضل أن تمنح طفليها أفضل ما عندها من طعام حتى ينشأ صحيحين قويين . وقد اذاعت امرأة المزارع الثرثارة أن صاحب الخان اعتاد أن يطعم أولاده فضلات اللحم المتبقى فى صحائف نزلائه . أما الأم فكانت تقدم لطفليها خير ما تنبت أرضهما من الأرز ، ولولا رمد عين الطفلة لما وجد ما يشكون منه . فقد كان الجميع صحاح الأجسام مكتملى النمو ، ويكاد الناظر يحسب الطفل فى السابعة أو الثامنة من عمره . أجل . فقد كانت الأم توهب ابدا أطفالا صحاحا . ولو لم يلفظ ذلك الطفل الذى اجهضت فيه أنفاسه حينما صافحت عيناه نور الوجود لعاش الآن وكان ولدا ناميا صحيحا كأخيه ، يحاول أن يدب على قدميه .

تنهدت الأم ثانية . ومهما يكن من شيء فهى توشك ان تضع وليدا جديدا فى غضون شهر أو شهرين ، وفى هذا ما يستغرق تفكيرها . لكنها كانت جذلة راضية . نعم .. كانت شديدة الجذل والرضاء كلما حملت طفلا وامتلأت احشاؤها بكائن جديد تدب فيه الحياة .

ثم رأت الأم شخصا يخرج الى شارع المزرعة الصغيرة من أحـد

البيوت . وعرفت فيه امرأة عم زوجها . فقالت لها :
ـ آه . انت تطهين ايضا طعامك . انى فرغت منذ قليل .
فأجابتها المرأة :
ـ نعم . وكنت أقول لنفسي الآن انك فرغت ، وانك سريعة فى عملك.
لكن الأم قالت بصوت مرتفع وبلهجة المجاملة :
ـ لا . لا . الحقيقة ان أولادى يجوعون بسرعة ! .
فهتفت زوجة العم :
ـ بل أنت امرأة قديرة ، سريعة .
ثم دلفت ثانية الى داخل بيتهـــا بعد ان حملت الحشائش التى خرجت لتناولهـــــا . وجلست الأم فى ضوء الشفق تعلو وجهها ابتسامة . فقد كان لها أن تفخر حقا بنفسها ، وبقوتها ، وبطفليها ، وبزوجها . وفجـأة رن صوت الولد قائلا وهــو يدفع صحفته الى الامام :
ـ امى . (كمان) .
فنهضت الأم لـكى تملأ الصحفة . ولما خرجت ثانية الى الباب رات قرص الشمس ينحدر بين التلال المحيطة بالحقل حيث قضت نهارها فى العمل . ثم شاهدت زوجها عائدا الى البيت متأبطا فأسه سائرا بخفة ونشاط . وفجأة سمعته يغنى . وكان صوته عاليا متموجا صافيا . وكان يلم بكثير من المقطوعات الغنائية . وكثيرا ما كان يدعى ايام الراحة للغناء فى حانوت الشـــــاى حيث يزجى وقت الحضور ويسليهم .. ولما وصل الآن الى الدار لم يكف عن غنائه ، ولكنه جعل يغنى بصوت أقل ارتفاعا . ثم وضع فأسه قرب الجدار . ولما سمعت العجوز صوته افاقت من غفوة انتابتها بعد شبعها ، واستأنفت الـكلام وكأنها لم تسكت . فقالت :
ـ قلت أن ابنى يحب الباسلاء المخلوطة بالأرز ، وعو طعام شهى للديك .
فضحك الرجل ضحكة طبيعية متكاسلة ودخـل البيت ، وقال بصوت عذب :
ـ نعم يا امى . انا احب هذا اللون فعلا .
وفى خارج البيت كانت الابنة قد شبعت وجلست جامدة . ولمـا ذهبت الشمس فتحت عينيها قليلا وتطلعت حولها فى يسر وفى غير ألم . وذهبت الأم الى المطبخ وملأت للرجل صحفة حتى حافتها ووضعت فى وسط الأرز الساخن بيضة اقتصدتها من بيض الدجاج القليل الذى

يملكونه . فقد كان حقا للرجل ان يظفر ببعض اللحم أو البيض وهو يكد طول يومه . ومهما حدث بينهما من التشاد فقد كانت تحب ان تراه ينال قسطا وفيرا من الطعام ، وكانت ترى أن هذا التشاد والتشاحن لم يكن يتجاوز اللسان الى القلب . وقالت المرأة العجوز :

ــ انى وضعت بيضة طازجة فى أرز ولدك . وقدمت له أيضا بعض الكرنب .

فما كادت العجوز تسمع هذا الكلام حتى قالت من فورها :

ــ آه . نعم . بيضة طازجة . قلت دائما بيضة طازجة . هى أفضل شيء للشاب . هى تعيد القوة .

لكن أحدا لم ينصت اليها . فقد كان الرجل شديد الجوع وجعل يأكل مسرعا . وطلب الى الأم أن تملأ صحفته من جديد وهو يضرب بها فوق الخوان حتى يستحثها . ولما ملأتها وقدمتها له جاءت لنفسها بصحفة . لكنها لم تجلس بجانب زوجها . بل تناولت مقعدا منخفضا وجلست فوقه قرب الباب وجعلت تلتهم طعامها راضية متلذذة . وبين وقت وآخر كانت تنهض وتقتطع لنفسها بعض الكرنب من صحفة الرجل . وجاء الطفلان واستندا اليها وفتح كلاهما فمه لكى يتلقف منها بعض الطعام ، فلم تبخل عليهما . ومع أنهما تناولا نصيبهما وشعرا بالامتلاء فقد كان الطعام من صحفة الأم أحلى مذاقا وألذ طعما . بل أن الكلب الأصفر تقدم نحوها مطمئنا . فقد انكمش حينا تحت خوان الرجل طمعا فى بعض الفتات ، لكن الرجل ركله بقدمه وطرده بعيدا . فجاء الى الأم وجعل يلتقط بعض الأرز الذى كانت تلقيه اليه .

كررت الأم ملء صحفة الرجل ثلاث مرات . ولما شعر بالامتلاء غمغم راضيا .. وصبت الأم فى صحفته الخاوية ماء مغليا ، فأخذ الرجل يحتسيه . ثم خرج الى الباب وجعل يحتسى الماء بصوت مرتفع . ولما فرغ حملت منه الصحفة ودخلت بها . ووقف فى مكانه يردد نظره فى هذه المنطقة الزراعية التى شملها الظلام . وبزغ الهلال ضئيلا فى صفحة السماء . فحدق الرجل فيه وانشأ يغني أغنية رقيقة .

ثم اخذ الرجال يخرجون من بيوتهم مثله . وجعل بعضهم يتنادى مع بعض بشأن لعبة ابتدأوا فيها فى الخان . ووقف آخرون عند أبوابهم يتثاءبون .

وكف الزوج الشاب عن الغناء فجأة واستقر نظره عند الشارع .

كان هناك رجل واحد يواصل العمل والـكل مستسلم للراحة . ذلك هو عمه الذى لا يكف عن العمل حتى فى الليل . والقى عليه نظـــرة وهو جالس أمام داره منهمكا فى صنع سلة من أغصـــــان الصفصاف . لكن هذا العم اذا رضى لنفسه هذا العمل المتصل فان الزوج الشاب ما كان يرضى ذلك لنفسه . ولابد له من الراحة والترفيه عن النفس . ولابد له من المقامرة قليلا . فأدار راسه لمخاطبة زوجته فى هذا الشأن . وسرعان ما قابلته بنظرتها العـــدائية وقد ادركت قصده . فلم يتمالك الرجل أن لعنها فى سره . اليس من حقه أن يقامر بعض الوقت فى ليله بعد أن قضى نهاره فى الكد والعمل الشاق ؟ هل كتب عليه أن يفنى حياته فى العمل المستمر على أنه لم يستطع أن يصمد لتلك النظرة الصارمة الغاضبة ، ولم يلبث أن هز كتفيه كالطفل المغلوب على أمره ، وقال :

ـ سأنام بعد هذا النهار الشاق ؟ . انا متعب جدا . ولا أقـــدر على اللعب هذه الليلة .

ودلف الى داخل البيت والقى بنفسه فوق الفراش وتمدد وتثاءب . وفجـــأة قالت العجـــوز وهى لم تستطع أن تبصر شيئا فى الغـــرفة المظلمة .

ـ هل ذهب ابنى الى فراشه ؟ .

فأجابها غاضبا :

ـ نعم يا أمى . وهل يمكن غير ذلك فى مثل هذا المكان المحدود الفارغ ؟ شغل ونوم ! . شغل ونوم .

فقالت العجوز فى جذل دون أن تفطن الى لهجة الغضب التى مازجت صوته :

ـ نعم ، نعم . شغل ونوم .

ونهضت من مكانها وجعلت تتحسس طريقها الى فراشها ، وهو مرتبة من القش فى ركن الغرفة خلف ستار أزرق من القطن . وفى هذا الوقت كان الرجل قد استغرق فى النوم .

ولما سمعت الأم صوت غطيط زوجها نهضت وتبعها الطفلان وهما يتشبثان بجلبابها . فغسلت الصحاف بقليل من ماء (الزير) البارد الموضوع قرب باب المطبخ . ووضعتها فى تجويف فى الحائط المشيد بالطين .. وذهبت الى الجهة الخلفية للدار وملأت دلوا خشبيا من بئر ضحلة وصبت الماء فى (الزير) .. ثم عادت الى الخارج وفكت عقال الجاموسة وأطعمتها بعض القش وقليلا من الحبوب . وقادتها

الى داخل الدار حيث قيدتها الى احدى قوائم الفراش الـذى نام الرجل فوقه .. وفى هذا الوقت كان الدجاج يوشك أن يستسلم للنوم أسفل الفراش . وأخذ ينق قليلا عنـد دخولها . ثم لزم الصمت .

وخرجت مرة أخرى من الدار ورفعت صوتها منـادية . فجاوبها خنزير من خلال الظلام . وكانت قد اطعمته وقت الظهر ، ولذا لم تقدم له الآن شيئا من الطعام . وجعلت تدفعه أمامها برفق حتى ادخلته . وتركت الـكلب الأصفر وحده فى الفنـاء ليقوم بواجب الحراسة .

وفى اثناء ذلك كله كان الطفلان يتبعانها جيئة وذهابا . وما لبثا الآن أن تشبثا بسـاقيها باكيين . فوقفت ورفعت الطفلة فوق ساعدها وقادت الولد من يده . ودخلت بهما الى الدار وأوصدت الباب خلفها.

وتقدمت الى الفراش ومددت الطفلين عند قدمي الرجل . وجعلت تنزع ملابسهما وملابسها الخارجية فى رفق وهدوء . ولما تم لها ذلك تمددت بدورها بين الرجل والطفـلين . وجذبت الغطـاء فوقهم جميعا .

انطرحت الأم فى مكانها ساكنة وقد احس جسدها القوى بوطأة التعب . وكانت فى تمددها هذا كتلة من الرقة والحنو . ومهما نفد صبرها فى غضون النهار ، ومهما امتلأ صدرها بنزوات الغضب العارمة فقد كانت فى ليلها تستحيل مخلوقة رقيقة عاطفة . عاطفة على الرجل الذى يرقد بجـــوارها .. عاطفة على الطفلين اللذين استسلما لسلطان النوم . عاطفة على العجوز اذا انتابها السعال ليلا ؛ فتنهض من مكانها لموافاتها بقليل من الماء .. بل عاطفة حتى على الحيوانات اذا تدافعت واثار بعضها بعضا . اذ كانت تخاطبها بقولها : « اسكتوا .. ناموا .. النهـــار بعيد » .. ولا تكاد الحيوانات تسمع صوتها الأجش الرحيم حتى تهدأ وتعود للنوم .

وفى ابان الظلام تقلب الطفل فى مضجعه والتمس ثديها . فتركته يرضع وهى مستسلمة للخدر اللذيذ . ومع أن ثديها كان جافا فقد كان فيه للطفل ذكرى مريحة مسكنة . ولن يلبث أن يمتلىء عن قريب . وبجانب الطفل تمددت الطفلة موصدة العينين شديدة التصاق الجفنين . وكانت لا تنفك تفركهما بيديها حتى فى نومهـا لفرط ما تحس من الم والتهاب .

لـكن سرعان ما استسلم الجميع للنوم . ولو نبح احد الـكلاب

في الليل ما استيقظ منهم أحد . فقد كانت هذه الأصوات مالوفة في أسماعهم ، الا الأم التى كانت تستيقظ وتنصت ، حتى اذا لم تجد ما يدعوها للنهوض عاودت النوم من جديد .

الفصل الثاني

ترى هل كانت الأيام تختلف وتتغاير في نظر الأم ؟ .

كانت الأم تنهض في الفجر والكل نيام ، فتطلق الدجاج والخنزير والجاموسة وتقودها الى الفناء . ثم تنظف مرابطها وتحمل الروث المتخلف منها الى الكوم الموضـوع في أحد أركان الفناء السالف الذكر . وتذهب الى المطبخ حيث تغلي الماء لكي يشربه زوجها وأمه العجوز وتضع بعض هذا الماء المغلي في وعاء لكي تغسل به عيني الطفلة .

كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيهـا . وقد فزعت الطفلة أول الأمر وجزعت الأم لـكن الجدة العجوز راحت تقول :

ـ كانت هذه حالي في طفولتي . ولم أمت بسبب عيني ! .

والآن قد ألف الجميع هذه الحال واطمأنوا اليها وعلموا ان هذا هو شأن الأطفال وانهم لا يموتون بسببه . وما كادت الأم تصب المـاء حتى جاء الولد يقود أخته من يدها . فقد انسل كلاهما من الفراش بسكون حذرا من ايقاظ الأب والاستهداف لغضبه ، اذ كان رغم مرحه يغضب اشد الغضب اذا اوقظ قبل أن يستوفي قسطه من النوم ، ولا يتردد في لطمهما بيديه .

وقف الطفلان لدى الباب ساكنين . وجعل الولد يفتح ويغمض عينيه من تأثير النوم ، وراح ينظر الى أمه وهو يتثاءب . أما البنت فقد وقفت في مكانها صابرة ممتثلة وهي مطبقة الجفنين .

ثم نهضت الأم مسرعة وتناولت المنشفة السمراء المعلقة في وتد خشبي بالحائط ، فغمست طرفهـا في ماء الوعاء وجعلت تمسح بتؤدة عيني الطفلة . فأخذت الطفلة تئن وتبكي بكاء خافتا لا يكاد يسمع . وراحت الأم تناجي نفسها كما كانت تفعل صباح كل يوم :

ـ لابد من البحث عن دواء لعيني البنت . سأطلب منه حينما يذهب لبيع قش الأرز ، اذا لم انس ، أن يذهب الى احد حوانيت الأدوية . فاني أعرف حانوتا عند باب المدينة في شارع ضيق هناك .

وفيما هى تناجى نفسها بهذه الخواطر جاء الرجل الى الباب وهو يلتف بملابسه ويتثاءب ويحــك راسه . وما لبثت الأم أن اعربت عما يخالج نفسها قائلة :

ـ عندما تذهب لبيع قش الأرز فى المرة القادمة ، فاقصد الى حانوت الأدوية القريب من باب المدينة ، واطلب دواء للعيــون المريضة كعينى هذه البنت .

لـكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم . وقال متبرما :

ـ ولم نضيع مالنا القليل فى شراء دواء للعيون المريضة ما دام يستحيل أن تموت بهــذا السبب ؟ انى كنت اشــكو مرض العينين فى صغرى . ولم ينفق أبى شيئا على لهذا السبب . رغم انى كنت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة .

رات الأم ان الوقت غير صالح للجدل . فلم تزد شيئا عمـا قالت . وصبت للرجل ما يحتاج اليه من الماء . غير انها كانت غاضبة كذلك . فلم تقدم الماء اليه . بل وضعته فوق الخــوان حتى يأخذه بيده .

وفجاة استيقظت العجوز ونادت بصوت خافت . فحملت لهـا الأم اناء من الماء الدافىء لـكى تشربه قبل أن تنهض . وجعلت العجوز تحتسى الماء بصوت مسموع . ثم تجشأت واخذت تشكو ما ينتابها من الضعف فى الصباح .

ثم قصدت الأم الى المطبخ واخذت فى اعـداد طعام الافطـار . وجلس الطفـلان فوق الأرض متضـامين بسبب برودة الصباح الباكر . ثم نهض الولد اخيرا وذهب الى حيث كانت أمه تشعل النار . أما البنت فقد لزمت مكانها .

وفجاة أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أرجاء المزرعة وسقطت فوق عينى الطفلة فأغمضتهما بسرعة . وكاد الألم يدفعها للبكاء غير انها أخذت تلهث وغالبت نفسها كما يفعل الانسان البالغ ، وجلست فى مكانها ساكنة وقد أطبقت جفنيها المحمرين ولم تتحرك حتى وافتها أمها بالطعام ودفعته بين يديها .

اجل .. هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتململ مرة من تعاقب الأيام على هذا النحو ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها . ولو خاطبها أحد فى هذا الصــدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين ، وقالت له :

ـ لكن الأرض تتطور بين زمن البذر والحصــاد . ثم يجنى

المحصول من أرضنا ويدفع نصيب مالك هذه الارض التى نستاجرها حبوبا . ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة . نعم . وحتى الاطفال يتغيرون ويشبون . ثم احمل من جديد . كل شيء يتغير فى نظرى . بل كل شيء يتطور ويحملنى على العمل من مطلع الفجر الى مغرب الشمس .

واذا انفتح أمامها الوقت رات نساء المزرعة بين حامل توشك ان تضع ، واخرى تندب وليدا لهـا مات ، وثالثة اهتدت الى طريقة جديدة لتفصيل الثياب .

وكانت تقصد أحيانا الى المدينة برفقة زوجها لبيع بعض الكرنب او الحبوب ، وهناك ترى مناظر طريفة تستهوى اللب وتدعو الى التأمل أن بقى أمامها وقت للتامل والتفكير .

لكن الواقع أن هذه المراة كانت من طراز لا يستهويه فى الدنيا سوى مجاورة الرجل والاطفال ولا يغريها شيء بالتفكير فى غيرهم .

كل ما كان يعنيها من الدنيا هو أن تلمس عاطفة الرجل ، وأن تحس الحياة تدب وتنمو فى أحشائها ، وأن تضع وليدا تقدم له ثدييها .

ثم تنهض فى الفجر فتقدم الطعام لأهل البيت وتقيت الدواب . وتبذر الحب وتجنى الثمار . وترفع الماء من البئر لكى يشرب منه ذووها . وتمضى الى الروابى والتلال فتجمع الحشائش البرية وتستشعر حرارة الشمس ولفح الهواء .

كانت تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها . تستمتع بالوضع والعمل فى الحقل ، والاكل والشرب والنوم ، وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها فى العمل والحياكة . بل أن التشاحن مع الرجل كان أمرا طيبا وعاملا على الذكاء عاطفتهما . ومن اجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

وفى هذا اليوم الذى تقدم وصفه ، افطر الرجل وحمل فأسه وقصد الى الحقل متباطئا كعادته . فتقدمت الأم الى الصحاف لغسلها . وأجلست العجوز فى حرارة الشمس . وامرت الطفلين باللعب قرب البيت ، بعيدا عن الترعة . ثم حملت فأسها وسارت فى طريقها ، غير انهـا وقفت مرة او اثنتين والقت نظرة الى الخلف .

حمل النسيم الى سمعها صوت العجوز الرقيق يتردد خافتا . فابتسمت وواصلت طريقها . فقد كانت حراسة الدار هى قصارى ما تضطلع به هذه العجوز . وكانت تقوم بهـــذا القسط فخورة مزهوة . فهى رغم شيخوختها واضمحلال بصرها لم تزل بها القدرة على النظر وتمييز المخلوقات . ولو دنا من الدار كائن غريب لرفعت الصوت عاليا صائحة مستنجدة .

وصحيح أن العجوز كانت حملا ثقيلا ، وعالة كالأطفال الصغار أو أشد كثيرا ، فكلما طعنت فى السن زادت عنادا واستعصت على الزجر والتأديب . لكن الأم حينما سمعت زوجة العم تقول لها يوما هذه العبارة : « سيكون من دواعى راحتك وحسن حظك اذا ماتت هذه المخلوقة الطاعنة فى السن ، فقد شاخت وعميت وتكاثرت عليها الأمراض والأوجاع وازدادت خرفا وعنادا » ــ لم يكن منها الا ان أجابت بلهجتها الوادعة الرقيقة : « نعم لكن ما زال بها نفع كبير لنا . فهى تقوم بحراسة الدار . وأرجو أن تعيش حتى تكبر البنت ويشتد عودها » .

أجل .. لم يكن من طبع الأم أن تقسو على العجوز وتشتد فى معاملتها . وكانت قد سمعت عن النساء اللائى يشهرن الحرب على أمهات أزواجهن ويضقن ذرعا بهن . لكن العجوز لم تكن فى نظر هذه الأم الطيبة الشابة أكثر من طفل صغير ، وكثيرا ما كانت تحملها على ارتياد الروابى او التــلال لجمع بعض الأعشاب التى تشتهيها . على انه حينما مرضت العجوز ذات يوم وأيقن الجميع من قرب موتها وجىء لها بنعش لنقل جثتها . كم كان فرح الأم اذ رأت العجوز تتشبث بالحياة وتغالب الموت فتغلبه . نعم ... لقد أفنت هذه العجوز كفنين ، لكن الأم كانت تفرح كل مرة بعودتها الى الحياة . وكان أهل المزرعة يتندرون بجلد العجوز ويتفكهون بمغالبتها للفناء . وكانت العجوز ترتدى الجلبـــاب الأحمر الذى صنعته الأم كفنا لها ، تحت جلباب آخر أزرق ، كما كانت العادة فى تلك الجهات .. حتى اذا بليت أطرافه وتناثرت خيوطه صنعت لهــا الأم جلبابا ثانيا فلبسته العجـــوز فرحة به . وكلما سألها سائل : « الا تزالين ايتها العجوز على قيد الحياة ؟ » ــ اجابته فى جذل : « نعم .. لا زلت أعيش ، وارتدى كفنى ، وسأبليه كما أبليت سابقه .. ولست أعلم كم سأبلى غيره ! » .

وهكذا كانت العجوز تضحك وتغرق فى الضحك كلما رأت انها

ما زالت تستروح نسيم الحياة وتقصر عنها يد الموت والفناء .

القت الأم نظرة اخيرة خلفها باسمة حينما استعرضت هـذه الذكريات وسمعت العجوز تقـول لها : « اطمئنى يا ابنتى . أنا موجودة لحراسة الدار » .

أجل .. انها ستحرم من معاونة هذه العجوز اذا طواها الموت . لـكن الموت غالب لا يقهر . ولا سـبيل الى دفع عواديه اذا حم القضاء .

وهكذا مضت الأم فى طريقها هادئة النفس ساكنة الخاطر .

الفصل الثالث

ما كاد نبات الفـول الذى غرست الأم بذوره ينمو ويزدهر ويمتلىء الهواء بشذاه حتى وضعت الأم طفلها الرابع . ولم تكن توجد قابلات فى هذه المزرعة كما هو الشأن فى المـدن والبلدان والقرى الكبيرة . لكن نساء المزرعة كن يتعاون فى مسائل الوضع، وكان بهـا جدات قادرات على التلقين والارشاد اذا وقع خطأ أو استعصى وليد او تحيرت أم فى الولادة . بيد ان الأم كانت حسنة التركيب لا عيب فى بنيانها . بل انهـا لم تعان مشقة حتى حين اجهضت ، فقد وضعت فى يسر ولم تقاس شيئا من الألم الا الم الحسرة على الوليد الذى لم يستكمل عدته ، وذهاب جهود الحمل فى غير طائل .

كانت الأم اذا حضرتها الولادة تستعين بزوجة العم ، كمـا تستعين هذه بها اذا حانت ساعتها .

ففى يوم من أيام الربيع رق نسيمه وصفت سماؤه احست الأم بأن ساعة الوضع قد حانت . فاجتازت الحقل حتى اذا أشرفت على الدار تركت الفأس من يدها ونادت زوجة العم التى كانت تغسل ملابس ذويها عند حافة الترعة . فسارعت الى الأم وهى تجفف يديها .

كانت زوجة العم امرأة طيبة القلب صافية السريرة ، ذات وجه مستدير اسمر وانف افطس وفم كبير احمر . وهى فوق هـذا ثرثارة بعكس زوجهـا الصموت . وما كادت تسمع النـداء حتى ركضت وهتفت ضاحكة :

ـ من حسن الحظ يا أختى اننـا لا نلد فى وقت واحد . انى

راقبتك زمنا وجعلت أتساءل من منا تسبق الأخرى فى الوضع . لكنى تأخرت فى الحمل هذه السنة عن مألوف عادتى ، وأنت على وشك الولادة فى الوقت الذى بدأت أنا أحمل فيه .

فاهت زوجة العم بهذه الكلمات فى صوت مرتفع رنان كعادتها . فسمعتها نساء المزرعة ونادين من بيوتهن فرحات :

ــ جاءت ساعتك يا أختى ؟ . نتمنى لك حظا .. وولدا ..

وكان بين نساء المزرعة أرملة ثرثارة . فقالت من بيتها :

ــ نعم . استنفدى زوجك ما دام معك . فهأنذا امرأة صالحة للحمل والولادة ولا رجل عندى .

لكن الأم لم تجب . وانما ابتسمت ابتسامة يسيرة وقد بدا لونها شاحبا لما شابها من الغبار والعرق . ثم دلفت الى داخل الدار .

وتبعتها العجوز الى الداخل وهى تثرثر وتضحك سرورا بهذه المناسبة ، وقالت :

ــ كنت أقول كلما جاءت ساعتى ، وأنت تعلمين يا ابنتى انى وضعت تسعة أولاد كانوا جميعا أصحاء أقوياء حتى مماتهم .. كنت أقول دائما ..

لكن الأم لم تنصت اليها . بل تناولت مقعدا صغيرا جلست فوقه دون أن تتكلم ، وجعلت تسوى شعرها الأشعث بيديها اللتين غمرهما العرق ، لا عرق الحقل ، وانما عرق الألم . ثم تناولت طرف جلبابها ومسحت وجهها وفكت جدائل شعرها الطويل الكثيف وعقدته من جديد . وفجأة انتابها ألم حاد . فانحنت الى الأمام صامتة . وجعلت تنتظر .

وكانت العجوز مسترسلة فى الكلام بجانبها زوجة العم تضحك منها فلما رأت هذه انحناء الأم أسرعت الى الباب وأغلقته ووقفت تنتظر . لكن سمع طرق الولد فجأة على الباب . فقد رأى الباب يوصد بالنهار وأمه فى الداخل ، فأخذه الخوف وصرخ وطلب أن يفتح الباب ، فقالت الأم أول الأمر « دعوه فى الخارج حتى أنتهى بسلام » . وتقدمت زوجة العم الى الباب وصاحت من فتحته : « انتظر مكانك حتى تنتهى أمك » وأعقبتها العجوز قائلة « انتظر مكانك يا ولدى . وسأعطيك ما تشترى به بعض الحلوى اذا بقيت تلعب ، وسترى ما تجىء به أمك بعد قليل ! » .

لكن الولد تملكه الخوف اذ رأى الباب يوصد فى النهار وصمم

على الدخول . واخذت البنت تبكى كذلك كعادتها كلما رات اخاها يبكى وتقدمت تتحسس طريقها الى الباب واخذت تضربه بقبضتى يديها النحيلتين . فغضبت الأم آخر الأمر وزاد غضبها حينما اشتد بها الم المخاض . ونهضت من مكانها واندفعت الى الباب ونظمت الولد بشدة وصـــاحت فى وجهه : « طول عمرك تعذبنى ولا تسمع كلامى ! وهذا ولد آخر سيجىء مثلك ! » .

لـكنها ما كادت تضرب الولد حتى لان قلبها وذهب غضبها وقالت فى لهجة أرق : « لكن تعال ادخل اذا لم يكن بد من دخولك . ولن ترى شيئا غريبا » .. ثم استطردت تخاطب زوجة العم : « اتركى الباب مفتوحا قليلا فهم لم يعتادوا هذا » ..

ثم عادت الى الجلوس وأمسكت راسها بيديها واستسلمت للألم صامتة . اما الولد فقد دخل ولـمــا لم ير شيئا واحس بزوجة العم تحدجه بنظرات صارمة وكأنه ارتكب شيئا فقد خرج ثانية . لـكن البنت دخلت وجلست على الأرض قرب أمها وظللت عينيها بيديها تخفيفا لألمها .

وهكذا جلسن جميعا منتظرات .. الأم صامتة متألمة .. والمرأتان الاخريان تتجاذبان اطراف الحديث عن شــــئون المزرعة واحوال اهليهــــا ، وتكلمت زوجة العم عن ذلك الرجل المقيم عنـد طرف المزرعة ، الذى أنهمك فى المقــــامرة تاركا أرضه خواء ، وكيف انه تشاجر اليوم مشاجرة حامية مع زوجته واغتصب آخر ما يملكان من دراهم ، وغادر بيته للمقامرة ، فخرجت الزوجة البـائسة الى باب الدار تندب حظها وتبث الجميع شكواها . وقالت زوجة العم :

— « وهذا الرجل لم يكسب مرة فى حياته . فهو يخسر دائما . وهذا ما يحزن زوجته ويزيد كربها » .

فلما سمعت العجـوز هـذا الـكلام تنهدت وبصقت على الارض وقالت :

— نعم . من المحزن أن يخسر الرجل دائما ولا يربح شيئا . لكنى اعرف رجالا كثيرين بهذا الوصف . على انى احمد الآلهة ان هذا بعيد عن بيتنا . فان ولدى يربح دائما فى المقامرة .

لـكن العجوز ما كادت تتم كلامها حتى صرخت الأم واستدارت فى مكانها بعيدا عن الابنة وفكت حزامها وانحنت فوق المقعـــد . فأسرعت زوجة العم اليها وتناولت فى يدها المولود الذى ينتظرنه .. واذا هو ذكر ..

اما الام فقد ذهبت الى الفـــــراش وتمددت فوقه تستريح من جهدها الشـــــاق . وكم كانت الراحة عذبة على نفسها فى هـذا الوقت . نامت نوما عميقا متصلا .

وعمدت زوجة العم الى المولود فغسلته ولفته ووضعته قرب الام النائمة التى لم يوقظها صراخه . ثم انصرفت زوجة العم عائدة الى دارها بعد أن اوصت العجوز أن تبعث بالولد فى طلبها عندما تستيقظ أمه .

ثم جاءها الولد بعد ذلك صـــائحا : « هل تعرفين ان لى الآن اخا ؟ » فغادرت زوجة العم دارها على الأثر حاملة اناء به حساء ، وقالت للولد تعاكسه ضاحكة : « وكيف لا اعرف وقـد حملته بين يدى ؟ » .

فوقف الولد يفكر قليلا ، ولما أعلن اشفاقه وخوفه الا يبقى الوليد فى بيت والديه لم تتمـــالك زوجة العم أن ضحكت من سذاجته وشاركتها العجوز ضحكها .

وتناولت الأم الحساء الذى حملته اليهـــا زوجة العم ممتنة شاكرة ، وغمغمت قائلة : « هذا كرم منك يا أختى » .

لكن زوجة العم أجابتها قائلة :

ـ الست تفعلين مثل هذا لاجلى اذا جاءت ساعتى ؟ .

وهكذا شعرت المراتان بهـذه الرابطة الوثيقة التى تجمع بينهما صديقتين متعاطفتين متساندتين ! رابطة الولادة . تلك التى تتجدد وتتكرر كل عام .

الفصل الرابع

ذلك كان شان الام .

اما الأب فكان له شأن آخر . فقد كانت الحياة لا تتغير فى نظره ولا أمل أمامه فى جديد .

بل ان ولادة الأولاد التى كانت الام تجد فيها لذة وسعادة لم تكن بالجديدة فى عينيه . فقــــد كان الأولاد يولدون جميعا ســـواء متشابهين . لهم عليه واجب القوت والكسوة . واذا كبـروا وجب تزويجهم . ثم يولد لهم أبنــــاء بدورهم فيجيئون جميعــــا سواء متشابهين . وهكذا كانت الايام تتعـاقب متماثلة . وكل يوم لا ياتى بجديد .

وهو نفسه قد ولد فى هذه المزرعة الصغيرة . ولم ير فى حيـاته

جديدا الا ما كان من ذهابه احيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ فى الصباح صافح عينيه منظر التلال المنخفضة والسماء التى لا تتغير ولا تتبدل . ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل . ثم يعود الى البيت الذى ولد فيه وينام فوق الفراش الذى نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر واعدت له (مرتبة) خاصة .

اجل .. وها هو ذا الآن ينام فوق هذا الفراش مع زوجته وأولاده وتنام امه العجـــوز فوق (المرتبة) . وهو هو نفس الفراش ونفس البيت . بل لم يكن من جديد فى هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التى جىء بها عند زواجه . وهى اناء لغلى الشاي وغطاء ازرق فوق الفراش وشمعدان جديد واله جـديد من الورق نصب فوق الحائط . وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح يرتدى ثوبا مؤلفا من الوان حمراء وزرقاء وصفراء متعانقة مؤتلفة . لـكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجىء بالغنى المنشود الى هذه الدار . وطالما تطلع الرجل الى هذا الاله ولعنه فى ضميره لأنه كان يشرف فى مرح على هذه الغرفة الحقيرة التى كانت حقـــــارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وكان احيانا يعود الى البيت من المدينة بعد يوم راحة ، أو عقب المقامرة فى يوم مطير مع بعض الـكسالى المتسـكعين فى الخـان . وما يكاد يبلغ هذا البيت الصغير الضيق ويعود الى هذه المراة الولود التى تضع له أولادا عليه أن يكدح لاطعامهم حتى يرى وقد ملك عليه الجزع والرعب شعاب نفسه انه لن يجد فى حياته ما عاش الا أن يستيقظ فى الصباح ويذهب الى هذه الأرض التى لا يملكون منهـــا الا قليلا والتى استأجروها من المالك الذى يحيا حياة الدعة والرفاهية فى احدى المدن القاصية ، والا ان يسلخ يومه فى هذه الأرض المأجور كما فعل أبوه من قبل ، والا أن يؤوب الى البيت ويطعم هذا القوت الجاف الخشن وهو اســـوا ما تغل الأرض التى يكدح فيها ، أما الطيب فيباع لغيره لـكى يستمتعوا به ، والا أن يأوى الى فراشه ليلا ثم ينهض فى الصباح لكى يستأنف يومه على النحو الذى بدأ .

بل ان غلة الأرض لم تكن ملك يمينه . فقد كان مضطرا لاعطاء نصيب منها لمالك الأرض ، وآخر لوكيل المـالك المنوط به جبـــاية المحصول ، وكان اذا فكر فى هذا الوكيل لم يطق ذكراه . فقد كان رجلا من أهل المدن طالما تاقت نفسه أن يكون على غراره . اذ كان

يرفل فى الحرير وعليه مظاهر الدعة والرخاء التى تطبع أصحاب المدن ممن يؤدون عملا يسيرا ويطعمون طعاما طيبا كثيرا .

كان الرجل اذا ألحت عليه هذه الأفكار والخواطر يضيق صدره ويشتد تبرمه وسخطه ولا يخاطب المرأة بشىء الا لكى يسبها لبطئها فيما تقوم به من عمل . وشد ما كان يسره ، اذا استفز طبعها الحاد فانبرت له غاضبة ، أن يشتبك معها فى شجار حامى الوطيس . وكان يجد فى هذا ترفيها عن نفسه وشفاء لوجده ، وان كانت دائما تظفر عليه وتتم لها الغلبة فى النهاية اذ هى أحد منه طبعا واقوى شكيمة .

على أنه لم يكن يستطيع ان يصمد للغضب طويلا فقد كان يكل ويعمد الى شىء آخر يسرى به عن نفسه وينسى غضبه .

وكان غضبها يبدو فى أشد صوره وأعنف مظاهره اذا ضرب أحد الطفلين أو صاح فيه منتهرا لبكائه . فهى لم تكن تطيق هذا منه . بل كانت تهتاج وتواجهه مواجهة عنيفة وتستنقذ الطفل منه ، فيخرج هو أبدا مهزوما ويجىء الحق دائما فى جانب الطفل . ولذلك كان يحنقه منها أن تفضل الأطفال عليه وتؤثرهم دونه . أو هذا ما كان يتصوره .

أجل كان اذا تحالفت عليه تلك الخواطر ، يضيق بكل شىء ولا يجد لذة فى شىء ، حتى فى أيام العطلة القلائل وأيام الأعياد وأيام الشتاء الطويل الذى لا يؤدى فيه عملا ، بل يلزم فراشه ، واذا لم يستطع الى النوم سبيلا قضى وقته فى المقامرة .

وكان فى المقامرة رجلا مجدودا موفقا . وطالما عاد الى بيته حاملا أضعاف ما خرج به ، وكم خيل اليه ان حياته تكون هانئة على هذا المنوال لو انه كان وحده . وكان يحب المقامرة وما تقترن به من لذة الانفعال والحماسة ، كما كان يستهويه أن يرى الرجال يحفون به وهم يبدون اعجابهم ببراعته وخفة أصابعه . والواقع أن الحظ كان يكمن فى أصابعه الرشيقة الخفيفة التى لم تتصلب بتأثير المحراث والفأس . فقد كان فتى فى ميعة الشباب ونضارة الصبا ، لا يجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، ولم يشتغل يوما أكثر مما يجب .

لكن الأم لم تطلع يوما على قلب الأب ولم تقف على شىء مما يساوره . وكانت تعرف هيامه بالمقامرة . ولكن ماذا يضيرها من هذا وهو لا يخسر فى اللعب ؟ والحق أن براعته فى اللعب كانت موضع زهوها وفخارها . وحين كانت رفيقاتها من أهل المزرعة يندبن حظهن اذ يفقد أزواجهن على مائدة الخان ما يربحونه من الدراهم المعدودة

اثنــاء العمل فى الحقول ، كانت تبتسم راضية مسرورة من مقدرته على الربح ولا تنحى عليه باللائمة الا اذا أرادت أن تتخذ من هذا ذريعة لشجار جديد .

ولم تكن تشتد فى لومه اذا لم يواصل العمـــل فى الحقل ويثابر مثابرتها ، وان كان فى هذه المناسبات لا يسلم من لسانها اللاذع . فقد كانت تعلم ان الرجال لا يقوون على العمل كالنساء . وقد الفت أن تستمر فى عملها بينما يلقى زوجها فأسه ويتمدد فوق الحشائش النامية بين الحقول وينام ساعة أو ساعتين . لكنها اذا عاتبته مؤنبة بحكم العادة ، اجابها قائلا : « نعم . من حقى ان انام . فقد اشتغلت ما يكفى لقوتى » .

وكانت تود فى مثل هذه المناسبات أن تقول له : « أليس لنا اذن اطفال ومن واجبنا ان نعمل كل ما فى وســـعنا لكى نوفر القوت لهم ؟ » . لكنها كانت تمسك عن مثل هذا الكلام لأنه كان يبدو لها حقا ان الأطفال هم أطفالها وحدها ما دام زوجهــا لا يعمل شيئا لأجلهم . وفوق هذا فلم يكن لها حضور بديهته فى الجواب .

لكنها كانت تغضب أحيانا وتشتد فى الغضب حين تراه يبتاع من المدينة بعض الحلى التافهة من النقود التى باع بها شيئا من غلة الأرض ، أو حين يسكر فى غير أيام الأعياد .

كان غضبها يبلغ مداه فى مثل هذه المناسبات ، ويكتسب مرارة تنسيها انها تحبه فى أعماق قلبها . ويظل هذا الغضب يعمل فى نفسها ساعات طوالا حتى يعجز عن مجاراتها ويلتمس ما ينسيه غضبها .

ففى أحد ايام الخريف عاد اليها متحليا فى اصبعه بخاتم من ذهب، أو زعم انه من ذهب . وما كادت تراه حتى ثار غضبها وصاحت فيه مهتاجة حانقة :

ــ انت .. انت .. لا تحب أن تساهم بنصيبك فى بؤس حياتنا .. بل تذهب وتبذر مالنا القليل فى شراء خاتم تلبسه فى اصبعك ! . هل سمع احد أن رجلا فقيرا مسكينا يلبس خاتما فى اصبعه ؟ . ان الغنى هو الذى يحق له أن يفعل هذا ولا لوم عليه . لكن اذا فعله رجل فقير ، فهل لذلك من معنى مشرف ؟ . ذهب ؟! . من سمع أن خاتما من ذهب يشترى بدراهم من نحاس ؟ .

وما كاد الرجل يسمع هذا الكلام حتى صاح فيها وقد ثارت ثائرته وتمرد عليها .

ــ هو من ذهب كما قلت لك ! . ان الرجل الذى باعه أخبرنى انه

مسروق من بيت احد الاغنياء ، وقد ارانيه سرا فى الطريق أثناء سيرى وكان يخفيه تحت سترته ، وسمح لى ان أراه حينما كنت فى طريقى .

لكنها قالت له ساخرة :

ـ نعم .. فقد راى أمامه مغفلا يسهل خداعه . واذا صح انه من ذهب فهل لم يخطر ببالك انهم قد يرونه معك فى المدينة ويقبضون عليك ويزجون بك فى السجن بتهمة السرقة ؟ . فكيف اذن نعيد لك حريتك ، أو نطعمك فى السجن ؟ . ارنيه حتى انظر ان كان حقا من ذهب .

لكنه لم يرض ان يعطيها الخاتم ، وهز كتفيه متبرما كالطفل . فلم تطق هذا منه . وهجمت عليه وخمشت وجهه الأملس الوسيم وانهالت عليه بضرب عنيف حتى ارتاع منها ولم يسعه الا أن يخرج الخاتم من اصبعه ويلقيه اليها بازدراء ، ولكن فى خوف أيضا قائلا :

ـ خذيه ! أعرف انك غاضبة لأنى اشتريته لنفسى ولم أشتره لك انت ! .

ساورها غضب جديد حين سمعت منه هذه الكلمات ، فقد كانت تعلم انه يقول الحقيقة ، وكانت تعانى فى نفسها ألما خفيا اذ تراه لا يبتاع لها حلية تضعها فى اذنيها أو فى أصابعها كما يفعل الأزواج لزوجاتهم ، وقد ساورها هذا الخاطر حين وقع نظرها على الخاتم . وجعلت تحدق فيه ، فقال لها فى صوت متهدج بالأسى لحظة السيىء وحياته القاسية :

ـ انت دائما تستكثرين على اتفه الأشياء . وتحبين ان يتحول كل شيء لهؤلاء الأطفال الذين تربينهم ! .

واخذ يبكى بكاء لا ريب فيه وذهب الى الفراش فانطرح فوقه واستمر فى بكائه بصوت عال حتى يصل الى سمع زوجته . وكانت أمه قد سمعت هذا الشجار خائفة مشفقة . فأسرعت اليه تواسيه وتسرى عنه حتى لا يلم به مرض . ورمقت زوجته بنظرات عدائية وقد كانت تحبها دائما وتعطف عليها . وبكى الطفلان لبكاء ابيهما . وراما فى امهما امراة قاسية غليظة القلب .

لكن الأم لم تهدأ ثائرتها بعد .. فتناولت الخاتم الذى القاه الرجل على الأرض ووضعته بين أسنانها وعضت عليه حتى ترى ان كان حقا من الذهب ليفيدوا منه فائدة محققة . فقد كان المعروف ان

الادوات المسروقة تباع دائما بثمن بخس . على ان المعدن لم يلن تحت اسنانها كما كان يجب لو أنه من ذهب حقـــا . وهتفت فى غضب متزايد :

ـ اذا كان من ذهب ، أفلم يكن يلين تحت اسنانى ؟ هو معدن صلب من نحاس .

وعضت عليه مرة ثانية ثم قالت وهى تبصق الطلاء الزائف الذى يعلوه :

ـ أنظر ! انه لم يكد يطلى حتى بماء الذهب ! .

لم تطق الأم ان ترى الرجل يغرر به على هذا النحو الصبيانى . فابتعدت عنه وخرجت الى الحقل لـكى تشتغل وقد قسا قلبهـا حتى لم تلق نظرة على الطفلين الباكيين ، ولم تستمع للعجوز التى راحت تقول فى صوت متهدج يشف عن القلق :

ـ عندما كنت فى شبابى كنت أترك زوجى يلهو ويتمتع . يجب على الزوجة أن تترك زوجها يتمتع قليلا .

نعم . لم تستمع الزوجة لهـذا الـكلام . ولم تر فيه ما يهدىء غضبها ويخفف حنقها .

على أنها بعد ان عملت بعض الوقت فى الحقل ذهب غضبها دون أن تشعر بتأثير هواء الخريف العليل ، وسكنت نفسها قليلا ، وعادت اليها طيبتها . وفيمـــــا كانت يدها تنثر الحنطة الشتوية فى التربة المحروثة تسلل الهدوء الى نفسها وتذكرت انها تحب هذا الرجل حبا جما وارتسمت أمام عينيها صورة محياه الضاحك فهزت من فؤادها وترا حساسا . وقالت لنفسها مؤنبة :

ـ سأصنع له فى الغداء لونا لذيذا . ومهما يكن فانى أسرفت فى الغضب بسبب دراهم يسيرة .

اشتدت بها اللهفة اذن وعادت الى البيت لاعداد الطعام اللذيذ لكى تبرهن له على انها تبدلت وصفحت . لكنها الفتـه لم يزل فى الفراش غاضبا ، وقد تمدد موليا وجهه شطر الحائط ولم يشأ ان يقول كلمة واحدة . ولما اتمت اعداد الطعام الذى يحبه ونادته لم ينهض ولم يقبل أن ياكل . وقـال بصوت شـديد الخفـوت وكأنه مريض :

ـ لا يمكن أن آكل . انك قتلت شهيتى .

لم تجب بكلمة . بل وضعت الصحفة جانبا وذهبت لاستئناف عملها فى الحقل وقد زمت شـــفتيها ، ولم تنضم الى العجوز وهى

تحاول أن تحمل ابنها على الأكل .
تذكرت الأم غضبها ورفضت أن تتقدم نحوه بالرجاء . وفيما هى تغادر الدار لحق بها الكلب وهو يهمهم جائعا مستعطفا . فعادت الى المطبخ حيث كانت الصحفة التى أعدتها للرجل ، ومدت يدها نحوها قائلة :
ـ لا بأس . سأقدمها للكلب .
لكنها لم تفعل . ومهما يكن فقد كان هذا الطعام لبنى الانسان ، ولا يمكن اضاعته على حيوان . ولذلك أعادت الصحفة الى الكوة الصغيرة فى الحائط وجاءت بقليل من الأرز وقدمته للكلب .
على انها ما كادت تستلقى ليلا فى الفراش بجانب الطفلين من ناحية والرجل من ناحية أخرى حتى تلاشى غضبها . فى هذا الوقت بدا لها ان هذا الرجل لا يعدو أن يكون طفلا كذلك ، وانه يعتمد فى وجوده عليها مثل غيره من أفراد البيت .
ولما طلع النهار نهضت هادئة النفس وادعة الخاطر ، وبعد أن افطر الجميع الا زوجها ذهبت اليه واخذت تلح عليه لكى يقوم ويأكل . فلما بدا له ذلك منها نهض متباطئا كأنما يقوم من مرض وتناول قليلا من الصحفة التى أعدتها له ، ثم اتى عليها حتى آخرها اذ كانت من لون يحبه . وفيما كان يأكل راحت العجوز تنظر اليه فى محبة وهى تطرق مختلف الأحاديث .
لكنه لم يشأ أن يعمل فى هذا اليوم . وفيما كانت الأم تغادر البيت ذاهبة الى الحقل جلس فوق مقعد منخفض فى مدخل البيت تحت أشعة الشمس ، وهز رأسه فى ضعف وقال :
ـ انى احس بفتور وألم فى قلبى ، وسأستريح اليوم .
ورات الأم انها اخطأت فى حقه حينما اغلظت فى معاملته على ذلك النحو ، وندمت على ما بدر منها من الغضب ، وقالت له مواسية :
ـ لك ان تستريح اذن .
وذهبت الى الحقل .
على أنها ما كادت تذهب حتى دب الملل الى نفسه وضاق ذرعا بثرثرة أمه . فان العجوز لذ لهما أن تنفرد بولدها طول اليوم واسترسلت فى الحديث . أما هو فقد تبرم بكلامها وسئم رؤية الطفلين يلعبان .
ولذلك نهض من مكانه وقال لأمه انه يريد ان يتناول بعض الشاى حتى يستدفىء به ، ومضى فى الشارع الصغير الى الخان الذى يديره

عمه الخامس . وفى هذا الخان رأى اناسا يشربون الشاى ويتجاذبون اطراف الاحاديث . والفى خوانات ممدودة تحت قماش مشدود فى عرض الطريق حيث يمر المســـــافرون وينالون قسطا من الراحة والشراب . وكان يتاح للجلوس اذا مر احد هؤلاء المســـافرين أن يسمعوا بعض القصص الطريفة فى مختلف الشئون . كما يمر بالخان أحد القصاص ويلقى ما عنده من القصص والسير . وهكذا كان الخان مكانا حافلا بالمسرة والنشاط .

على انه صادف فى طريقه عمه الصموت عائدا من الحقل لتناول الطعام بعد ان قام بقسط من العمل منذ الفجر . وسأله العم قائلا :

ــ الى اين تذهب ؟ ولم لا تشتغل ؟ .

فاجاب الرجل بلهجة الضعف والشكوى :

ــ ان امرأتى استنزلت على المرض لاختلافنا على مسالة لا اكاد اعرفها ولم استطع ارضاءها . ونتج عن هذا اصابتى بمرض جزعت منه هى نفسها حتى انها امرتنى ان استريح اليوم وان اذهب لشرب بعض الشاى تدفئة لمعدتى .

فما كاد العم يسمع هــذا الــكلام حتى بصق وسار فى طريقه دون ان يقول شيئا . فقد كان قليل الــكلام ، وكان بطبعه يحتفظ بآرائه القليلة لنفســه .

وهكذا كان الرجل متبرما بزوجتـــــه . ولم يطق التفكير فى جمود حياته وسيرها على هذا النحو يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، حتى يهرم ويموت . وشق عليه أن يسمع من المسافرين القلائل الذين كانوا يعرجون على الخان عن وجود أشياء عجيبة مدهشة فيما وراء هذه الروابى والتلال وعند مصب النهر .

هنالك ، على حد قولهم ، كان النهر يلتقى بالبحر .. وهناك توجد مدينة عظيمة حاشدة بالناس من مختلف الأجناس والألوان . والمــال ميسور نيله بعد جهد قليل . ونوادى المقامرة منتشرة فى كل مكان . وفيها فتيات مغنيات حسان لا يحلم أصحاب هذه القرية برؤية مثلهن مدى الحياة .

وفى المدينة بعد ذلك مشاهد اخرى عجيبة .. ففيها الشــوارع الممهدة ، والمركبات المختلفة ، والدور الشاهقة كالجبال ، والحوانيت ذوات الواجهات الحافلة بصنوف السلع المجلوبة فى الســفن من وراء البحار . وقد يمضى الانســان حياته كلها فى التطلع الى هذه الواجهات دون أن يحيط بها . وفيها الطعام الجيد الموفور واللحوم والأسماك

المنوعة . واذا اكل الانسان انتقل الى ملاعب كبيرة تمثل فيها مختلف المشاهد الحية والمتحركة . فيهـــا ما يضحك الناظر حتى يتشقق بطنه . ومنها العجب المخيف المروع . ومنها المليء بالدهاء والشر . بل أعجب وأروع من هذا كله أن الليل في هذه المدينة العظيمة ساطع كالنهار ، تضاء فيه مصابيح لا توقد بالأيدى ولا باللهب ، بل بنور صاف يستمد من السماء .

وكان الرجل يلعب أحيانا مع أحد هؤلاء المسافرين ، فلا يملك هذا الا ان يبدى عجبه ودهشته من وجود مثل هذا اللاعب الماهر فى مثل هذه المزرعة الصغيرة ، ويقول له ، « أنت تلعب ياصاحبى كأهل المدن ، وبامكانك ان تلعب فى أى ملهى فى المدن ! .. » .

فاذا سمع الرجل هذا الثناء ابتسم وقال بلهجة الجد : « هل تحسب انني استطيع أن أفعل هذا حقا ؟ » . ثم يناجى نفسه فى ازدراء ولهفة بهذه الكلمات : « صحيح انه لا يوجد فى هذا المكان الكئيب من يجارينى فى اللعب ، انى أصمد فى البلدان الصغيرة لكل واحد من لاعبيها » .

كان كلما فكر فى هذا الشأن اشـــــتدت لهفته لهجر هذه الحياة الريفية التى يمقتها ، وطالما ناجى نفسه وهو ينهال بفأسه على الأرض بهذه الكلمات : « هانذا شاب جميل فى أصابعى حظ وبراعة ، ولكنى محصور كالسمكة فى قاع بئر .. وكل ما أراه هو هـذه السماء المستديرة فوق راسى ، فى صحوها ومطرها .. وهذه الزوجة التى تلد أطفالا متتابعين متشابهين يبكون ويصرخون ويطلبون القوت .. فما الذى يحملنى على افناء قوتى لاطعامهم وما الذى يضطرنى الا التمس لنفسى تسلية فى حياتى الخاصة ؟ » .

والواقع انه لم يستطع أن يكتم تبرمه بزوجته وحنقه منها حين حملت ووضعت هذا المولود الأخير ، وما برم بها وحنق منها الا لأنها كانت تحمل فى سرعة ويسر ، وان كان يعرف ان هذه طبيعة تحمد للمرأة ولا توجب لومها ، وكان يوجد أساس لشكواه لو انها كانت عاقرا ، لا ولودا تنجب له أبناء كل عام .

لكنه لم يكن يستمع لصوت الحكمة والعدل فى هذه الأيام . فقد كان فتى فى بعض أطواره ، وكان أصغر من زوجته بعامين كما هى العادة فى تلك الجهات حيث يستحب أن يكون الرجل أصـغر من زوجته سنا ، وكان فؤاده ينبض فى صدره بالحيـاة الدافقة والعاطفة الفائرة ، ولم يكن يعنيه فى شيء أن يكون أبا لأطفال بل كان يعنيه

اللهو والمرح والمشاهد الطريفة والمسرات التى يستطيع أن يلتمسها فى اية مدينة بعيدة .

والواقع أن تركيبه الجسدى كان يهيئه لهذا اللهو . فقد كان متناسق الجسم ، قوى البنية خفيف الحركات ، رشيق الايماءات . وكان صبوح الوجه بارق العينين بشوش المحيا . وهو يتقن الغناء ويجيد القاء العبارات التى تبدو بسيطة فى ظاهرها ، ولكنها مليئة بالدلالات الخفية التى يحبها أهل المدن . وكان بوسعه أن يضحك الناس بأغانيه ونكاته ، وكان القوم من أفراد الجنسين يحبونه ويستطيبون مجلسه ، وكان اذا سمعهم يضحكون رقص فؤاده طربا لقدرته وبراعته فاذا عاد الى بيته ورأى وجه زوجته الرزين الساكن وقوامها المتين خيل اليه انها وحدها لا تعرف قدره فى الرجال ، اذ كانت لا تتوجه اليه بأى مدح أو ثناء . ومن المقرر انه لم يكن يمزح فى بيته وقلما كان يداعب أطفاله ، بل يؤثر الأجانب بدعاباته ونكاته .

وكانت المراة تعرف فيه هذه الصفات ، فتغضبها هذه المعرفة حينا وتثير ألمها حينا آخر . اذ كانت رغم حبها له لا تظفر منه بهذا المرح الذى يختص به قوما غيرها .

ثم حدث بعد مولد الطفل الرابع فى مطلع فصل الصيف أن نشب بينهما شجار حاد ، بل لعله أسوأ واحد ما شجر بين زوجين .

حدث هذا فى الشهر السادس من العام . فى يوم صفت سماؤه واعتل نسيمه وغردت أطياره وتمايلت خمائله وافنانه وفاح شذاه عطرا يسكر النفوس ويبعث الأحلام العذبة والأخيلة الجميلة فى الرءوس .

فى هذا اليوم اشتدت حرارة الطقس فلم يستطع الرجل أن يذهب للعمل فى الحقل . بل لم يستطع أن ينام لفرط ما كان اليوم ينبض بالحياة والمرح .

وحوالى ظهر هذا اليوم المشرق مر بالقرية رجل يبيع اقمشة صيفية مختلفة الألوان والرسوم ، يحملها على كتفه — وكان ينادى فى طريقه عليها .

ولما جاء البائع الى هذا البيت حيث جلس الرجل والمرأة والعجوز والأطفال الصغار فى ظل شجرة الصفصاف يتناولون غداءهم ونادى :

— « هل أقف يا سيدتى وأريك أقمشتى ؟ » ..

لكن الأم اجابته قائلة :

— لا نقود عندنا ، الا اذا كان عندك فضلة من قماش عادى رخيص

لهذا المولود الجديد . نحن فلاحون فقراء لا نملك شراء اقمشة جديدة الا ما كان ضروريا لستر اجسادنا .

ولم يكن بد من أن تضيف العجوز شيئا من عندها كشأنها أبدا فقالت فى صوتها الراعش :

ـ نعم . ان زوجة ابنى قالت الحقيقة . والأقمشة في هذه الأيام اصبحت ضعيفة تبلى بعد غسلها مرة أو مرتين . وأذكر انى فى شبابى لبست جلبـــــاب جدتى ، وقـــد عاش حتى تزوجت وكان فى حالة صالحة ، ولم اغيره الا عملا بالمظاهر .

وما كاد البائع يسمع هذا الكلام حتى آنس فرجا ودنا من اهل الدار . وكان رجلا شديد اللباقة واسع الحيلة كأهل مهنته . فأجاب الأم والعجوز بكلمات طيبة . واستطرد :

ـ يا أمى . عندى قماش جيد كالأقمشة القديمة التى تتكلمين عنها ، وهو يصلح أيضا لحفيدك . وهـــذه يا (ست) فضلة بقيت من ثوب كبير اشترته منى سيدة غنية فى احدى القرى الكبيرة التى مررت بها . وقد ابتاعتها لولدها الوحيد . وقد اخذت منها ثمنا مناسبا لأنها كانت قطعة كاملة سليمة . ولكن ما دامت هذه الفضلة قد بقيت معى فانى امنحها لك أيتها الزوجة الطيبة اكراما لهذا الطفل الجميل الذى تحملينه فوق صدرك .

فاه الرجل بهذه الجملة فى نعومة وفى نفس واحد . ثم اخرج من بضاعته فضـــــلة جميلة خضراء اللون منقوشة بورود حمراء كبيرة .

وما كادت العجوز تراها حتى هتفت سرورا اذ استطاعت تمييز لونها في يسر وفى غير عناء . كما أعجبت بها الأم . ثم القيت نظرة على الطفل الرضيع فوق صدرها وكان عاريا لا يكاد يستره سوى خرقة بالية حول وسطه . وكان حقا طفلا بضا جميلا ، بل كان أجمل أطفالها الثلاثة ، وهو أقربهم شبها بأبيه ، ولو أنه لبس هذا القماش المنقوش بالورد لبدا أكثر جمالا ..

دارت هذه الخواطر براس الأم ، واحست بقلبها يلين ويستسلم ، وقالت مكرهة :

ـ ما هو ثمنها اذن ؟ .. لكنى مع ذلك لا اقدر على شرائهـــا لأننا لا نكاد نملك ما يكفى لاطعام هؤلاء الأطفال وهذه العجوز ودفع اقساط المالك . لا يمكننا شراء اقمشة طيبة كالتى تشتريها النساء الغنيات لأطفالهن الوحيدين .

بدت على العجوز دلائل الكآبة حينما سمعت هذا الكلام . وتسللت البنت من مكانها ودنت من البائع لالقاء نظرة على القطعة ، وجعلت تحدق فيها بنظرات الكليل عن كثب . واستمر الولد يأكل دون أن يحفل بشيء . أما الرجل فجلس فى مكانه متكاســـلا يغنى قليلا ولا يعنيه شيء من هذا الذى يدور لا لشيء الا لشراء قماش لوليد صغير .

ثم أدنى الرجل قطعة القماش من الطفـــل وقال يستحث المرأة بصوت خافت :

ـ قماش متين ! . بضاعة طيبة ! . لون جميل ! . ان يدى امسكت قماشا كثيرا . لكنى لم أحمل افضل من هذه القطعة . لو كان لى ولد لاحتفظت بها له . لكن زوجتى امرأة مسكينة عاقر . ولا يمكن أن افسد مثل هذه الفضلة باعطائها لها .

ما كادت العجوز تسمع قصة الزوجة العاقر حتى وجدت فيهـــا مادة طيبة للكلام ، فهتفت ؟ .

ـ مسكين . وانت رجل طيب . ولـــكن لم لا تتزوج مرة ثانية وتجرب حظك من جديد ؟ .

لم تسمع الأم هذه الكلمات .. وجلست فى مكانها مترددة مفكرة وزاد قلبها ضعفا واستسلاما .. والقت نظرة ثانية على الطفل فاذا هو قد زاد جمالا حينما طرح البائع قطعة القماش فوق جلده الذهبى ووجنتيه الموردتين . واستسلمت آخر الأمر قائلة :

ـ ما هو أقل ثمن تطلبه اذن ، لأنى لا أقدر على دفع ثمن كبير .

حدد البائع ثمنا . ولم يكن كبيرا كما خافت ، فرقص قلبهـــا فرحا . لكنها هزت رأسها وعرضت عليه نصف هذا الثمن كما كانت تقاليد المساومة فى هذه الجهات . ولكن هذا الثمن كان ضئيلا فلم يسع البائع الا ان يسترد القطعة ويعيدها الى بضاعته واستدار فى مكانه متظاهرا بالانصراف . ثم تذكرت الأم طفلها الجميل وعرضت عليه ثمنا وسطا وظلت المساومة سجالا بين البائع والشارية حتى القى الأول بضاعته ثانية وأخرج منها الفضلة السالفة الذكر بعد أن قبل ثمنا أدنى قليلا مما حدده .. فنهضت الأم لاحضار النقود من الكوة الكائنة بالجدار .

حدث هذا كله والأب جالس في مكانه متكاسلا يغنى تارة ويشرب الماء المغلى الذى اعتاد شربه بعد الأكل تارة أخرى ، دون أن يساهم بشيء فى هذه الصفقة .

لكن البائع كان رجلا بارعا قديرا على انتهاز الفرص . فبسط قطعة من الكتان الأزرق متظاهرا بعدم الاكتراث واختلس نظرة الى الرجل حتى يرى أن كان ملتفتا اليه ، وقال له ضاحكا :

ـ هل اشتريت جلبابا لنفسك هذا الصيف ؟ . اذا لم تكن فعندى جلباب لك . وأحلف انه أرخص مما تشتريه فى أى حانوت فى المدينة .

لكن الرجل هز رأسه وظللت وجهه سحابة قاتمة وقال بمرارة :

ـ ليس عندى نقود فى هذا البيت اشترى بها شيئا . وليس لى الا أن أشتغل دون أن أنال شيئا . وكل ما اربحه يذهب فى القوت .

كان البائع قد طاف كثيرا وتوفرت له خبرة بأحوال الرجال . ورأى بنظرة واحدة أن هذا الرجل يميل الى اللهو والسرور ، وانه مضطر أن يحيا حياة لا يميل اليها ، فقال له متظاهرا بالشفقة والرثاء :

ـ فى وسعى أن أرى انك رجل تعيش عيشة قاسية . لكن اذا اشتريت جلبابا جديدا فستراه كالدواء الشافى يدخل السرور على قلبك ، وليس كالرداء الصيفى يجلب السرور الى نفس الانسان . واذا جلوت هذا الخاتم وصففت شعرك بالزيت ولبست هذا الرداء فلن أجد فى المدن رجلا أجمل منك منظرا .

طرب الرجل حينما سمع هذا الكلام . وضحك عاليا فى شىء من الحياء . ثم تذكر نفسه وقال :

ـ ولم لا اشترى لنفسى رداء جديدا مرة فى حياتى ؟ لا يوجد أمامى الا الأطفال يولدون واحدا بعد الآخر . وهل كتب على أن البس الخرق البالية الى الأبد ؟ .

ومال الى الأمام بسرعة وجعل يتحسس القماش بأصابعه . وكانت العجوز قد سمعت كلامه وتحمست لرأيه . فهتفت :

ـ هذا قماش جميل يا ولدى . واذا كان لابد من رداء فليس أجمل من هذا الرداء الأزرق الذى هو أجمل ما رأيته فى حياتى . واذكر أن اباك اشترى رداء مثله . وهل .

لكن الرجل قال فجأة بخشونة :

ـ كم ثمن الرداء من هذا القماش ؟ . .

وما كاد البائع ينطق بالثمن حتى عادت الأم ومعها النقود ، فهتفت فى جزع :

ـ لا يمكن أن ننفق أكثر من هذا ! .

فلما سمع الرجل صيحتها تصلب قلبه وقال باصرار :

ـ لكنى سآخذ رداء من هذه القطعة وانا أفضلها ولابد أن أنالها

فى الحال . ويوجد عندنا تلك القطع الفضية الثلاث التى اعرف اننا نملكها .

كانت هذه القطع ذات قيمة مالية طيبة وقد جاءت بها الأم حين زواجها هدية من امها . وهى لذلك كانت تقدرها وتعتز بها ولم تشأ يوما ان تفرط فيها . بل انها حين ابتاعت نعش العجوز وقد كان الظن انها توشك أن تموت اقترضت من هنا ومن هناك ولم تنفق شيئا من هذه القطع ، فقد كانت تعدها ثروة مدخرة لأيام الشدائد كالحروب والكوارث التى تنزع منهما ارضهما . وكانت مطمئنة الى انهم يستطيعون اذا نزلت بهم هذه الملمات ان يتقوا شر الجوع حينا من الزمن بفضل هذه القطع الفضية الثلاث . ولذلك لم تتمالك ان هتفت :

ـ لا يمكن ان ننفق هذه الفضة .

لكن الرجل وثب من مكانه بسرعة الصقر ومرق بجانبها فى عنف وذهب الى كوة الجدار وفتش عن الفضة حتى وجدها .. بيد أن الأم لحقت به واستوقفته وتشبثت به . لكنها لم تكن فى مثل خفته ونشاطه فقد دفعها جانبا فسقطت على الأرض وهى تحمل الطفل بين ذراعيها . وركض صائحا :

ـ اقطع اثنتى عشرة قدما من هذا القماش ولا تنس القدم الزائدة كالعادة ! .

اسرع البائع بتلبية هذه الرغبة وتناول النقود فى عجلة رغم انها كانت أقل مما طلب ، لكنه كان متلهفا للابتعاد وبيع القماش فى وقت واحد . ولما جاءت الأم كان البائع قد مضى فى طريقه ووقف الرجل فى ظل الشجرة حاملا الثوب الأزرق الزاهى الجديد بين يديه ، وقد ذهبت نقودها الفضية .

وجلست العجوز خائفة مشفقة ، ولما رات الأم تدنو سارعت بالكلام قائلة فى صوتها المتهدج :

ـ هذا جلباب جميل يا ولدى . وهو ليس غاليا . ولم تشتر رداء صيفيا منذ زمن طويل .

لكن الرجل رمى زوجته بنظرة صارمة وقد احتقن وجهه ، وصاح هادرا وقد جعل منه الغضب رجلا مستاسدا :

ـ هل تصنعينه اذن ، أو اذهب به الى امراة اخرى وادفع لها اجرا واقول لها ان زوجتى رفضت صنعه ؟ .

لكن الأم لم تنبس بكلمة . بل جلست فوق مقعدها الصغير صامتة

شاحبة اللون مرضوضة بتأثير سقطتها ، وكان الطفل يصرخ بين يديها مذعورا خائفا . فلم تهتم به وأجلسته على الأرض وتركته فى صراخة وعقدت شعرها المهدل . وأخذت تلهث قليلا وازدردت ريقها . ثم قالت اخيرا دون أن تنظر الى الرجل :

ـ هاته ! . سأصنعه ! .

فقد خجلت أن تصنع الثوب امراة أخرى وتقف على تفصيلات المشاجرة اكثر مما عرفت سائر النسوة التى كن يرقبن من بيوتهن ما يجرى بعد أن سمعن صيحات الزوجين .

لكن الأم أسرت فى نفسها هذا الموقف لزوجها . ومع أنها أخذت تصنع الثوب ببراعة لأنها كانت بارعة فى ذلك ولأن القماش كان من نوع طيب ، فانها لم تجد أقل لذة فى هذا العمل ، ولزمت الصمت والصلابة ازاء الرجل طول الفترة التى استغرقها صنعه .

ونقم الرجل منها هذا المسلك وضاق بها ، فكف عن الغناء ، وكان اذا تناول طعامه يسرع الى الخان حيث يجلس مع الرجال ويشرب الشاى ويقامر الى وقت متأخر فى الليل ، وذلك لكى يستيقظ متأخرا فى اليوم التالى .

وكان اذا فعل ذلك فى الأيام العادية انحت عليه باللوم حتى يلعن ايثارا للسلم . اما الآن فقد كانت تتركه ينام وتذهب وحدها الى الحقل وقد امعنت فى صمتها وجفائها مهما بدا لها منه وان كانت تحس فى نفسها وحشة والما كلما قست عليه وجفته .

ولما تم صنع الرداء اخيرا بعد أن استغرق وقتا طويلا لانهماكها فى زراعة الأرز لم تقل له رأيها فيه حينما لبسه . اما هو فقد جلا الخاتم بمسحوق الأحجار وصفف شعره بزيت صبه من زجاجة المطبخ ، وخرج الى الشارع يسير متهاديا .

وقد جعل الناس يهتفون معجبين بزيه الجديد ممتدحين حسن هندامه ولكنه لم يطرب ولم يطب نفسا كما كان يجب .

اما هى فلم تقل له كلمة واحدة . ولما وقف متسكعا عند الباب قليلا استأنفت كنس الأرض حول البيت دون ان ترفع راسها أو تسأله هل تناسب الرداء مع قوامه وهيكله ، كما كان شأنها حتى حين كانت تصنع له حذاء جديدا ولم يتمالك آخر الأمر ان قال فى حياء :

ـ يبدو لى انك صنعت هذا الرداء افضل من اى رداء غيره ، وهو يناسبنى كأنه رداء أحد أهل المدن .

لكنها مع ذلك لم تتطلع اليه بل وضعت المكنسة القصيرة في أحد الأركان وجاءت بقدر من الصوف المنقوش وجعلت تغزله خيوطا بعد ان استنفدت ما كان عندها من الخيط في صنع الثوب الأزرق واخيرا قالت بمرارة :

ـ بل يجب أن يبدو كرداء الامبراطور بعد أن كلفني هذا الثمن .

على انها مع ذلك لم تنظر اليه . بل لم تنظر اليه حتى حين سار في الشارع . ولم تختلس نظرة واحدة خلفه بعد أن أدار لها ظهره وذهب .

فقد أحست في نفسها بمرارة اليمة منه ، وان كانت تعترف بأن الرداء كان متسقا فوق جسده .

الفصل الخامس

جعلت الأم طوال هذا اليوم تترقب عودة الرجل الى البيت . وكان يوما يستطيع الانسان فيه أن يترك في الحقول رءوس النبت الصغير الغض تتمايل في الهواء اليسير تحت أشعة الشمس الدافئة. ولم يكن بالزراع من حاجة للذهاب الى الحقول في يوم كهذا .

وهكذا جلست الأم في ظل شجرة الصفصاف تغزل خيط الصوف، وجاءت العجوز فجلست قربها وقد لذ لها أن تجد من يستمع لها . وفيما كانت تسترسل في الحديث فكت ثوبها وبسطت ذراعيها النحيلتين المغضنتين تحت أشعة الشمس وجعلت تستشعر حرارتها الطيبة في عظامها . وجعل الطفلان يتراكضان عاريين في أشعة الشمس كذلك . لكن الأم لزمت الصمت وانحرفت في صمتها . وجعلت تغزل خيوط الصوف بيد مدربة قديرة . وكلما غزلت منه قدرا لفته حول عود من الخيزران أعدته لهذا الفرض . وكانت الخيوط قوية متينة .

ولما توسطت الشمس كبد السماء تركت الغزل ونهضت قائلة بلهجة جافة :

ـ سيعود الى البيت بعد قليل وقد اشتد جوعه رغم ثوبه الازرق .

وقالت العجوز وهي تضحك ضحكتها الضعيفة :

ـ نعم . ان الذي فوق بطن الرجل يختلف عن الذي في داخله .

قامت الأم اذن وملأت كيلا من الأرز من سلة تخزنه فيها ، وسوت

سطح الارز بيدها الثانية حتى لا يسقط منه شيء ، وافرغت الأرز فى سلة اخرى مصنوعة من الخيزران الدقيق المشقوق ، ثم قصدت الى حافة الترعة وصوبت نظرها فى الشارع وهى فى طريقها . لكنها لم تلمح اثرا لثوب ازرق جديد .

انحدرت الأم محاذرة فوق شاطيء الترعة واخذت تغسل الأرز . فدست السلة فى المـــاء وجعلت تفرك حبات الأرز بيدها السمراء الفوية ، وكررت هــذه العملية مرات حتى بدا الأرز ناصع البياض كاللؤلؤ .

وفى طريقها الى الدار انحنت وانتزعت راسا من الكرنب النامى ، والقت بعض الحشائش الى الجاموسة المقيدة الى احد الأشجار ، ثم عادت الى البيت .

ثم جاء الولد من الشـــارع يقــود اخته من يدها ، فسألته الأم بهـــدوء :

ــ هل رايت اباك فى الشارع ، أو فى الخان ، أو عند بيت من البيوت ؟ .

فأجاب الولد :

ــ انه جلس قليلا فى الصباح يشرب الشاى فى الخـــان . وأنا رايت ثوبه جديدا وازرق ولامعا . ولما رآه عمي وعرف ثمنه قال انه كلف أبى كثيرا .

فقالت الأم وقد اكتسب صوتها فجأة رنة الصلابة :

ــ نعم ! وايم الحق قد كلفه كثيرا ! .

وقالت الابنة تردد كلام اخيها :

ــ تماما . كان ثوبه ازرق . وانا ايضا رايت انه كان ازرق .

لكن الأم لم تزد شيئا عما قالت . فقد كان الطفل الوليد نائمـــا فى سلة مضفورة واستيقظ واخـــذ يبكى . فانحنت الأم وفتحت ردائها وحملته الى صدرها وجعلت ترضعه بينما ذهبت لطهى الطعام . لكنها قالت أولا للعجوز :

ــ اقعدى مكانك يا أمى وراقبى الشـــــارع . واذا رايت لون ردائه الازرق نبهينى حتى أضع له الأكل فوق الخوان .

فقالت العجوز راضية مسرورة :

ــ حسنا يا ابنتى .

لكن الأرز تم نضجه ولم يأت الرجل بعد . ثم نضجت الـكرنبة وصبت الأم فوقها بعض الصلصة كما يحب الرجل . لـكنه مع ذلك

لم يرجع الى البيت .

انتظر الجميع قليلا ودب الجوع فى احشاء العجوز ونفذت رائحة الطعام الى خياشيمها فكاد يغمى عليهـــا ، وهتفت غاضبة لفرط جوعها .

ـ لا تنتظرى هذا الابن أكثر من ذلك . ان اللعاب يسيل من فمى وبطنى خاوية كالطبل ، وهو لم يأت بعد .

وهكذا قدمت الأم العجوز صفحتها وأطعمت الطفلين كذلك وقدمت لهم جميعا جانبا من الكرنبة لكنها استبقت قلبها للرجل . ثم أكلت بدورها ، وان لم تصب من الطعـــام سوى قدر يسير اذ أحنبت بازورار هـذا اليوم . هكذا بقى للرجـل نصيب وافر من الأرز ، وشطر كبير من الكرنبة . ثم أرضعت الطفل فنهل حتى ارتوى ونام فى أشعة الشمس الحامية قوى البنية ممتلىء الجسم موفور الصحة مورد الوجه . وتمـــدد الولد والابنة فى ظل شجرة الصفصاف واستسلما للنوم وأغفت العجوز فوق مقعدها . وخيم فوق المزرعة الصغيرة سكون القيلولة وهداة الظهيرة . بل حتى الدواب جمدت فى مرابطها مدلاة الرءوس خدرا .

لكن الأم وحدها لم تنم . فقد تناولت مغزلهـــا وجلست فى ظل شجرة الصفصاف واستأنفت الغـــزل ولف الخيط . لـكنها لم تستطع أن تواصل الغزل بعد قليل . فقد كانت تفعل هذا فى ضحوة النهار فى يسر وسهولة لـكنها لم تستطع الآن أن تلزم السكون . فقد خيل اليها ان قلقا غريبا يستقر فى نفسها . وهى لم تعهد من الرجل قط ابطاء فى العودة لتناول طعامه . وغمغمت قائلة لابد انه ذهب الى البلدة للمقامرة أو لأى شىء آخر .

لم تكن قد فكرت فى هذا الشأن من قبل . لكنها كلما فكرت فيه الآن خيل اليها انها تزيد اقتناعا . ثم خرج العم من داره ذاهبــا الى الحقل . وبعد قليل أفاقت زوجته من نومها حيث تمددت قرب احدى الأشجار وسألتها :

ـ هل ذهب زوجك الى مكان ما ؟ .

فأجابت الأم ببساطة :

ـ نعم . ذهب الى البلدة لبعض شأنه .

وقال العم وهو يفتش بين فئوسه ومجارفه :

ـ نعم . وأنا رأيته مسرورا بثوبه الأزرق الجـديد ذاهبا الى البلدة .

سري عن الأم قليلا بعد هذا الحديث . وانشأت تغزل أوفر نشاطا واكثر انبعاثا . فقد رآه العم يمضي الى البلدة . ولا ريب انه ذهب يلتمس بعض اللهو والمرح انتقاما لنفسه منها . وهذا ما يمكن أن يفعله بعد ان لبس الرداء الجديد الأزرق وجلا الخاتم النحـــاسي وصفف شعره بالزيت . وقد حاولت ان تغضب قليلا ازاء هــــذا الخاطر . لكن غضبها كان قد خمد . ولم يكن بوسعها أن تحييه من جديد ، فقد شابها قلق غريب رغم كلمات العم .

واخذ النهار ينصرم متثاقلا مشحونا بالحـــرارة . واستيقظت العجوز وهي تهتف شاكية من جفاف حلقها ، فنهضت الأم وجاءتها بقليل من الشاي واستيقظ الطفلان وأخذا يتمرغان في التراب قليلا ثم نهض أخيرا وانشآ يلعبان . واستيقظ الطفل وتمدد ، طروبا في سلته سعيدا بنومه .

لكن الأم لم تذق طعم الراحة والسكون . ولو استطاعت لعالجت النوم . ولو كان يوما غير هذا لأخذتها سنة من النوم حتى وهي تغزل فقد كانت سليمة البنية موفورة الصحة وكان النوم يلم بها عميقا هنيئا دون أن تلتمسه . لكنها اليوم كانت تحس لذعا في قلبها جعلها دائمة اليقظة والاصغاء لـكل صوت .

ثم نهضت أخيرا متبرمة من طول الانتظـار متضجرة من اقفـار الشارع الذي بدا مقفرا في نظرها مذ كانت لا ترى فيه من تترقبه . فحملت الطفل ووضعته خلف ظهرها وتناولت الفـأس قاصدة الى الحقل ، وقالت العجوز :

ـ سأذهب لتنقية القمح عند التل الجنوبي .

وفيما هي تمضي في طريقها رات انه أيسر لها الا تبقى في الدار وان الساعات تمر سراعا اذا تشاغلت بعمل شاق مضن .

وهكذا أمضت ساعات العصر تشتغل في حقل القمح ، وحجبت وجهها بمنديل ازرق من القطن دفعا لحرارة الشمس . وجعلت ترفع وتهوى بفأسها بين سنابل القمح الخضراء اليانعة . ولم يكن هــذا الحقل سوى منطقة صغيرة محدودة . اما الأرض فقد زرعت ارزا لأن الأرز طعام أقوم واجلب للربح .

وكانت اشعة الشمس تنصب فوق سطح التل المكشوف وتغمرها . وسرعان ما ابتل رداؤها بالعرق . لكنها لم تشأ ان تستريح الا بعد أن بكى الطفل . فافترشت الأرض وأرضعته وجففت وجهها الملتهب وسرحت طرفها في أرجاء الحقول المشرقة ، فلم تر شيئا .

ولما شبع الطفل وضعته ثانية على الارض ونهضت واستأنفت عملها وظلت تكدح حتى دب الألم الى جسدها وكلت قواها . واخيرا استقرت الشمس عند حافة الأفق . وخيم الظل فوق الوادى فجأة . واذ ذاك استقامت فى مكانها ومسحت وجهها بردائها وغمغمت بصوت عال :

ـ لابد انه الآن ينتظر فى البيت . ويجب أن أعود لاعداد طعامه .

وحملت الطفل وعادت به الى البيت .

لكن الرجل لم يعد .

لما وصلت الى الدار لم تجده . ورأت العجوز تحدق فى قلق شطر الحقول . وجلس الطفلان فوق عتبة الباب ينتظران فى أعياء واستقبلاها بالصياح حينما وقع نظرهما عليها . فقالت فى حيرة :

ـ ابوكم . ألم يأت بعد ؟ .

فهتف الولد :

ـ كلا . وانا جوعان .

ورددت الابنة كلام أخيها فى صوتها المتقطع ، وجلست مطبقة الجفنين فى اشعة الشمس الغاربة . ونهضت العجوز وسارت متمايلة ونادت العم الى بيته قائلة :

ـ هل رأيت ولدى فى أى مكان ؟

لكن الأم هتفت فجأة متبرمة :

ـ كفى يا امى .

فقالت العجوز وهى تحدق فى اضطراب :

ـ حسنا . لكنه لم يعد .

لكن الأم لم تقل شيئا . بل قدمت للطفلين ارزا باردا . ودفأت بعض الماء وصبته فوق الأرز وقدمته للعجوز ، والقت للكلب ببعض الفضلات . وتركتهم جميعا يأكلون وخرجت الى الشارع حاملة طفلها فوق ذراعها وقصدت الى الخان .

لم تجد فى الخان سوى أشخاص قلائل . وصادفت فى الطريق رجلا أو اثنين عائدين الى القرية المجاورة فقد انتهى عمل النهار وأذنت الساعة بالاياب الى البيوت . وقد خطر لها انه قد يكون جالسا الى خوان قريب من الشارع حتى يرى ويسمع ما يجرى ، أو جالسا الى خوان مع احد الأشخاص لأنه لم يكن يتأخر فى العودة ما استطاع ، أو ربما كان مشتركا فى بعض اللعب الدائر .

ولكن لما وصلت الى الخان وأدارت النظر لم تلمح أثرا لرداء

أزرق ولم تسمع صوت لعب دائر . فدخلت الخان ونظرت فيه ، بيد أنها لم تجده في الداخل . وانما وجدت صاحب الخان واقفا يستريح بعد انتهاء العشاء مستندا الى الحائط قرب الفرن . وكان وجهه أسود اللون بالدخان والشحم المتراكم اياما ، فقد رأى من العبث في مثل هذه المهنة ان يغسل وجهه ، اذ يعود سيرته الأولى من السواد بعد قليل .

وقالت له الأم :

ـ هل رأيت أبا أولادي ؟ .

لكن الرجل جعل يقضم أظفاره السوداء وقال متكاسلا :

ـ انه جلس هنا فترة في الصباح بردائه الأزرق الجديد ، ثم ذهب الى جهة البلدة .

ولما آنس في هذا الشأن مادة للحديث والتعليق هتف فجأة :

ـ هل حدث شيء ؟ .

فأجابت الأم مسرعة :

ـ لا شيء . لا شيء . انه انشغل في البلدة وتأخر . ولا شك . ولربما بات الليلة في الخارج وعاد الى البيت غدا .

فقال صاحب الخان وقد استفزه الفضول فجأة :

ـ وما الذي شغله ؟ .

فأجابته قائلة :

ـ وكيف اعرف ، ولست الا امرأة ؟ .

عادت الأم الى البيت . وفي طريقها اليه كانت تجيب سائليها بطرف اللسان وتفكر في شأن آخر . ولما وصلت الى الدار قصدت الى كوة الحائط وفتشت فيها . فاذا هي خاوية .

كانت تعلم أن فيها مبلغا لا بأس به من العملة النحاسية وقدرا يسيرا من النقود الفضية أيضا . فقد باع قش الأرز بثمن طيب منذ نحو يومين اذ هو بارع في مثل هذه الصفقات ، وعاد الى البيت بقسط كبير من هذه النقود . وهي قد أخذتها منه ووضعتها في الكوة وكان يجب أن تبقى حيث كانت . لكن لم يكن لها الآن أثر .

اذ ذاك ايقنت وهي في ذهول انه ذهب حقا . فجلست فوق الأرض الطينية وامسكت الطفل بين ساعديها وجعلت تهتز الى الخلف والى الأمام في صمت وتؤدة .

اذن فقد ذهب حقا ! .

وبقيت وحدها مع العجوز والأطفال الثلاثة .

وفجاة اخذ الطفـل يتململ ويتبرم ، فأخرجت له ثديها دون أن تفكر فيما تفعل . وجاء الطفلان الى الداخل . وكانت البنت تبكى بحرارة حافت وتفرك عينيها . وجاءت العجـــوز ايضا متكئة على عصاها وهى لا تفتأ تبدىء وتعيد :

ـ ترى أين ولدى ؟ . هل قال ابنى الى اين ذهب يا ابنتى ؟ . عجيب اين ذهب ابنى ؟ .

فما كادت الأم تسمع هذا الـكلام حتى نهضت وقالت :

ـ سيعود غداً ولا شك يا امى . فارقدى الآن ونامى. سيعود غداً.

اصغت اليها العجوز ورددت قولها وقد سرى عنها :

ـ نعم . سيعود غداً ولا ريب .

ثم ذهبت الى فراشها تتحسس الطريق فى الغرفة المظلمة .

اما الأم فقد ذهبت بالطفلين الى الفناء لكى تغسلهما كما كانت عادتها فى ليالى الصيف قبل النوم . فصبت اناء من الماء فوق كل منهما . وجعلت تدلك جسديهما الأسمرين الأملسين براحة يدها . لكنها لم تلتفت الى ما قال كلاهما ، ولم تعبأ بأنين البنت وشكواها من عينيها .

ولما ذهبوا للنوم فى الفراش دهش الولد لغياب ابيه ، وهتف :

ـ اذن أين سينام ابى ؟ .

وفى هذه اللحظة فقط افاقت الأم من ذهولها ، واجابت :

ـ سينام فى البلدة بغير شك . ويرجع غداً او بعد يومين .

ثم أردفت وقد انتابها الغضب فجأة :

ـ سيعود ولا ريب بعد أن تنفذ منه تلك النقود .

واستطردت فى لهجة مريرة :

ـ وبعد أن يتسخ رداؤه الجديد ولا يبقى بد من غسله .

وداخلها السرور الى حد ما اذ رات انها استطاعت أن تغضب منه وتحنق عليه ، وتشبثت بهذا الغضب وهذا الحنق ، فقـــد بدا لها انه أقرب اليها كذلك . واستمسكت بهذا الاحساس المبتسر وهى تؤوى الدواب وتوصد الباب . . وغمغمت :

ـ لا ريب انى سأكون سابحةفىالنومحينمايعودفىالليلويطرقالباب.

لـكن سرعان ما فارقها الغضب وانتابها الخوف فى جنح الظـلام وفى هدأة الليل الحار وفى سكون الغرفة الموصدة .

ترى ماذا تفعل اذا لم يعد ، وهى امراة وحيدة شابة ؟ .

بدا لهـا الفراش فى خوائه رحبا ممتدا . ولم تربها من حاجة

الى التضييق على نفسـهـا . فقد كان يمكنها أن تبسط ذراعيها وساقيها كما شاءت .

وفجاة هبط عليها حنين حار وتلهف شديد الى رجلها . فقد تمددت بجانبه طوال هذه الأعوام الستة الأخيرة . ومهما غضبت منه فى النهار فقد كانت تنسى قربه فى الليـل عبثه وصبيانياته .

وتذكرت فى هذه اللحظة جماله ووسامته ، فلم يكن خشن الفم كريه الأنفاس كأغلب الرجال ، بل كان شابا لطيف الصورة ، ناصع بياض الأسنان .

وهكذا تمددت فى مكانها يهفو بهـا الحنين اليه ، وتلاشى من صدرها كل اثر للغضب .

ولما طلع النهار نهضت متعبة مسهدة ، واستطاعت ان تعود الى الصلابة . ولما زايلت الفراش ولم يأت بعد واخرجت الدواب واطعمت الأطفال والعجوز ، تزايدت صلابتها وغمغمت بصوت مسموع :

ــ سيعود بعد أن تنفد منه النقود . عند ذلك فقط سيعود الى البيت .

ولما حدق الولد فى الفراش الخاوى قال فى دهشة وعجب :

ــ اين والدى ؟ .

فأجابته فجأة فى صوت مرتفع :

ــ قلت انه غائب يوما او اثنين . وان سالك احد فى الشارع فقل انه غائب يوما أو اثنين .

ثم ذهب الطفلان للعب والعبث هنا وهناك ، لكنها فى هذا اليوم لم تذهب الى الحقول . بل جلست فوق مقعدها الصغير مستقبلة شارع القرية الوحيد حتى ترى من يأتى من بعيد . وفيما كانت تجيب على لغو العجوز قالت لنفسـهـا ان الرداء الأزرق ذو لون واضـح تسهل رؤيته عن بعد ، وجعلت تغزل الصوف وهى تختلس النظر بين حين وآخر الى الشارع . وراحت تحصى فى خيالها النقود التى أخذها وتقدر كم تكفيه من الأيام ، فبدا لها انها لن تدوم معه سوى ستة أو سبعة أيام ، الا اذا قامر بأصابعه الرشيقة وربح قدرا آخر من النقود ، فيستطيع أن يطيل الغياب . وخيل اليها أحيانا انها لن تصطبر على سماع لغو العجوز وثرثرتها ، بيد انها وطنت نفسها على الاحتمال طمعا فى رؤية الرجل عائدا الى البيت .

ولما عاد الطفلان وقت الظهر جائعين ورأى الولد صفحة الكرنب المهيأة لأبيه وطلب شطرا منها ، لم تجبه الأم الى ما طلب . ولـمـا

الح فى الطلب لطمته بشدة ، وقالت بصوت مرتفع :
ـ لا . انها لأبيك . فهو حين يرجع فى الليل سيكون جائعا ولا شك انه سيأكلها كلها .
وتعاقبت ساعات بعد الظهر الطويلة ولم يأت بعد . وغربت الشمس كدابها ، متثاقلة تفيض بالأشعة الذهبية ، وتغمر الوادى فى ضوئها حينا من الزمن ، ثم جن الليل وانتشر الظلام ، واذ ذاك لم تستطع أن ترفض . فقدمت الصحفة للطفلين قائلة :
ـ كلوا كفايتكم . لئلا تفسد لو بقيت يوما آخر . ومن يدرى .
وقدمت الى العجوز قلب الكرنبة المغموس فى الصلصلة قائلة :
ـ كليها . وسأطهو له غيرها اذا عاد غدا .
فقالت العجوز :
ـ وهل سيعود غدا اذن ؟ .
فاجابت الأم فى كآبة :
ـ نعم : ربما عاد غدا .
وفى هذه الليلة تمددت فوق الفراش محزونة النفس شديدة الخوف والجزع . وكاشفت نفسها فى غير مواربة بارتيابها فى احتمال عودته حقا .
غير أنها مع ذلك جعلت تعلل النفس بنفاد النقود منه بعد انصرام الأيام السبعة .

***

ثم تتابعت هذه الأيام يوما بعد يوم . وكان يبدو لها لفرط الانتظار كلما أقبل يوم جديد منها انه سيعود حقا .
ولم يكن من دابها أن تنطلق فى القرية تقتل الوقت باللغو مع نسائها . لكن نساء القرية جئن اليها واحدة بعد الأخرى ورحن يسألنها :
ـ نحن جميعا بيت واحد فى هذه القرية وتجمع بيننا وبينه صلة نسب .
وأخيرا دفعتها الكبرياء الى اختلاق قصة ، فقالت لهن بجراة :
ـ ان له صديقا فى مدينة بعيدة . وقد أخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح أجرا طيبا فلا نحتاج الى اجهاد انفسنا بالعمل فى الحقول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا . أما اذا طابق هواه فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .
فاهت الأم بهذه الكلمات فى هدوء وكأنها تقرر حقيقة ، حتى لقد

ذهلت العجوز وهتفت :

ـ ولم لم يخبرني بهذه القصة الطيبة ، وانا امه ؟ .

فانتحلت الأم قصة أخرى واجابت :

ـ طلب مني يا امي الا اخبرك بهـــا لأنه يعرف لسانك المحلول ويخاف أن يعرف اهل القرية اكثر مما يجب ، ولأنه يريد أن يعرفوا شيئا اذا لم يستطب هذا العمل .

فقالت العجوز وهي تنحنى فوق عصاها وتحدق في زوجة ابنها وقد آلمها هذا القول :

ـ هل قال هذا حقا ؟ صحيح يابنتي انني كثيرة الكلام ، لـكن لساني غير محلول .

وجعلت الأم تكرر هذه القصة لـكل من يسألها . وكانت كلمـا اعادتها اضافت اليها ما يكسبها رنة الحقيقة التي لا يداخلها كذب ولا زور .

وكان بالقرية أرملة تعيش في بيت اخيها ، ولم يكن لهـــا عمل تؤديه سوى قضـــــاء اليوم في نقش أزهار فوق حذاء تصنعه لنفسها . وكانت تبدىء وتعيد في كل خاطر غريب يمر ببالها . وذات يوم طاف براسها خاطر فأسرعت ركضا الى الأم وقالت لها :

ـ لكن لم يصل الى هذه القرية منذ زمن اية رسالة ، ولم أسمع عن رسالة وردت من زوجك ! .

وذهبت الأرملة سرا الى رجل في القـرية يتولى تحرير وقراءة الرسائل القليلة المتبادلة فيها ، فسألته :

ـ جاءت رسالة باسم (لي) الأول بن (لي) الثالث في الجيل الأخير؟.

فلما اجاب الرجل بالنفي هتفت الأرملة الثرثارة .

ـ لـكن زوجته قالت ان رسالة وردت منه منذ ايام قليلة ! .

واذ ذاك ثار الحسد في نفس الرجل خيفة ان تكون الأم ذهبت بالرسالة الى كاتب آخر من اهل القرى المجاورة ، فنفى هذه الحقيقة وشدد في النفي ، وقال لها :

ـ أعرف تماما انه لم ترد رسالة ما ، ولم يأت احد لقراءة أو تحرير أية رسالة أو لشراء طابع لوضعه فوق رسالة . وانا وحدي اقتني مثل هذه الطوابع . ولم يجيء الى هنا رسول منذ عشرين يوما أو أكثر .

فلما سمعت الأرملة هذا الكلام توسمت في الأمر سرا غريبا وذهبت تهمس في كل مكان ان زوجة (لي) الأول كذبت وانه لم

تردها رسالة ما . وانزوجها قد هجرها بلا ريب وابتعد عنها . الم تنشب بين الزوجين معركة حامية بشأن الرداء الجديد وقد سمعهما أهل القرية يتبادلان السباب واللعنات ثم ألم يقل الطفل أنه قد ألقاها على الأرض قبل ضربها ؟ .

على ان هذا الكلام حينما تسرب الى الأم قررت بلهجة التوكيد انها قالت الحقيقة وانها صنعت له الرداء الجديد خصيصا لمناسبة ذهابه الى المدينة البعيدة وان ما شجر بينهما من خلاف كان لشأن آخر . اما الرسالة فهى لم ترد وانما تلقت الأم هذه الأنباء على لسان بائع متنقل جاء من جهة الساحل .

وهكذا جعلت الأم تكذب وتمعن فى الكذب والاختلاق وتحبك اطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . وصدقت العجوز . هذا الكلام وآمنت به وأنشأت تتحدث عما سيصيب ولدها من الغنى واحتفظت الأم بالهدوء والسكينة ولم تبك قط كغيرها من النساء حين يهجرهن أزواجهن ويجلبن عليهن العار والشماتة . واخيرا بدت القصة صحيحة فى أعين الجميع واضطرت الأرملة الثرثارة الى السكوت ، غير انها كانت تقول كلما خلت الى نفسها :

ــ سنرى على مر الأيام اذا جاءتها رسالة أو نقود ، أو اذا عاد اليها حقا .

وهكذا سكنت القصة وانصرف أهل القرية الى غيرها من الشئون ونسوا الأم وقصتها .

ثم استقبلت الأم حياتها فى ثبات ومثابرة . ومضت مدة طويلة بعد انقضاء الأيام السبعة ولم يأت الرجل بعد . وتفتح الأرز فى ابان ذلك وحل موسم الحصاد ولم يأت الرجل أيضا . فأنشأت الأم تحصده وحدها الا يوما أو يومين حين أقبل العم لمعاونتها بعد أن حصد أرزه وجمعه فى حزم كبيرة . وقد سرت الأم بهذه المعاونة وان توجست من الرجل خيفة كذلك . فقد كان رجلا صادقا قليل الكلام ، وكان يتحرى البساطة فى أسئلته ويصعب التمويه عليه . لكنه جعل يعمل صامتا ولم يفاتحها فى شىء ، ولم يقل الا ما قضت الضرورة بقوله حتى حل موعد انصرافه ، فقال لها :

ــ اذا لم يعد وقت اقتسام الحبوب مع المالك فانى سأساعدك . لأن الوكيل الجديد رجل ماكر ذكى ومن طراز يصعب على المراة أن تعامله وحدها .

فشكرته الأم بهدوء وقد سرتها هذه المعاونة ، فانها لم تعرف هذا

الوكيل الا لماما ، اذ كان غريبا عن هذه الجهات فى السنوات الاخيرة وكان رجلا مخاتلا من أهل المدن .

وهكذا توالت الأيام وكانت الأم تنهض كل يوم قبيل الفجر فتترك الأطفال والعجوز نياما وتعد لهم طعام الافطـــار حتى يتناولوه حين يستيقظون . ثم تحمل الطفل الرضيع فوق ساعدها وتأخذ المنجل القصير المقوس بيدها الثانية لكى تستخدمه فى الحصد وتمضى الى الحقول .

وقد نما الطفل واصبح يستطيع الجلوس وحده فكانت تقعده فوق الأرض وتتركه يلعب ويعبث ما شـاء له اللعب والعبث . فيحفن التراب بيديه ويضعه فى فمه ويأكل منه ثم يبصقه منكرا مبغضا . ولا يلبث أن ينسى ويأكل منه ثانية حتى يتلطخ بالوحل والطين . لكن الأم لم تكن تستطيع ان تفعل نحوه شيئا مهما بدر منه . فقد كان يجب أن تؤدى عمل اثنين ، وقد اضطلعت بهذا الواجب ، واذا بكى الطفل فليبك ما شاء حتى تكل من فرط الجهد فتجلس للراحة وتقدم ثديها لفمه الملطخ بالوحل ينهل منه ويرتوى ، وكان يبلغ منها التعب والاعياء حدا لا تحفل معه بالبقع التى يتركها فوق ثديها .

وكانت الأم تحصد سنابل الأرز حفنة حفنة وهى تنحنى كل مرة ، ثم تجمعها فى حزم صغيرة . وكانت اذا حام حولهـــا المتسقطون لالتقاط ما يتساقط من الحبوب شأن المتسولين فى موسم الحصاد انبرت لهم متجهمة الوجه لفرط ما تعـانى من مرارة العمل الشاق المضنى وقد ارهقها العرق والغبار . وتروح تستمطر اللعنات عليهم وتصيح فيهم قائلة :

ــ هل تلتقطون الحب من امراة وحيدة لا معين لها ؟ انا اتعس منكم ايها المتسولون ! ايها اللصوص الملعونون ! .

وكانت تستنزل اللعنات بمرارة عليهم وعلى امهاتهم وعلى ابنائهم فيخلون لها الحقول اخيرا خوفا من عنف لعناتها .

ثم حملت حزم الارز حزمة حزمة الى الجرن لدرسه . فقيدت الجاموسة الى الجرن الحجرى وجعلت تسوقها فى ابان ايام الخريف الحارة الساكنة وتسوغ نفسها معها ايضا . ولما تم درس الحب جمعت القش الفارغ وكومته واخذت تذرى الحب بمساعدة الهواء .

وقد اضطرت أخيرا الى حمل الغلام على العمل ايضا . فاذا تكاسل أو حن الى اللعب كانت تلطمه لفرط ما تعانى من الإعيــاء والاجهاد واليأس .

لكنها لم تستطع ان تجمع القش فى الحزم الكبيرة المعهودة . فقد كان هذا من عمل الرجل الذى الف أن يتقنه ويبرع فيه اذ كان احب اليه من اعمال اخرى . ولذلك التمست من العم أن يعلمها كيف تقوم بهذا العمل مرة حتى يتسنى لها أن تقـــوم به مع الغلام فى الأعوام القادمة اذا غاب الرجل اكثر من عام . فجاء العم وعلمها . فنهضت للعمل وجعلت تبسط الحشائش وتناولها له وهو معتل سطح الحزم الكبيرة ، فيكسو هذه الحزم بالحشائش ويسويها بالطين .

وهكذا انتهى حصاد الأرز .

غير أنها هزلت من فرط الجهد وذهب لحمها ، واسمرت بشرتها فيما عدا وجنتيها وشفتيها التى احتفظت بحمرتها . ولم يبق لهـــا ســـوى اللبن فى ثديبهـــــــــا غزيرا موفـــورا . ومن النساء من يستحيل غذاؤها سمنة ولا يبقى منه لغـــذاء الطفل . لـــكن هـــذه المراة خلقت للأطفال . وكانت أمومتها تسلب جسدها بلا رحمة كل غذاء تصيبه اذا كان لها طفل تربيه .

ثم جاء يوم اقتسام الحب واخراج نصيب مالك الأرض منه . وكان مالك هذه القرية والحقول المحيطة بها لا يأتى بنفسه لأخـــذ نصيبه من المحصول . فقد كان يعيش عيشة الدعة والترف فى احدى المدن البعيدة بعد ان ورث هذه الأرض عن آبائه . وكان ينيب عنه وكيلا لأخذ هذا النصيب . وفى هذا العام جاء وكيل جديد اذ تركه وكيله القديم فى العام الماضى بعد أن جمع من المال فى العشرين عاما الماضية ما جعله يعتزل العمل .

فلما جاء هذا الوكيل الجـــديد جعل يطوف بيوت الفلاحين بيتا بيتا . وانتظرت الأم حضوره عند باب بيتها بعد ان كومت الحب فى الجرن .

كان الوكيل من أهل المدن من قمة راسه الى اخمص قدميه . وكان رجلا طويل القامة ناعم البشرة يرتدى جلبابا حريريا وحذاء من جلد وله يد كبيرة ملساء كان يرفعها الى شفته الحليقة ، واذا تحرك انبعثت منه رائحة عطرية .

وحين جاء الى الأم تراجعت قليلا فسألها :

ـ أين الفلاح ؟ .

فلزمت الأم الصمت وتركت العجوز تجيبه قائلة :

ـ ان ابنى يشتغل الآن فى المدينة . ونحن وحدنا فى الأرض .

واوفدت الأم غلامها الى العم وانتظرت صامتة . ثم تقدمت نحوه

وقدمت له الشاى دون أن تخاطبه بغير عبارات الترحيب المألوفة ، غير أنها أحست بنظراته الحادة التى جعل يصوبها الى وجهها والى قدميها العاريتين .

ووقفت الأم جانبا بينما جاء العم يكيل الحب ويخرج منه نصيب المالك ، وكانت مطمئنة الى نزاهة العم وأمانته فلم تربها من حاجة الى الاقتراب منه والتحقق من الـكيل . لكن شق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها . لـكنهم كانوا ينزلون عنه صاغرين . فحذت حذوهم . فقد كانت تعلم أن من لا يفعل يتعرض للأذى والعنت . وكان الوكيل نفسه ينال اجرا له دجاجة سمينة أو كيلا من الأرز أو عددا من البيض أو بعض النقود الذهبية .

وفوق هذا كله كان على القرية فى مجموعها بعد تمام الكيل أن تولم وليمة للوكيل يساهم فيها كل بيت بنصيب .

ورغم هذا العام الذى بقيت فيه الأم وحدها فقد ذبحت دجاجة لـكى تساهم بها فى الوليمة وانضجتها طويلا فوق نار رقيقة حتى استحال لحمها مريئا طريا . وكانت رائحة الدجاجة بعد انضاجها أكثر مما يستطيع الطفلان احتماله . فجعلا يحومان حول المطبخ ولم يتمالك الغلام ان هتف :

ــ يا ليتها كانت لنا .

لكن نفس الأم كانت تفيض مرارة لفرط أعيائها ، وقالت :

ــ ومن يستطيع أن يحصل على لحم كهذا الا الرجل الغنى ؟ .

غير أنها ذهبت الى المـائدة بعد انتهاء الوليمة التى اختلطت فيها الوان الطعام وتناولت عظمة بقيت من دجاجتها تخلفت بها قطعة من الجلد ومزقه من اللحم ، فأعطتها لكى يمتصها وقالت له :

ــ خذ هذه . وعندما تكبر تستطيع أن تجلس بجانب الرجال على المائدة وتنال نصيبك كاملا .

فقال الغلام بسذاجة :

ــ وهل يرضى أبى بجلوسى الى جوارهم على المائدة ؟ .

فأجابت الأم بمرارة :

ــ ثق انه سوف يرضى . وان لم يكن موجودا فستحل محله .

***

ثم انصرمت شهور العام وأوشك الخريف على نهايته . ولم يكد الطفلان يذكران أنه كان بالفراش غيرهما وغير امهما . بل ان العجوز

ما كانت تتكلم عن ابنهـــا الا لماما . فقد سرت برودة الطقس الى عظامها وأحيت آلامها . وكان لها ما يشغلها فى التمـــاس الأماكن الدافئة البعيدة عن لفح الهـواء تحت اشعة الشمس .. وجعلت تشكو وتواصل الشكوى لأن الرياح كانت تتغير ولأن الشمس بدت لها وقد تناقصت حرارتها هذا العام عما كانت فى سابقه .

واخذت الغلام يشتغل الآن كل يوم ويؤدى نصيبه من العمل . واذا لم يكن له ما يعمله قاد الجاموسة الى الروابى وتركهـا ترعى الـكلأ القصير وهو ممتط ظهرها طوال النهار . أو يثبت عنهـــا ليجلس فوق أحد القبور حيث يتصيد الجداجد ويصنع لهـا أقفاصا صغيرة من سيقان الحشائش . فاذا عاد الى البيت علق على الأقفاص بالباب فتأخذ الجـــداجد فى الصفير ويطرب الطفل والبنت من صفيرها .

ولـكن سرعان ما حال لون الحشائش فوق التلال لقدوم الشتاء وحان الوقت لقطعها اذ يتخذ منهـا وقود الشتاء .. فذهب الغلام مع امه التى كانت تقضى النهـــار فى قطع الحشائش الجـافة بمنجلها القصير ، فيضفرها الغلام ويصنع منها حزما صغيرة . وكان الناظر يرى على سفح الجبال أينما ولى بصره بقعا زرقاء اللون هى اناس مثل الأم وابنها راحوا يقطعون الحشائش ويجعلون منها حزما لوقود الشتاء . فاذا اقبل المساء وغربت الشمس وهب هواء الليل قارسا من قمم الروابى هبط الناس منحـدرين الى الممرات الضيقة يحمل كل منهم حزمتين كبيرتين مدلاتين من قضيب فوق الـكتف . وعلى هذا النحو كانت تفعل الأم ، كمـــا كان الغلام يحمل بدوره حزمتين صغيرتين .

واذا عاد الى البيت مضت الأم أول ما تمضى الى الطفل ترضعه ثدييها ، فينهل منهما ظامئا متلهفا اذ كان يطعم فى النهار دقيق الأرز معجونا .

وكانت العجوز فى مطلع هذه الأيام الباردة تدلف الى فراشها التماسا للدفء حالما تغرب الشمس . وكانت البنت تســعى الى الباب وهى تتحسس طريقها وتغمض عينيها قليلا حتى فى هذا الضوء الشاحب الآفل ، وتجلس فى مدخل البيت لـكى تستقبل أخاها طروبة اذ كانت تفتقده نهارا وهو يعمل فى الحقول .

ولى الخريف اذن . وحان وقت حرث الأرض لبذر القمح . ولقنت الأم غلامها كيف ينثر الحب بمساعدة الريح وكيف يتقن تجميعها

فى بقعة دون اخرى . ثم أقبل الشتاء وقد بسقت سنابل القمح قليلا وتقلصت الحقول وانكمشت التربة بقدوم الشتاء والبرد . وفى هذا الوقت أخرجت الأم ملابس الشتاء من تحت الفـــراش حيث كانت تحفظها ، فبسطتها فى الشمس حينا واخذت تعدها للبس . لكن عمل الحقول الشاق فى ابان الصيف والخريف قد شقق يديها حتى كان القماش القطنى الخشن يعلق بشقوقهما كما تصلبت أصابعهــا ويبست .

غير انها لم تكل عن العمل . بل جلست فى مدخل البيت فى الشمس وجعلت تصلح أولا ثياب العجوز التى اشتدت عليها وطأة البرد . فأمرتها أن تبقى فى الفراش يوما أو يومين وتنزع الكفن الأحمر الذى كانت تلبسه . ودست الحشو القطنى الذى كانت نزعته فى الصيف بين سطح الجلباب والبطانة . بينما جلست العجوز راضية قريرة العين وجعلت تثرثر مسرورة قائلة :

ــ هل ترين يا ابنتى انى سأفنى هذا الـكفن ؟ انى أعتقد هذا فى الصيف أما فى الشتاء فلا ، لأن طعامى لا يدفئنى كما كان فى المـاضى .

فأجابتها الأم وهى غائبة الذهن :

ــ ستعيشين يا أمى . ولم أر معمرة مثلك تعيش بينمــا ذهب غيرها .

فطربت العجوز من هذا الكلام وقالت وهى تضحك وتسعل :

ــ نعم . انا مخلوقة معمرة .

ولزمت مكانها راضية النفس فى انتظار اعداد ردائها .

وتأهبت الأم لاصلاح ملابس الأطفال . فأصلحت للطفل الرضيع ملابس البنت ، ولهذه ملابس اخيها ، اذ كانوا لا ينالون فى العام اكثر من ثلاثة أثواب .

وجعلت تتساءل بعد ذلك ماذا تلبس الغلام حتى يتقى شر البرد . فوجدت امامها سترة الرجل المرقعة والسراويل التى لبسها ثلاثة اعوام كاملة حتى تمزقت وأصلحتها أكثر من مرة . ولكنها لم تقو على أن تجعل منها كسوة للغلام . واخذت تديرها بين يديها فى ألم ، وغمغمت اخيرا :

ــ وماذا يكون اذا جاء ؟ لن أفعل هذا الآن .

لـكن الغلام لم يظفر بكسوة الشتاء وكان يرتعد من البرد فى الصباح وفى المساء . فحـــزمت أمرها اخيرا وجعلت منها ملابس

للظلام وأخذت تهون على نفسها قائلة :

ـ اذا عاد يمكننا أن نبيع بعض الأرز ونشترى ملابس جديدة . واذا جاء فى أول العام الجـــديد كان من حظه ان يرتدى ملابس جديدة .

وهكذا مضى فصل الشتاء وبدا للأم ان الأب راجع حتما فى مستهل العام الجديد ، ففى هذه المناسبة يعود كل انسان الى بيته اذا كان على قيد الحياة ولم يكن من الهائمين المتسولين . وكانت اذا سئلت فى هذا الشأن تقول لسائليها :

ـ سيعود لمناسبة وليمة السنة الجديدة .

وجعلت العجوز تردد هذا القول عشرات المرات . وكان الأطفال بدورهم يرتقبون هذا الوعد ويتطلعون .

وكانت الارملة الثرثارة تبتسم ابتسامتها المليئة بالخبث والشماتة وتقول للأم :

ـ عجيب انه لم ترد رسالة من زوجك . وانا أعلم انه لم ترد رسالة .

فكانت الأم تجيب فى أتم مظاهر الهدوء :

ـ لكنى عرفت أخباره مرارا على لسان رجل مسافر . ولم نألف عادة التراسل وانفاق المال فى هذا السبيل . وان الكتاب ينسون تدوين أمور كثيرة . وان ما يكتبونه ويقرونه يذيع بين الناس وتلوكه كافة الألسن . ولذلك فانا مسرورة لأنه لا يبعث الى برسائل .

بهذه الكلمات أسكتت الأم الأرملة الحاسدة . وبلغ من تــكرار توكيدها لعودته فى مطلع العام الجديد أن بدا لها انه لابد عائد حقا .

وحان الوقت وانهمك أهل القرية جميعا فى اعداد معدات وليمة العيد ولم يكن بد من أن تنهمك الأم كذلك فى صنع احذية جديدة للأطفال وغسل ملابسهم القديمة وصنع قلنسوة للطفل الرضيع . بل لم يكن بد من أن تنهمك فى الاستعداد لاستقبال الرجل أيضا .

فملأت سلتين كبيرتين أرزا كانت ادخرته وحملتهمـــا الى البلدة وباعتهما بثمن ان كان أقل مما ألف الرجل أن يبيع به ، فقد كان فى ذاته طيبا لأنها امرأة تقوم وحدها بمساومة الرجال . وابتاعت بجانب من النقود شمعتين حمراوين وبخـــورا لحرقه امام الاله وكتابات حمراء تجلب الحظ لــكى تلصقها فوق المحراث وســـائر أدوات الزراعة التى كانت تستخدمها . كمـــا ابتاعت قليلا من الشحم والسكر لصنع فطائر العيد . وقصدت الى احد الحوانيت

فابتاعت بما تبقى معها عشرين قدما من قماش قطني ازرق ، والى حانوت ثان واشترت خمسة أرطال من حشو مقوى مصنوع من القطن المخلوط بالصوف .

اجل .. كانت موقنة تمام اليقين من عودته حتى لقد أعملت المقص في القماش وأخذت تفصله بعناية وصبر وصنعت له أزرارا من فضلات القماش ضمتها بعضها الى بعض وخاطتها كثيرا . ولما تم لهـا ذلك تركت الملابس في انتظار مجيء الرجل . وخيل للجميع ان هذه الملابس جعلت قدومه امرا محققا .

لكن بزغ فجر العيد ولم يأت الرجل بعد . وجلس الجميع طوال النهار في ملابسهم الجديدة . فأما الطفلان فلهما مظهر نظيف وقد أشفقا أن تتلوث ثيابهما . وأما العجوز فكانت حذرة يقظة حتى لا تريق الطعام في حجرها . واعتصمت الأم بالجلد والثبات وجعلت تبتسم طوال النهار وتقول لهم :

ــ لم يزل الوقت نهارا بعد ، وقد يأتي في اى وقت .

وجاء الى الدار خلان زوجها لكي يحيوه تحية العيد اذا كان قد عاد الى بيته . فقدمت لهم الشاى وبعض الفطائر الصغيرة ، وقالت لهم حينما استفسروها عن الرجل :

ــ قد يأتي اليوم حقا . لكن يحتمل الا يأذن له سيده بالعودة هذه المسافة الطويلة ، وقد سمعت أن سيده يحبـه كثيرا ويعتمد عليـه .

ولما زارتها النساء في اليوم التالى كررت لهن هذا الكلام وكانت تبتسم وتبدو مطمئنة النفس مستريحة الخاطر ، وقالت لهن :

ــ ما دام لم يأت ، فلابد أن يرد منه نبأ قريبا .

وحولت دفة الحديث الى نواح أخرى .

وهكذا كانت الأيام تمضي والأم تتـكلم في يسر وفي غير تكلف فتصدقها العجوز ويصدقها الطفلان ويؤمنون بما تقول .

لكنها كانت اذا أدلهم الليل تبكي في سكون ومرارة .

كانت تبكي لأنه ذهب وهجرها لأنها أصبحت تستهدف للعـار والفضيحة . ولأنها امرأة وحيدة فقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهي تعول أربع انفس يعتمدون عليها .

وذات يوم وهي تفكر في بكائها خطر لهـا انها تستطيع أن توفر على نفسها كل هذا العار . اجل .. فحين فكرت في النقود التى أنفقتها لشراء ملابس جديدة دون أن يعود ، وفي الفطائر التى صنعتها وفي

البخور الذى أحرقته فى صلاتها وابتهالها لأجل عودته ، وحين فكرت فى نظرات الأرملة الخبيثة وفى الهمســـــات الخفية والنظرات المستريبة التى كانت تبدو لها من الجميع حتى من العم الطيب ـ حين فكرت فى هذا كله ورات ان الأيام تمر دون أن يعود هذا الرجل ، بدا لها اذ ذاك ان توفر على نفسها هذا العار وأن تضع حدا لهذه الفضيحة .

فكفكفت الأم دموعهـــا واسرت فى نفسها أمرا .. فجمعت كل ما ادخرته من الأرز وما كان يجب أن تدخره من قش الأرز وذهبت الى البلدة حيث باعت هذا وذاك . ولما جمعت النقود الفضية فى يدها طلبت من البائع ابدالها بورق نقدى . ثم قصدت الى كاتب الرسائل وهو رجل غريب لا تعرفه فى هذه البلدة . وكان يجلس فى كشك صغير قرب معبـد (كونفوشيوس) . فقعـدت فوق المقعد الصغير المجاور له وقالت :

ـ اريد أن اكتب رسالة بلسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه أن يعود الى بيته ، فاكتب ما أقول لك . وهو مريض طريح الفراش ، ولذلك فانى أكتب بلسانه .

فاخرج الرجل عويناته وكف عن التطلع الى جمهور المـارة وتناول رقعة من ورق جديد وغمس فرشاته فى المداد ونظر اليها قائلا :

ـ تكلمى اذن . لكن اخبرينى أولا عن اسم زوجة أخيك وعن بيتها وعن اسمك ايضا . فقالت له الأم :

ـ ان أخى سألنى ان أكتب بلسانه رسالة لزوجته . وهو يقيم فى مدينة جئت الآن منها ، وليس لاسمى اهمية .

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط راسها . ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت اسم قريتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

ـ اسمع ما يريد أخى ان يقول لزوجته : « انى اشتغل شـــغلا متواصلا ولى مركز طيب والأكل متوفر لى وسيدى رجل كريم ، وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له وحمل رسائله الى أصحابه . وانى اتناول طعامى عنده وانال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع فضية حولتها ورقا ماليـــا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فانفقيها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد » .

وبعد ان املت الأم هذا الـكلام . جلست وانتظرت ، فأخذ الكاتب الـكهل يحرر الرسالة ببطء واستغرق فيها وقتا طويلا ، ثم قال اخيرا : أهذا كل شيء ؟ .

فأجابت الأم :

ـ لا . قل هذا ايضا : « ولم اتمكن من الحضور فى عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبني كثيرا ولم يتيسر له أن يستغني عني . لـكني ساحضر فى السنة القـــادمة اذا تمكنت ، واذا لم اتمكن فسأرسل اليك كل ما ادخره من أجرتى مرة فى السنة » .

واخذ الكاتب الكهل يدون مرة اخرى . ثم قالت له بعد أن فكرت قليلا :

ـ قل هذا ايضا .. « اخبرى أمى العجوز انى سأحضر لها عند رجوعى قمــاشا أحمر لصنع كفنهــا الثالث ، وسيكون من أجــود الاصناف » .

وهكذا تمت الرسالة وذيلها الكاتب الكهل بالتوقيع وختمها بالشمع وجعل العنوان فوقها وبلل بريقه طابعا ألصقه عليها ، وقرر لها انه سيصدرها فى مكان يعرفه . فنقدته الأم اجره وعادت الى بيتها . وكانت هذه الفــكرة هى ما اسرته الأم فى نفســها حينما كفكفت دموعها .

الفصل السادس

بعد مضى سبعة أيام أو نحوها جاء الى القرية رجل يحمل رسائل فى حقيبة فوق كتفه . وكانت هذه ظاهرة جيدة فى العصر الحديث لم يكن مثلها فى سالف الأيام ، وبدا لأهل القرية ان مجىء الرسائل على هذا النحو هو لون من السحر .

ثم تناول الرجل رسالة من حقيبته وامسكها فى يده ونظر الى الأم طويلا وسألها :

ـ هل انت زوجة الملقب باسم (لى) ؟ .

فادركت الأم ان رسالتها جاءت واجابته قائلة :

ـ أنا هى .

فقال لها الرجل :

ـ اذن فهذه الرسالة لك وهى من زوجك . لأن اسمه مكتوب فوقها .

واعطاها الرسالة .
عند ذلك تكلفت الأم الهتاف والفرح وصرخت تقول للعجوز :
ـ جاءت رسالة من ابنك .
والتفتت الى ولديها قائلة :
ـ هو ذا خطاب من ابيكما .
ولم يكد الجميع يصبرون حتى تريهم لهم الرسالة . وذهبت الأم تفتسل وارتدت ثوبا نظيفا ومشطت شعرها بعناية . وفيما كانت تفعل سمعت العجوز تخاطب زوجة العم بأعلا صوتها قائلة :
ـ جاءت رسالة من ولدى !.
وما كادت تقول هذا الكلام حتى جعلت تسعل وتضحك حتى انزعجت زوجة العم واسرعت اليها واخذت تدلك ظهرها وتقول بصوتها الرقيق :
ـ رفقا يا أمى والا قتلت نفسك .
ـ ان هذه العجوز الفانية تكاد تختنق لأن رسالة جاءت ! .
فابتسمت الأم وقالت :
ـ هذا صحيح . وهذه هى الرسالة .
وابرزت الرسالة لكى تراها زوجة العم .
ولما خرجت الى الشارع تقاطر الجميع فى اثرها . فان الغلام تبعها وجعل يقول لكل من يسأله أن رسالة وردت من أبيه ، وسارت البنت خلفه متعلقة بجلبابه . واذ كان الوقت شتاء والعمل قليلا فقد تبعها جمع من الرجال والنساء المتبلطين وزحفوا جميعا الى بيت الكاتب الذى دهش من حضور هذا العدد العديد على هذا النحو الفجائى . على أنه حينما فهم ما يراد منه تناول الرسالة وتأملها قليلا وأدارها على وجهيها وجعل يتمعن فيها ، ثم قال أخيرا برزانة :
ـ هذه الرسالة من زوجك .
فقالت الأم :
ـ انا خمنت هذا .
وصاحت الأرملة التى كانت بين الجميع قائلة :
ـ وممن تكون غير زوجها يا رجل يا طيب ؟ .
فضج الجميع بالضحك من هذه الكلمات .
ثم اخذ الكاتب يتلو الرسالة فى تؤدة ، فخيم السكون على الجميع وأنصت الولدان وانصت الجمهور . وكان الكاتب يتوقف بعد كل كلمة يتلوها لكى يفسر معناها لأن الكلام المكتوب غير الكلام

المنطوق من ناحية ، ولأن الكاتب أراد من ناحية أخرى ان يبين مبلغ علمه ومدى اطلاعه .

وكانت الأم تنصت وكأنها لم تسمع كلمة من هذه الرسالة من قبل ، وجعلت تومىء براسها بعد كل كلمة . ولما وصل الرجل الى الكلام المنبىء عن ارسال النقود رفع صوته عاليا واضح النبرات تنويها بهذا الحادث الخطير . ومن الناس هن فغر فاه وهتف :

ــ لكن هل كان فى الرسالة نقود ؟ .

فأومأت الأم براسها ايجابا وبسطت كفها وكشفت عن الورقة المالية التى استبدلت بها نقودها الفضية ، وقدمتها للكاتب لكى يفحصها ، فقال فى لهجة خاشعة رزينة :

ــ أرى حقا رقم (عشرة) .. ولابد أنها تساوى عشر قطع فضية .

عند ذلك طلب الجميع أن ينظروا الى الورقة المالية وأصروا على الطلب . فرأوا صورة قائد بدين ذى شاربين مرسومة على الورق . ولم تتمالك الأرملة الثرثارة ان هتفت منزعجة حينما رأتها ! .

ــ كم تغير زوجك يا أختى .

فقد حسبت أنها صورة الرجل نفسه ، وشاركها الجميع هذا الاعتقاد الا فيما عدا الزوجة نفسها ، وقد قالت لهم :

ــ ليست هذه صورة زوجى . فأنا أعرف هذا .

ولاذ الكاتب بخياله وقال :

ــ هى من غير شك صورة سيده .

وجعل الجميع يتفرسون فيها ويعجبون من مظاهر الغنى والامتلاء البادية على صاحبها .

ثم لزموا الصمت وقد ساورهم العجب والحسد ، واخذوا يراقبون الأم وهى تطوى الورقةالمالية الثمينة وتطبق عليها يدها فى حرص وحذر .

ولما أتم الكاتب تلاوة الرسالة طواها ووضعها فى غلافها وقال برزانة :

ــ انت زوجة موفقة كل التوفيق . فليس كل النساء يوفق ازواجهن فى الذهاب الى المدن الكبيرة وايجاد مثل هذا العمل الطيب ، وليس كل من يوفق الى هذا منهم يرسل الى زوجته اجره على هذا النحو . فان فى المدن أماكن كثيرة لانفاق المال كما سمعت .

فما كاد الناس يسمعون هذا الكلام حتى تراجعوا أمامها فى تجلة

واحترام . فسارت الى بيتها فخورة مزهوة ، وتبعها الطفلان يشاطرانها هذا المجد . ولما بلغت الدار قصت على العجوز كل شيء . فضحكت العجوز سرورا وطربت على الأخص مما قاله ولدها عن الكفن الثالث وهتفت فى صوتها الراعش المتهدج وهى تضرب على ركبتيها سرورا :

ــ اما ولدى هذا ! احلف انه لا يوجد ولد مثله ! ولا شك ان قماش المدن من أجود أنواع الاقمشة .

ثم بدت عليها دلائل الرزانة وقالت مشفقة :

ــ نعم يا ابنتى . اذا كان هذا القماش من النوع الطيب الذى اشار اليه . فانى اشك فى أنى سأبليه قبل موتى . ويحتمل أن هذا الثوب سيكون كفنى الأخير .

وبدت على وجه الغلام دلائل الرزانة حين رأى جدته كذلك ، وهتف مخلصا :

ــ لا يا جدتى . لن يكون كفنك الأخير . لأنك ابليت ثوبين ومحال أن يكون هذا الثوب أمتن من الاثنين معا .

فلما سمعت العجوز هذا الكلام عاد لها انتعاشها وضحكت مسرورة من ذكاء الغلام وقالت للأم :

ــ جميل منك يا ابنتى انك تذكرت كل ما قاله . وكانك كنت نفسك تقرئين كلامه .

فقالت الأم بهدوء :

ــ نعم . انى تذكرت كل كلامه .

ودخلت وحدها الى الدار ووقفت خلف الباب وجعلت تبكى فى صمت وسكون ، ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية التى لها قيمة الفضة سوى هباء او كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة .

كانت الرسالة والورقة المالية شيئا تافها زهيدا فى نظرها . ولم يكن لهما أدنى قيمة ولا اقل مغزى .

غير ان هذا التدبير كان له قيمته ولم يعد أحد من اهل القرية يتهكم منها أو يعيرها بأنها امراة هجرها زوجها . بل لقد كان من شأن هذه المناسبة ان تشعرها بالصلابة ازاء أهل القرية . فما كادوا يعرفون انها تملك ورقة مالية وانها ستتلقى مثلها فى العام القادم حتى سعى بعضهم سرا للاقتراض منها ، وكان فى طليعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتبطلين الذين ارسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض . فشق على المراة ان ترفض لأن اهل القرية جميعا كانوا

من ذوى القربى وكانوا جميعا يلقبون باسم (لى) . لكنها جعلت تنتحل الأعذار وقررت أنها أنفقت الورقة المالية فى وفاء دين عليها .
وكانت الأرملة كلما رأتها سائرة فى الطريق تقول بلهجة ذات مغزى ان القماش أصبح غالي الثمن فى هذه الأيام وحتى الابر عز ثمنها وان ثمن الخيوط الملونة التى تصنع منها الأزهار فوق الأحذية قد تضاعف .
وكانت اذا وقفت ببابها هتف الجميع قائلين لها :
ـ من حسن حظك انك لا تفكرين مرات فى كل درهم تنفقينه ، فان زوجك يربح الفضة ويرسلها اليك .
وكان بعض الرجال يقول لبعض :
ـ انى أشك فيما اذا كان من الخير وجود مثل هذه المراة الغنية فى قريتنا فتجذب اللصوص اليها . نعم . ان اللصوص يحومون حيث يكون الغنى ، كما يحوم الذباب حول العسل .
وبدا للأم أخيرا ان هذه الورقة المالية ستكون مصدر قلقها الدائم ونغصها المستمر ، لا بسبب ما كان الناس يلوكونه بشأنه فحسب ، ومنهم من كان يجيء اليها لكى ينظر الورقة عن كثب ، بل لأن الأم فوق هذا لم تألف حيازة نقود من الورق . وقد بدأت تمقتها اذ خافت أن يطيح الهواء بها أو تعمل الفيران اسنانها فيها أو يمسكها الأولاد وهم يلعبون ويمزقونها ظنا بأنها لا شيء . وقد اضطرت كل ليلة أن تتحقق من وجودها فى سلة الأرز حيث اخفتها ، اذ خافت أن هى وضعتها فى الجدار الطينى ان تلصق به وتفسد .
ولما ثقلت على نفسها وطأة هذه الأفكار اسرعت الى العم يوما حينما رأته يهم بالذهاب الى البلدة وهمست فى اذنه :
ـ اعمل معروفا وابدل هذه الورقة بفضة صلبة لكى اشعر بها فى يدى . فان هذه الورقة لا تبدو شيئا كلما امسكت بها .
وهكذا اخذ العم الورقة المالية . واذ كان بطبعه رجلا عفا امينا فقد ابدلها بفضة طيبة صحيحة ، ولما عاد الى الأم جعل يرن القطع بعضها ببعض لكى يبين لها جودتها وسلامتها . فأعربت له الأم عن امتنانها وقالت له ـ ولو انها فى الحق قالت مكرهة الى حد ما ـ لولا انها لم ترد أن تبدو فى مظهر الشح والجمود :
ـ خذ قطعة منها يا عمى جزاء تعبك وجزاء مساعدتك لى فى حصاد الأرز ، فانى أعلم انك محتاج اليها . وان زوجتك حبلى .
ورغم ان الرجل حدق فى قطعة النقود واستنشق بلهفة دون أن

يفطن لنفسه وجعل يغمض ويفتح عينيه متلهفا ؟ رغم هذا كله فانه لم يأخذ القطعة ، وقال بسرعة قبل أن يغالبه تلهفه ، فقد كان حقا رجلا طيبا عفا :

ــ لا يا زوجة العم . انت امراة وحيدة وأنا رجل قادر على العمل .

فقالت الأم :

ــ لا بأس . لك أن تقترض اذا احتجب .

وسارعت باخفاء قطعة النقود . فقد كانت تعلم ان الانسان مهما كان موفور الطيبة لا يقوى على اغراء المال وانما يضعف دونه .

وفى تلك الليلة نهضت الأم بعد أن نام الأولاد والعجوز فأضاءت شمعة وحفرت حفرة بفأسها فى تربة الأرض الصلبة ثم أخفت فيها قطع النقود العشر بعد أن لفتها بخرقة صونا لها من رطوبة الأرض . وقد ادارت الجاموسة راسها وحدقت فيها بعينيها الواسعتين المتبلدتين . واستيقظ الدجاج المحبوس تحت الفراش وجعل ينظر اليها بهذه العين ثم بتلك وهو ينق نقيقا خافتا وقد ادهشه هذا الحادث الغريب فى الليل . لكن الأم ردمت الحفرة وداست فوقها مرات حتى تسويها بسطح الأرض ثم عادت الى الفراش وانطرحت فوقه فى الظلام .

ومن عجب أنها وقد تمددت فى مكانها بين اليقظة والحلم نسيت أو كادت تنسى ان هذا الذى دسته تحت الأرض هو فضتها ، الفضة التى جنتها من بيع المحصول الذى حصدته بيديها وكانت تنحنى وقد بلغ الاعياء منها مبلغه كلما جمعت حبوبه حفنة حفنة . أجل . نسيت الأم هذا كله . وخيل أو كاد يخيل اليها أن الرجل قد ارسله اليها حقا وانه شيء أوفر واقوم مما كانت تملك ، وغمغمت من قلبها : « هذه الفضة هي مكان الفضة التى اخذها وانفقها فى شراء الرداء الأزرق . بل هى افضل . فهى اكثر » . وصفحت عنه واغتفرت له ما صنع . ثم استغرقت فى النوم .

وكانت اذا سألها سائل أن تريه الورقة المالية تجيبه بهدوء :

ــ انى ابدلتها بفضة عادية وانفقتها .

ولما سمعت الأرملة الثرثارة هذا الكلام هتفت وقد تدلى فكها :

ــ لكن هل انفقتها كلها ؟ .

فأجابت الأم فى يسر وسهولة وهى تبتسم :

ــ نعم انفقتها فى شراء ما كنت أحتاج اليه من الأوانى والأقمشة .

ولم لا انفقها وسأنال اكثر منها ؟ .

ودخلت الدار وجاءت بالملابس الجديدة التى كانت صنعتها للرجل وقالت : هذا مثال من الاقمشة التى اشتريتها .

فجعلت النساء الواقفات يحدقن فى القماش ويجسسنه بأصابعهن ويبدين اعجابهن بجودته ومتانته . وقالت الأرملة برغمها :

ـ احلف انك امراة طيبة لانك تنفقين بعض المال فى شراء ملابس له ولا تنفقينه كله على نفسك وعلى أولادك .

فقالت الأم على الفور :

ـ لكني وزوجي على تمام الوفاق . وقد انفقت بعض النقود على نفسي . فاني أعطيت جانبا لصائغ وطلبت منه ان يصنع لى قرطا واساور لأن زوجي كثيرا ما كان يقول انه يجب ان تكون لى مثل هذه الحلى اذا توفر لنا بعض المال الزائد .

وقد انصتت العجوز الى هذا الكلام كله ، ثم هتفت اخيرا :

ـ احلف ان ابنى هو كما وصفته زوجته . وهو سيشترى لى كفني الثالث وسيكون من أجود الاقمشة التى تباع فى المدن . وهو ابن طيب يا جيرانى . وأنا اتمنى لكل منكم ولدا مثله ، ولا سيما لك يا زوجة العم ، فانى ارى بطنك منتفخة كالبطيخة الناضجة .

فلما سمعت النساء هذا الكلام ضحكن وتفرقن واحدة بعد الاخرى اذا اقبل المساء . لكن الأم أخذت تتوجع فى نفسها بعد انصرافهن من جسامة هذه القصة التى قالتها . واخذت تؤنب نفسها وتقول فى ضميرها : « ما الذى جعلنى اقول هذا الكلام الجسيم . ولا اقنع بما قلته حتى الآن ؟ اين أجد النقود لشراء هذه الحلى ؟ . ولكن يجب أن افعل هذا على اى وجه حتى لا افضح نفسي » .

ولم تتمالك ان تنهدت حينما فكرت فى ضخامة العبء الذى حملته نفسها .

الفصل السابع

كانت هذه المراة منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة واحساسات عميقة ولكنها ساكنة صامتة . ولم تكن مثل بعض بنات جنسها ، تسارع بتوزيع نظراتها على هذا الرجل أو ذاك وتطنب فى امتداح اى رجل تراه وتعجب به . كلا . بل كانت امراة عميقة

الفؤاد ، موفورة الحياء . ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم بل كانت تطـــوى الضلوع على حنينها واشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع امام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين الصامت الذى كان يجيش فى نفسها ، وعرفت حتى حين كانت تؤنب هذا الرجل أحيانا وتغضب منه انها لا تستطيع الحيـاة بدون وجـوده معها .

على ان الرجل وحده لم يكن يكفي . بل كان ينبغى ان تحمل منه وأن تستشعر الطفل يتكون في أحشائها وتدب فيه الحياة . وبهذا تتم الزوجية . وفى الوقت الذى يتحرك فيه الطفل وينمو كانت تغمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها . اجل . وحتى حين كانت تسخط على أطفالها اذ يبكون ويشتكون ويتشبثون بعناد الطفولة الغريزى ــ حتى حين يحدث هذا كانت اذا طالعتها علائم حمل جديد ساورها احساس رضـــــاء جسدى مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية .

وكذلك كان حبها للطفل امرا مقررا لا ريب فيه . بل كذلك كان شأنها فى الأيام الخالية حين كانت فتاة عذراء في دار أبيها فى قرية بين الروابى لا تزيد عن هذه القرية الا قليلا . فقد كانت هذه الدار حاشدة بالأطفال وكانت كبراهم وكانت بمثابة الأم لهم . لكنها ما كانت قط تستشعر لهم غير المحبة حتى وهى منهوكة الجسم تعبا من تأثير العمل المتصل المضنى وهم يتراكضون حولهـــا ويضايقونها بلهوهم وعبثهم ولعبهم . فقد كانت ترى فى طفـولتهم وضآلتهم ما يرقق قلبها ، ويلين نفسها . وطالما كانت تحمل صغارهم سواء من بيت ابنها او من بيوت جيرانها فتضمهم الى صدرها وتدللهم ما شاء لها احساسها ، اذا كان قرب الطفل الى نفسها يثير فى صدرها سرورا حارا ولذة عنيفة ، وان لم تكن تدرى مصدر هذا السرور ومبعث هذه اللذة .

وكذلك كان كل ما هو صـــغير غض محببا الى نفسها قريبـــا الى وجدانها .

كانت فى الربيع تحب الأفراخ وصغار البط وهى تنحـــدر من اغشيتها . وكانت اذا هجرت دجاجة عشها لسبب ما وتركت صغارها

فى ابان التفريخ عمدت هى الى البيض فجعلته فى كيس وضمته الى جسدها الدافىء ، وتظل تروح وتغدو به فى رفق ولين حتى يتم التفريخ ويخرج الصغار الى نور الحياة .

ولما خرج اطفال بيتها الصغار عن دور الطفولة واشرفت هى على سن الزواج وقع لها حادث نبهها واثار كامن عاطفتها . فقد كان بين اطفال جيرانها طفل صغير لا يكاد يقوى على السير ، وكان بضا مستدير الوجه تحمله اخته فى ذلك الصيف عارى الجسد مشدودا فوق ظهرها بقطعة من القماش . فكانت تعمد الى هذا القماش فتفكه وتحمل الطفل عن ظهر اخته التى تتخلى عنه مسرورة بخلاصها منه وتذهب للعب والمرح مع اترابها .

وتكرر هذا الحادث كل يوم . وجعلت الأم ، وهى فتاة فى ذلك العهد ، تترقب رؤية هذا الطفل البض المستدير الوجه كالبدر حتى أصبح مصدر سرورها وصار أثيرا لديهـــا ومحببا عندها ، وكانت تمسكه وتشمم راحتى يديه البضتين وتستطيب وجنتيه المستديرتين وشفتيه الصغيرتين الورديتين . وكانت تحمله معها فى غدوها ورواحها واذا أنكرت امها ذلك منها وعجبت من تشبثها بهذا الطفل ولديهـــا العديد من اخوتها الأطفال كانت تجيبها ضاحكة : « انا لا أمل الأطفال ولا اشبع منهم ! » .

وسرعان ما اثار هذا الطفل فى نفسها حنينا لم تكن تشعر به من قبل دون أن تفطن الى ذلك . فقد كانت تريد أن يكون لها ابناء شأن النساء جميعا ، وكانت ترى من حقها أن تظفر بهؤلاء الابناء يوما بعد زواجها . لـكن هذا الطفل الهادىء الموفور الصحة اثار فى نفسها اكثر من مجرد الشوق الى الأبناء . وقد تطور ما كان أول الامر عبثا بالطفل تطورا أعمق واستحال الى عاطفة عميقة غامضة وحنينا لشىء لا تدرك كنهه أو تحديده .

وجعلت كلما اصبح الطفل بين يديها والكل منشغلون عنها بالعمل فى الحقول او فى المطبخ واخته منصرفة عنه الى لعبهـــا ، جعلت تنتحل الأعذار للانفراد بهذا الطفل وتضمه الى صـــدرها . وكانت تناجيه بالألفاظ الرقيقة وتدلله بين ســـاعديها وتستشعر جسده الصغير البض الى جسدها . وكانت تمضغ له بعض الأرز وتدسه فى فمه والطفل دهش من أمرها ، فتضحك وان لم تكن تدرى سبب هذا الضحك ، فهى لم تكن تحس مرحا ولا جذلا ، وانما كان ينتابها حنين جائش لا تدرى كيف تسكنه .

وذات يوم قبيل زواجها كانت وحدها مع هذا الطفل واقبل الظهر دون أن تأتي اخته لحمله الى امه كي تطعمه ، واخذ الطفل يتقلب متبرما متضجرا ولم يشأ أن يلزم السكون . فلما رأت جوعه على هذا النحو ذهبت به الى غرفتها يحفزها احساس غامض عنيف لم تفهمه ولكنها شعرت به يغلي في دمها ، فأغلقت الباب وكشفت عن صدرها بيدين مرتعشتين وأسلمت الطفل ثديها فجعل يرضع ويمصه بشدة. وفي ذلك الحين احست وهي تحلق في وجه الطفل بتفاعل شديد في دمها لم تكن تعهده من قبل وانحدرت الدموع في عينيها وجرت على شفتيها غمغمة متقطعة غامضة ليست كالكلمات وامسكت بالطفل تضمه الى صدرها دون أن تهتدي الى تفسير لهذا الاحساس الذي ألم بها . هذا الاحساس الذي كان لونا من الحنين الحاد واللهفة البالغة ، والذي كان اسمى واعظم من الطفل نفسه ، بل كان اسمى واعظم من شخصها .

ثم انتهت هذه اللحظة . فقد كان ثديها جافا وبكى الطفل مخيبا ، فضمت ردائها ثانية وساورها حياء من مسلكها وخرجت من غرفتها فجاءت أخت الطفل مسرعة وحملته وذهبت به الى أمها .

لكن هذه اللحظة كانت بادرة اليقظة وكانت أكثر من الزوج . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء في نظرها يمثل جزءا من الأمومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل .

***

ذلك كان شأنها في عذريتها وشبابها . والآن وقد نضج جسدها والمت بكل شيء اذا هي تصبح وحيدة في ابان نضوجها وعنفوان حياتها . وكان الأطفال يترعرعون كل يوم ويشبون وكلما ترعرعوا وشبوا بعد العهد بينهم بين الطفولة وبدوا اغرابا . كالأغراب عنها .

فقد فرع الغلام واستطال عوده وبدا نحيلا . وكان يلوذ بالصمت ويستنفد جهده في اداء اعماله الشاقة وواجباته الثقيلة . وكانت الام اذا ارادت حمل المحراث الخشبي الجاف الصنع آخر اليوم لكي تعود به الى الدار امسك الفتى به وحمله فوق كتفيه الضئيلتين وسار يترنح ويتمايل به فوق التربة المتشققة ، ولما كان التعب يبلغ منها غايته أحيانا كانت تتركه يفعل ولا تعترض رغبته . وقد أخذ الفتى على عاتقه الآن رفع الماء من البئر واطعام الجاموسة ، وجعل يكافح القيام بنصيبه وباكثر من نصيبه في عمل الحقل وكأنه هو رب البيت وعميد الأسرة .

غير انه برغم هذا كله كان هناك شيء غامض يبعده عن هذه المرأة ويقصيه عنها وهى امه . وكانت تراه رغم اضطلاعه بهذا العمل عن طيبة خاطر واقبال أيضا ، كات تراه ينأى عنها على وجه لم تستطع له تفسيرا ولا فهما ، ولم يكن يميل الى القرب منها وانما كان يقف بعيدا عنها ، وكأنما تنبعث منهـــا رائحة لا يطيق احتمالها . وكانا أحيانا يختلفان ويتشاحنان على شأن من شئون هذا العمل المشترك كأن تطلب منه أن يمسك الفأس على نحو معين فيرفض الاذعان وان كان فى طريقته عنت وارهاق له . غير أن كليهما كان يعلم أن العمل ليس هو مصدر هذا الخلاف أيضا ، وانما الباعث عليه سبب أكثر عمقا لا يدرى أحدهما تحديده وتفسيره .

ولم تكن البنت بدورها مصدر فرح لها وهى كليلة البصر نصف عمياء . غير ان هذه البنت كانت تقوم بعملها صابرة باذلة فيه أقصى الجهد ، ولم تعد تشكو او تتذمر كما كان شأنها من قبل . ولما ترعرع الطفل الأصغر واستطاع أن يسير وان يجرى واستطاب الركض فى الشارع واللعب والصياح مع أترابه ، كانت البنت تتركه وتنضم الى امها واخيها حيث يكدان فى الحقول . لكنها حتى فى هذا الشأن كانت مثار تعب لا مصدر عون لهمـــا ، لا سيما فى الحقول ذوات النباتات الغضة والمزروعات الصغيرة . فقد كانت من كفاف البصر بحيث اذا عالجت نزع الطفيليات لم تنظر مواقعها جيدا وتنتزع النبت الغض مكانها ، فكان الفتى يصرخ فيها غاضبا :

ـ خير لك أن تذهبى الى البيت . فلا فائدة منك . روحى اقعدى عند جدتك العجوز .

فاذا نهضت البنت من مكانها وهى تبتسم ابتسامة يسيرة ازاء هذه الـكلمات التى كانت تحز فى نفسها حزا أليما راح الفتى يصرخ فيها ثانية قائلا بخشونة :

ـ افتحى عينيك جيدا وانظرى أى طريق تسلكين . انك تسيرين فوق المزروعات .

وهكذا كانت البنت تسرع فى الابتعاد عن الحقل تدفعها كرامتها المجروحة الى مفارقة هذا المكان . وكان قلب الأم نهبا مقسما بين هذين الاثنين . بين ابنها وبين ابنتها الـكفيفة . وكانت تستشعر ما يساور قلبيهما . فقلب الفتى يفيض مرارة واعياء من هذا العمل الشاق الذي يجاوز سنه . وألم البنت يغلب صبرها . وتروح تقول لها متنهدة وهى تقفل راجعة الى البيت :

ـ صحيح يا ابنتى ان الفائدة منك قليلة وانك لا تقدرين حتى على الخياطة وعيناك بهذه الحالة السيئة . لكن اذهبى الى البيت واكنسى الأرض وجهزى الأكل واوقدى النار . لأن كل اولئك هو انسب الأعمال التى تستطيعين القيام بها على وجه مرض . وهناك تستطيعين ايضا الاشراف على اخيك الصغير والسهر عليه لئلا يقع فى الترعة . وتصنعين لجدتك قدحا من الشاى . هذه كلها هى واجباتك ولما أفرغ من عملى أذهب خصيصا لأحضر لعينيك مرهما .

بمثل هذا الكلام كانت الأم تهون على ابنتها ما تلقى وهى نفسها فى حاجة الى ما يهون عليها ما ترى من هذه البنت التى تجلس الساعات الطوال ساكنة صامتة تكفكف ماء عينيها المنحدر واجفانها الملتهبة وتبتسم ابتسامتها المنبئة عن الصبر والتسليم .

وكانت الأم اذا نظرت اليها أحيانا وسمعت انحاء اخيها وتحامله عليها ورأت تعلق الطفل الأصغر باللعب وغرامه بالابتعاد عنها ، لا تتمالك أن تسائل نفسها في مرارة كيف كانوا وهم صغار يفيضون جمالا وبهجة فى عينيها وهم الآن أبعد ما يكونون عن تسكين خاطرها وتطييب نفسها .

أجل .. كانت هذه الأم احيانا تتطلع فى المساء شطر بيت العم وهى تفيض الما وحسدا. فقد كانت ترى فيه الزوج الطيب الأمين وذلك الفلاح الساذج . وهو وان لم يكن فى نظافة زوجها هى ووسامته فقد كان برغم هذا لا بأس به . وكان يثابر على أداء واجبه اليومى ويعود الى البيت لكى يأكل وينام كما ينبغى ان يأكل الرجال ويناموا . وكانت ترى الى جانبه أطفاله الذين ينجبهم بانتظام وزوجته التى تجلس طروبة مرحة راضية قريرة العين بطفلها الأخير الذى تحمله فوق ركبتيها ، واذ كان لسانها لا يكاد يستقر فى حلقها وكانت مخلوقة سطحية فهى رغم هذا طيبة القلب وجارة كريمة . وكانت أحيانا تجىء اليها وتقاسمها نصيبا من اللحم تصيبه أو تهدى اطفال الأم بعض الفاكهة أو تدفع الى البنت الكفيفة بوردة صناعية لكى تضمها فى شعرها .

فقد كانت تخيم على هذا البيت اذن علائم الرضا والقناعة وكانت الأم تحسد أصحابه . وكان حنينها يزيد فى نفسها عمقا ويكتسب طابع الضيق والتبرم وعدم الرضا .

الفصل الثامن

لو كان بوسع الأم أن تنسى الرجل وتقضي على ذكراه في نفسها ؛ ولو كان في عداد الموتى ورأته بعينيها موسدا في التراب جثة هامدة فارقتها الحياة الى الابد ، ولو صارت ارملة وايقنت من انتهاء عهد الزوجية ـ اذن لهان على نفسها ما تلقى .

ولو عرفتها القرية ارملة وتسنى لها ان تحتفظ بهذا الترمل نقيا لا تشوبه أدنى شائبة ، ولو اتيح لها أن تسير في الطريق فتسمع الناس يقولون عنها : « هذه زوجة (لي) الذى مات وقد بقيت من بعده ارملة وفية طيبة وهو الآن راقد في التراب وهي تحيا من بعده عفيفة وفية لذكراه » ـ لو أتيح لها أن تسمع مثل هذا الكلام لكان مشددا لنفسها ومسكنا لخاطرها ، ولعاشت كما ينبغي ان تعيش مثلها .

لكنها لم تكن ارملة . وينبغي لها أن تجيب سائليها عن حال زوجها وأن تكذب وتمعن في الكذب والاختلاق وأن تذكره ابدا كلما عمدت الى هذا الكذب وهذا الاختلاق .

وكانوا يسألونها كلما سارت في الطريق حاملة فوق كتفها شيئا تبيعه في السوق او عائدة الى البيت بالسلال الفارغة : « هل تلقيت اخيرا رسالة من زوجك او نبأ شفويا يخبرك عن احواله وشئونه ؟ » ـ فتجيب وقد نال منها الجهد المميت والاعياء القاتل : « نعم . سمعت على لسان الرسل انه على خير ما يرام ، لكنه لا يكتب الا مرة واحدة في السنة » .

لكنها كانت اذا استقرت في البيت تتمزق قلبا بهذا الكذب المتصل وكانت أحيانا تغمرها الوحدة ويطغى عليها الحزن فتهتف من اعماق قلبها : « ما أتعسني واشد وحشتي . انا التى اخلق لنفسي رجلا من عالم الكذب والأوهام ! » .

وكانت تجلس احيانا اخرى وتحدق في الطريق وتناجي نفسها بهذه الكلمات .

ـ اذا خطر له ان يجيء فان رداءه الأزرق يبدو من مسافة بعيدة فهو صاف شديد الزرقة .

وكانت حقا اذا رات جلبابا أزرق عن بعد يثب قلبها فرحا . وكانت اذا مر امامها عن بعد رجل لابسا جلبابا ازرق أمسكت عما هي آخذة فيه وكتمت أنفاسها حتى ترى اى طريق يسلك واى

وجهة يتجه . فاذا كانت فى الحقول القت الفاس وظللت عينيها بيديها وجعلت ترقب صاحب الجلبـاب الأزرق لترى اذا جاء الى ناحيتها أو واصل سيره بعيدا عنهـــا . وكان صاحب الجلباب يتجاوزها ابدا . فان الجلباب الأزرق لباس شائع يرتديه كل الناس اذا كانوا من العامة والفقراء .

لـكنها كانت احيـــانا اخرى تغضب من هذا الرجل لفرط ما يحملها عليه من الـكذب وتقرر لنفسها انه لا يستحق هـذا كله ، وانه اذا جاء حقا فستصب عليه جام غضبها وتستمطر على راسه اللعنات . وكان هـذا الغضب يدوم اياما فينتابها التبرم والضيق وتتنكر للأطفال والعجوز وتدفع عنها الكلب بالفاس فى خشونة ، وان كانت اذا فعلت هذا تزيد من حزنها وتضـــاعف من شجنها وكربها .

وجاء اوان قسمة محصول الارز وهى فريسة هذا التاثير . فقد اخذت تكد وتكافح مرة ثانية وحدها الا ما كان الفتى يقـــدمه من من المساعدة والا يوما او يومين اسدى فيهما العم الطيب اليهـــا معونته ، حتى تم الحصاد اخيرا وحان وقت اقتسام المحصول . وقد خيل للأم فى هذا اليوم أن الحنين والغضب قد جعلا من قلبها كتلة جريحة . فكان كل ما تراه يقع من قلبها موقعا أليما . ورات فى هذا العام ما لم تكن ترى فى الايام السالفة .

وفيما هى تحت سلطان هذا الحنين وقد وقفت فى الجرن قرب المحصول المكوم ، وجاء وكيل المالك وكان طويل القامة يرتدى ثوبا من حرير رمادى ويبدو وجهه مستديرا ممتلئا وسيما . وقد رات فيه هيئته الآنفة التى عرفتها ، هيئة الأدب التكلف . لكن عينيه كانتا ممتلئتين ثقيلة الاجفان نصف مطبقة فوقهما . وفهمت المراة من كيفية نظره اليها بهاتين العينين الســـالف وصفهما انه سمع قصتها وعلم ان زوجها قد ذهب الى جهة أخرى ولم يعد أبدا .

اجل . لقد كان قلبها اليوم طافحا بما جعلها تفهم من مظهره معرفته لأمرها . والحق يقال انه كان رجلا من طراز هؤلاء الرجال الذين اذا رأوا امراة مهجورة فطنوا فى اعماق نفوسهم الى حالهـــا وعرفوا تكوين قلبها وتحديد جسدها .

وكان هذا الرجل يتكلف فى كلامه الاخلاص والصراحة ، لـكنه كان رغم هـذا الأدب المتـكلف ورغم كلامه المعســول مكروها من اهل القرية الذين يخافون بأسه بسبب طبعه الحاد وتهديده من يختلف

معه بيديه اللتين كان يضمهما ويركزهما فى خاصرتيه ، وفى هـذه المناسبات يرفع جفنيه فتبـــدو عيناه مخيفتين لامعتين سوداوين تطل منهما القســـوة . غير انهم كانوا مع ذلك يضحكون من كلامه ايضا . فقد كان اذا اعطوه ما يريد بغير مخاصمة القى عليهم بعض النـكات التى تضحكهم ، وان كان ضـحكهم لا يخـلو من تحفظ وحذر .

وهكذا جعل الرجل حينما جاء الى بيت الأم يتكلف المرح وخفة الروح . وكان يعلم انها تعيش وحدها بغير رجل . فقال للفتى الذى كان واقفا :

ـ ارى ان امك فى غير حاجة الى ابيك وانت موجـود هنـــا للاشراف على الحقول .

فبدت على هيئة الفتى علائم الزهو والحيــاء معا اذ أرضاه هذا الثناء وقال :

ـ صحيح انا اقوم بنصيبى .

وبصق الفتى كما راى الرجال يفعلون . ووضع ذراعيه خلف ظهره واحس بأنه قد شب وصار رجلا .

فضحك الوكيل ونظر الى الأم كأنه يريد ان تشاركه هذا الضحك الرقيق بشأن فتاها ، ولم تتمالك الأم من الابتسام ، وقدمت له قدحا من الشاى فى ادب ومجاملة كما تفعل لـكل ضيف عابر ، ولم تتمالك وهى قريبة من عينيه الضاحكتين الا ان تنظر فيهما . واذ ذاك انعكس فى عينيها قلبها الظـــامىء الجائع المنهوم دون ان تفطن لذلك . وحدق الرجل فيها واحس عاطفتها الحارة القوية ، فجرى دمه حارا وبدت عليه دلائل الرزانة . ولما تناول منها قدح الشاى لمس يدها وكأنه لا يعلم موقعها لكن المراة شعرت بلمسه وفطنت الى مغزاه وكان له وقع النار فى دمائها .

ثم تحولت عنه فى خجل ولم تستمع لصوت قلبها . بل تشاغلت بالمحصول وتسلط عليها الخوف من نفسها فجـأة وقالت للفتى فى صوت خافت :

ـ أسرع الى عمك وقل له أن يحضر لمساعدتى .

ثم ناجت نفسها محاولة تسكين ثوران قلبها :

ـ اذا جاء هنا . اذا جاء العم الطيب هنا .

لـكن الفتى كان مزهوا بنفسه وقد لزم العناد وقال يجادل امه :

ـ « انا هنا يا امي . وساساعدك . من غيري تريدين ؟ انظري . انا هنا » .

فضحك الوكيل عاليا وضرب على عجزه وانتهز فرصة سذاجة الفتى وهتف :

ـ صحيح انت موجود يا ابني . وصحيح ان امك لا تحتاج الى رجل آخر .

فتشجع الفتى بهذا الكلام وتحمس ، وقالت له الام بلهجة ضعيفة :

ـ يكون افضل اذا جاء عمك الى هنا .

فانتهز الفتى هذا الضعف وهتف :

ـ لا . لن اناديه يا امي . انا رجل فيه الكفاية .

ثم تقدم في زهوه الى الحب لكي يكيل المحصول ، فضحكت الام في قلق وتركته يفعل . والحق انها كانت تحس في نفسها شيئا دفعها الى تركه يتولى هذا العمل .

ولما تم الكيل وكالت الام نصيبا آخر لكي تقدمه للوكيل خاصة رده هذا عنه في اباء وترفع ومطط شفته العليا الملساء وصوب الى المراة نظرة ملتهبة ، فلم يكن امامه سوى هؤلاء الأحداث وهذه العجوز التي كانت تميل براسها كلما غالبها النوم . وقال للام :

ـ لا ، لن اقبل هذا ، انت الآن امراة وحيدة وقد ذهب زوجك عن البيت وكل هذا المحصول من عملك الخاص.ولن آخذ من المحصول سوى نصيب المالك . ولن آخذ اى اجر منك ايتها الزوجة الطيبة .

وفي ابان هذه الفورة العاطفية العذبة المقرونة بالاشمئزاز التي استولت عليها ، انتابها خوف فجائي واضطربت والحت على الوكيل في قبول اجره ، لكنه لم يقبل . بل دفع الكيل عنه وهو يلمس يدها بيده . ولما زادت الحاحا تناول الكيل وافرغ ما فيه في السلة التي كانت تدخر فيها الحب . ولم يرض ان يأخذ منها شيئا .

ولم تأنس الأم من نفسها قدرة على الالحاح عليه بعد . فقد احست خلف هذا الوجه الأملس وهذه النعومة المتكلفة قوة غامضة غريبة خفية تنصب منه وتستحوذ عليها وتلذعها لذع النار الآكلة . ولم تتمالك ان لزمت الصمت واطرقت براسها كما تفعل فتاة عذراء ، ولما افرغ الرجل الحب مكانه في السلة وانحنى امامها

وذهب ضاحكا لم تستطع أن تنبس بكلمة بل وقفت مكانها صامتة . وأخذت يدها تعبث بطرف ردائها القطنى .

ولما ذهب الرجل رفعت راسها وألقت نظرة خلفه . وفى نفس هذه اللحظة ادار الرجل راسه وقابل نظرتها وانحنى وضحك مرة اخرى ثم واصل طريقه .

وكم ودت المراة لو انها لم تنظر خلفه على نحو ما فعلت ، لكن لم يكن حيلة فى ذلك . ثم هتف الغلام مغتبطا :

ــ ما اطيب هذا الرجل الذى لم يقبل أن يأخذ اجرته يا امى . انا لم اسمع فى حياتى أن وكيلا لم يقبل أن يأخذ اجرته .

فلما ذهبت الى المطبخ دون ان تجيب بكلمة وهى فى شبه حلم بعد الذى حدث ، تبعها الغلام هاتفا :

ــ أليس هو رجلا طيبا يا أمى بعد أن لم يقبل شيئا لنفسه ؟ .

فلما لزمت الأم صمتها صاح الفتى مستاء متبرما :

ــ امى . امى .

هنالك انتفضت الأم فجأة واجابت بسرعة غير معهودة :

ــ آه . نعم يا ابنى .

واستمر الغلام فى لغوه قائلا :

ــ هو طيب جدا يا امى . فهو لم يقبل أن يأخذ منك شيئا بعد ان عرف مقدار فقرك بسبب غياب أبى .

لكن المراة وقفت جامدة فجأة وقد رفعت غطاء القدر فى يدها ، وتفرست فى الغلام وألقت على نفسها هذا السؤال وهى تشعر شعورا هو مزيج من الخجل والانفعال العذب المقرون بالاشمئزاز : « هل لم يكن يريد شيئا منى ؟ » وان كانت مع ذلك لم تقل شيئا للغلام .

وأما وكيل المالك فلم يستطع ان ينسى عاطفة المراة القوية المحتدمة وجعل يتردد على القرية منتحلا مختلف المعاذير . فتارة لمراجعة حساب بدأ له انه اخطأ فى تقديره . وطورا للشكوى من نقص الكيل الذى كاله احد الفلاحين وتعرضه لمؤاخذة المالك وغضبه . وكان اكثر ما يتردد على دار العم القريبة من دار الأم يتحدث فى هذا الشأن وذاك ، وجاء مرة بنوع جديد من بذور القطن ينتج تيلة دقيقة ، واخرى برفقة عامل يحمل قدرا من السماد لاخصاب التربة واكسابها القوة . والعم فى كل هذا ذاهل مشدوه

لكثرة تردده واختلافه الى داره وقد توجس العم اول الأمر وخاف ان يكون فى الأمر شيء وان الوكيل يبيت له شرا . ولما لم يسفر هذا الأمر عن شيء زاد قلق العم وقال مرة لزوجته :

ـ لابد أن هذا الرجل يدبر شرا عظيما .

وجعل يراقبه فى نفس الوقت دون ان يقصر فى أداء واجب المجاملة والترحيب به فيتعرض لشره واذاه .

لكن لا العم ولا زوجته فطنا الى نظرات الوكيل شطر بيت الأم ، ولا كيف كان يقصر أمد الزيارة اذا لم يجد الأم عند باب بيتها . أما اذا رآها فكان يجلس ويطيل الجلوس مقبلا عليها بوجهه . وكان يهتف فى صوت مرتفع وطيبة متكلفة :

ـ لا يا صاحبى الطيب . لا غرض لى سوى هذا وانا رجل عادى احب الجلوس فى حوش رجل أمين واتلقى حرارة شمس الخريف .

لكنه كان يقضى وقته فى التطلع الى الأم وهى جالسة تغزل او تخيط ملابس أهلها .

وفى هذا الحين كانت التربة الزراعية تستقبل فصل الراحة الذى يسبق الشتاء . وقد وضعت بذور القمح فى التربة الجافة انتظارا لنزول المطر الذى يرويه ويعجل بنمائه . وجعلت الأم تستريح حينا وكانت تجلس فى مدخل الدار تصلح ملابس الشتاء وتصنع احذية جديده . فان كفاف نظر البنت لا ييسر لها اداء هذا العمل ولن ييسره لها .

كانت الأم تجلس اذن فى الشمس التماسا للدفء والحرارة فتنصت لكلام العجوز وكلام ابنائها . وكانت تبدو حالمة أو كالحالمة ، تلوح عليها علائم الهدوء وتعلو بشرتها سمرة ذهبية من لفح الشمس ويبدو شعرها اسود لامعا ممشطا بعد أن توفر لها الآن من الفراغ ما يمكنها من تمشيطه يوميا . ومع أنها لم تجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها فقد كانت تبدو اقل من هذه السن كثيرا .

وكانت تعلم حق العلم أن الوكيل يجلس على قيد خطوات منها فى الجانب الآخر من الطريق ، لكنها لم تكن ترفع راسها وتتطلع اليه . فاذا احست بنظراته تلح عليها وتكاد تلتهمها نهضت ودخلت الدار وبقيت فيها فلا تخرج حتى ينصرف ويذهب لشأنه . لكنها فهمت الغرض من قدومه وادركت انه ينظر اليها لغرض خاص ولم تستطع ان تنساه أو تنتزع صورته من ذهنها .

والواقع انها لم تستطع الى نسيانه سبيلا طوال فصل الشتاء . ثم اشتد البرد أخيرا وحال دون قـــدومه حتى فى سبيل الغرض الذى يضمره فى نفسه . ولما تساقط الثلج وهبت رياح الشمال الغربى قارسة لاذعة كان يمكن ان تتساه ولكنها لم توفق الى هذا النسيان .

ثم اقبل العام الجديد وذهبت الى البلدة كمـا كانت تفعل فى الأعوام السابقة ، فباعت قـدرا من الحب وابدلت العملة الفضية بورقة مالية والتمست كاتبا آخر استكتبته رســـالة جديدة تبدو للناس صادرة من زوجهـــا . وعلم أهل القرية مرة اخرى بنبأ الرسالة التى تلقتها والنقود التى بعث الرجل بها اليها .

لـكن حسدهم لها هذه المرة وحديثهم عنها ورفعهم من شأنهـــا لم يغمر قلبها الخاوى . بل ان الـكبرياء لم تهون عليهما ولم ترفه عن نفسها . فقد انصتت الى تلاوة الرسالة فى هدوء وبرود ، ولمـا اقبل الليل دفعتها فى الفرن بين الحشائش الموقدة . ثم ذهبت الى خوان فيه درج ففتحته وبعد تردد تناولت منه الرسائل الثـلاث التى كانت به بعد ان طال الأمد على غياب الرجل وحملتها الى النار والقتها طعاما لها . وقد رآها الفتى وهى تفعل هذا فهتف مشدوها :

ــ هل تحرقين رسائل ابى اذن ؟

فاجابت الأم فى برود تام وهى تمعن النظر فى السنة اللهب :

ــ نعم .

فقال الفتى وهو يكاد يصرخ :

ــ ولكن كيف نعرف اذن مكانه ؟ .

فاجابت الأم :

ــ انا أعرف . هل تظن انى انسى هذا .

وهكذا أصبح قلبها خاويا .

ولـكن كيف يبقى القلب خاويا ؟ .

فبعد ايام قليلة ذهبت الى البلدة وحدها لابدال الورقة المالية بنقـــود فضية ، اذ الفت ان تكون وحدها ولم تشأ ان تثقلَ على العم فى انجاز شئونها . ولما استقرت القطـــــع الفضية فى يدها وانثنت لـكى تعود ادراجها اذا هى ترى رجلا بالباب وقف باسما يمطط شفته السفلى . وعرفت فيه وكيل المالك .

ولم يكن هذا الرجل قد رآها منذ الخريف عن كثب . ولم يكن يقربهما أحد يعرفهما .

وهكذا تفرس فيها الآن مجترئا باسما وقال لها :
ـ ماذا تفعلين هنا ايتها الزوجة الطيبة ؟ .
ـ كنت ابدل بعض النقود .
وكفت عن اتمام جملتها اذ همت ان تقول ان هذه النقود وردتها من زوجها . لكن الكلمات وقفت فى حلقها ولم تنبس بها .
فقال الرجل وقد رفع جفنيه وهو يكاد يلتهمها بنظره :
ـ وماذا تفعلين بعد هذا ؟ .
فنكست المراة راسها وحاولت ان تتكلم بلهجة عادية واجابت :
ـ كنت انوى ان اذهب لشراء مشبك فضي او مطلى بالفضة لشعرى فان المشبك الذى كان عندى بلى واتكسر امس .
والحق ان هذا المشبك قد انكسر على النحو الذى بينته وقد قررت الحقيقة قبل أن تفكر فيها . ثم تحولت لاستئناف سيرها وقد استحيت أن يراها الناس الذين لا يعرفونها تتحدث الى رجل فى أحد شوارع البلدة . وكان رجلا تبدو عليه علائم الوجاهة الى حد ما وهو اطول من غيره من الرجال وقد ظهرت على وجهه المستدير امارات الشحوب حتى جعل الناس يتطلعون اليهما بفضول وهم يسيرون فى طريقهم .
لكن الرجل سار خلفها . وقد عرف وهي تسير فى رزانة وتواضع انه يتبعها . واشفقت الا تفعل ما قررته أمامه ، وهكذا قصدت الى حانوت صائغ كانت تعرفه ووقفت امام خوانه وطلبت أن ترى مشابك الشعر النحاسية المطلية بالفضة . وفيما كانت تنتظر جعلت تعبث باقراط من الفضة كانت فى متناول يدها . وفجاة وصل الوكيل الى الحانوت وتظاهر بانه لا يعرفها وقال للصائغ :
ـ كم ثمن هذا القرط ؟ .
فاجاب الصائغ :
ـ سازنه لتقدير ما فيه من الفضة ثم ابيعك اياه بالأمانة وبقدر وزنه .
واعرض الصائغ عن بيع المشبك بعد ان راى امامه رجلا مكسوا بالحرير وتوسم فيه شاريا افضل من هذه الريفية ذات الرداء القطنى الأزرق . ولم يسع المراة الا ان تنتظر واشاحت براسها عن العينين اللتين تختلسان النظر اليها فى جراة . ووقف الرجل متكاسلا بينما وضع الصائغ القرط فى كفتى الميزان الدقيق . ثم قال فى صوت مرتفع :

ـ اوقيتان ونصف .

ثم استطرد يستحث الرجل فى صوت خافت :

ـ لكن اذا كنت تشترى هذا القرط لزوجتك الفـــاضلة فلم لا تضيف اليه زوجا من الأساور ؟ . هذا زوج يلائم القرط وسيكون هدية جميلة تحبها اى امراة .

فابتسم الرجل حين سمع هذا الـكلام وقال بغير مبالاة :

ـ ضمه اذن .

ثم استطرد ضاحكا :

ـ لكن ليست هذه الهـدية لزوجتى . فانهـا ماتت منذ ستة اشهر .

وسارع الصائغ بوضع الاسورتين على القرط راضيا بهـــذه الصفقة ، وقال الرجل :

ـ اذن فلتكن هذه الهدية للزوجة الجديدة .

لـكن الرجل لم يقل شيئا بل وقف مكانه وجعل ينظر امامه ويمطط شفته . ولم يتظاهر مرة بأنه يعرف هذه الفلاحة او يشعر بوجودها . ثم حمل ما اشتراه وخرج من الحانوت . وما كاد يدير ظهره حتى تنهـــدت الأم وتبعته بنظـــرات تشف عن حســدها لتلك التى ابتاع الحلى لها ، وكانت من لون محبب الى نفسها وطالما تاقت فى صباها الى نيل مثلها . والواقع أن هذه الحلى كانت عين ما زعمت أن زوجها اوصـــــاها بشرائه . وكثيرا ما جعلت الارملة الثرثارة تسألها عنها وتطلب ان تراها ، فكانت الأم تشعر بالحرج وتقول لها الأرملة فى خبث وشماتة عظيمتين :

ـ هل لن تلبسى أبدا تلك الحلى ؟ .

فأجابتها الأم قائلة :

ـ لست اجد ميلا لهذا . وسألبسها يوم يعود زوجى .

فلما ابتاعت الآن المشبك ودسته فى شــــعرها قفلت راجعة الى البيت وهى تفكر فى هذه الحلى الجميلة التى راتها . وتنهدت ولم تانس من نفسها قدرة على انفـــــاق النقود التى تكسبها بعرق الجبين فى شراء ما تتحلى به بعد أن بات مظهرها لا يعنى الآن احدا وليس امامها الا أن تسير على هذه الوتيرة الحالية .

وخرجت المراة من باب المدينة وهى تدير فى راسها هذه الخواطر الموحشة وسارت فى الطريق القروى المؤدى الى قريتها وذهب بها الفكر الى بيتها والى طعامها وهو العزاء الوحيد الذى بقى بها .

وفجأة رات الرجل يقف أمامها فى ظلال الشفق . راته يقف فجأة كالشبح وامسك بمعصمها فى يده الكبيرة اللينة ولم يكن أحد قريبا منهما فى هذه اللحظة . فقد كان الهواء باردا مشبعا بوحشة الليل وقد آوى القـــرويون الى بيوتهم ولم يتخلف الا من قضت الظروف ببقائه فى الخارج .

امسك الرجـــل اذن بمعصمها واحست بيده ووقفت جامدة مأخوذة بهذه المفاجأة .

ثم تناول الرجل لفافة الحلى الفضية التى كانت فى يده الثانية ودسها يدها التى أمسك بها واطبق أصابعها فوقها قائلا :

ــ اننى اشتريت هذه لك وحدك . اشتريتها لك وحدك . وهى ملكك .

ثم ذهب وابتعد عنها وذاب فى ظل سور المدينة وبقيت وحدها تحمل الحلى فى يدها .

وفجأة ثابت اليها نفسها وأسرعت خلفه راكضة هاتفة :

ــ لا يمكننى . لا يمكننى .

لــكنه ذهب .

ومع انها اندفعت الى باب المدينة وجعلت تحدق بنظرها من خلال الأنوار المتراقصة المنبعثة من الحوانيت المفتوحة فانها لم تر له اثرا . واستحيت أن تدخل البلدة وان تنظر فى وجه هذا الرجل وذلك فى الضوء اليسير . وهكذا وقفت مكانها مترددة خجلى حتى ضاق بها الجنود المنوطون بالباب وقالوا لها :

ــ اذا كنت تنوين الخروج من الباب هذه الليلة فاخرجى لأن الوقت حان لاغلاقه حذرا من الشيوعيين . هؤلاء اللصوص الجدد الذين نكبنا بهم فى هذه الأيام .

فلم تملك الا ان تعود أدراجها وأن تواصل سيرها واجتـــازت المرتفع الصغير وانحدرت منه الى الوادى . وبعد قليل دفعت الحلى فى صدرها .

وبزغ القمر منبسطا فاترا بارقا ولما وصلت الى الدار الفت الأطفال والعجوز نياما الا الفتى الذى بقى يقظان وما كاد يراها حتى هتف : انى خفت عليك يا أمى . وكنت أريد ان أخرج للبحث عنك لولا خوفى من ترك الأولاد وجدتى .

لكنها لم تستطع أن تبتسم حينما راته ينعت اخويه بالاولاد كأنما هو رجل حقا ، وقالت له :

ـ نعم . أنا رجعت اخيرا واشعر بتعب شديد .
ثم ذهبت والتمست بعض الطعام فتناولته ولم تزل الحلى فى صدرها .
ولما فرغت من الأكل تطلعت الى الفراش فى ضوء الشمعة فرأت الفتى قد نام ايضا . فمدت الستار وجلست الى الخوان واخرجت لفافة الحلى من صدرها وبسطت الورق الناعم الذى لفت به .
رأت زوج الأساور لامعا ناصعا . وبدأ القرط جميلا فى عينيها . ورأت فى كل قرط ثلاث سلاسل دقيقة تتدلى منها صور منوعة . فتناولته بأصابعها وجعلت تنظر اليه عن كثب . فرأت سمكة ضئيلة مدلاة من احدى السلاسل ، ومن الثانية جرسا صغيرا ومن الثالثة نجمة دقيقة . وكانت جميعا جميلة الصنع دقيقة الشكل تستهوى قلب المرأة . ولم يتح لهـا من قبل أن تحمل فى يدها الخشنة السمراء مثل هذه الحلى . وجلست مكانها تدمن النظر اليها ثم تنهدت ولفتها ثانية فى الورقة الرقيقة وهى لا تدرى ماذا تصنع بها ولا كيف تردها الى ذلك الرجل . على انها حينما تسللت تحت الغطاء بجانب الأولاد لم تستطع الى النوم سبيلا . وبقيت وقتا طويلا ساهرة مسهدة ، ولما دب النوم الى عينيها الم بها يسيرا متقطعا . وكانت ترى فى نومها حينا اشياء غريبة بارقة وتشعر حينا آخر بيد الرجل الحارة فوق يدها .

الفصل التاسع

لم تر الرجل بعد طوال فصل الربيع ، وان بقيت ذكراه فى نفسها .. ثم رأته بعد ذلك ذات يوم فى اوائل الصيف حين بدأ القمح يتلون بلون ذهبى يسير وبسقت سنابل الأرز خضراء يانعة . وكان قلب المرأة فى هذه الأثناء يتدفق حرارة ويفيض عاطفة .
وجاء يوم فى مطلع هذا الصيف سكن هواؤه وسادت حرارته . وأخذت الشمس تسكب حرارتها فى بطن الوادى كالخمر الصافية الحارة . وفى أمواج الحرارة المنبسطة فى ارجاء شارع القرية الوحيد اخذ الأطفال يتراكضون ويلعبون عراة تلمع أجسادهم الملساء عرقا .
وقفت الأم فى مدخل الدار فى هذا الهواء الساكن وخيل اليها انها لم تر من قبل مثل هذه الحرارة الفجائية فى فصل الصيف .

وركض طفلها الأصغر الى حافة الترعة . ومضى الفتى الى حقل القمح الفض وقد خلع سترته وشمر سرواله ووضع على راسه قبعة نوحية عتيقة من الخيزران كانت لأبيه من قبل . وجلست البنت في ظلام البيت تتنهد ووصلت زفراتهـــا الى سمع الام . وبقيت العجوز وحدها متعلقة بهذه الحرارة فقد جلست في اشعة الشمس ونزعت رداءها عن هيكلها المهدم الفـانى التماسا لحرارة الشمس التى نفذت الى عظامها العتيقة وثدييها الضئيلين البــارزين من صدرها كانهما قطعتان من جلد جاف مفضن . ولما رات زوجة ابنها قالت لها :

ــ انا لا اخاف الموت فى الصيف يا ابنتى . ان الشمس لمن كانت عجوزا جافة مثلى كالدم الجديد .

لكن الأم لم تحتمل هذه الحرارة الخارجية . فقد كانت تحس فى نفسها حرارة تماثلها .. وخيل اليهـــا ان الدم يتدفق اليوم فى عروقها حارا . فتركت الدار وقالت للعجوز :

ــ لابد ان اذهب لرى الأرز بعض الوقت . فان الشمس اليوم تجفف كل شيء يا أمى .

وحملت فأسها ودلويها وسارت فى الطريق الضيق الى قناة اخرى صغيرة تمتد عالية عن مستوى حقــول الأرز . وسرى عنها حين آنست الهواء فى الطـــريق أخف حدة وحرارة من هواء الشارع المحبوس .

وتابعت سيرها دون ان تصادف احدا فى الطريق . فقد كانت ساعة القيلولة حين يأوى الرجال الى بيوتهم التماسا للراحة . وكان اذا خرج رجل الى حقله عمد الى الظل اتقاء الحرارة الشديدة التى يتعذر فيها العمل فيتمدد نائما تحت شجرة ويغطى وجهــه بقبعتهدفعا للذباب . بينما تقف دابة قربه وقد تدلى راسها وتخدر جسدها بتأثير الفتور والحرارة . لكن الأم استطاعت احتمال هــذه الحرارة لانهـــا آتية من السماء وليست محبوسة بين جدران أو ليست منبعثة من شرايينها .

واخذت تعمل بعض الوقت فى حقول الأرز . فصنعت ثغرة فى احد الحقول واحتفرت مجرى صغيرا مؤديا الى القناة . ثم حملت دلويها المثبتين الى المحور الخشبى ودستهما فى ماء القنـــاة واحدا بعد آخر وسارت بهما الى المجـــرى الذى احتفرته فصبت فيه ماءهما وكررت هذه العملية مرات وجعلت تراقب التربة وهى تتشبع

بالماء وخيل اليها انها تغذى كائنا حيا وتمده بالحياة .
وفيما كانت تقوم بهذه المهمة بسطت قامتها مرة وتركت الدلوين وذهبت الى حافة القناة المخضرة وجلست قليلا التماسا للراحة .
وبينما هى جالسة صوبت نظرها الى ناحية القرية فرأت رجلا يقف ويسأل العجوز ثم شاهدته يتحول ويقصد الى حيث كانت جالسة عند حافة القناة .
تفرست المرأة فى الرجل وهو آت الى ناحيتها وما لبثت ان عرفته .
كان وكيل المالك . وفيما كان يدنو منها تذكرت ان حليه ما زالت فى حوزتها وأطرقت برأسها ولم تدر كيف تحدثه عنها دون أن تردها اليه . ولم تجرؤ على العودة الى الدار والتماس الحلى لردها الى الرجل فى ريعان النهار وهى معرضة لكل انسان يراها والعجوز المستيقظة التى لن يفوتها ذلك .
ثم وصل الرجل اليهما . فنهضت الأم متباطئة لأنها ادنى منه مستوى ولأنها امرأة أمام رجل . لكنه قال لها فى يسر وفى غير كلفة :
— انى ما جئت ايتها الزوجة الطيبة الا لالقاء نظرة على زراعة القمح هذه السنة وتقدير كمية المحصول فى الحقول ..
على أنه فيما كان يخاطبها راحت عينه تتمشى فى جسدها وهى لا ترتدى بسبب الحر سوى سترة واحدة وسروال من قماش ازرق انحطه طول الارتداء والتصق بجسدها ، واستقرت نظراته اخيرا عند قدميها . ولما تملكها الخوف من نفسها غمغمت بخشونة :
— الحقول هناك . فانظر اذن . وقدر .
فالقى الرجل نظرة على الحقول من مكانه وقال بلهجته المرحة :
— هذه حقول طيبة ايتها الزوجة الفاضلة وسيكون محصول العام أفضل من الأعوام السابقة .
وتناول كراسة صغيرة مطوية بسطها وكتب فيها شيئا بقلم يشبه العصا الدقيقة لم تر له نظيرا من قبل ، اذ لم يغمسه الرجل فى مداد كما كان يفعل كاتب القرية ، بل كان مداده يجرى أسود من تلقاء نفسه . وجعلت الأم تراقبه وهو يكتب وقد خامرها بعض الفضول وسرت فى نفسها روح الانفعال والزهو لأن رجلا مثقفا فاضلا مثل هذا الرجل قد نظر الى مثلها حتى ولو لم يكن ينبغى له ان ينظر ، وقررت الا تتكلم عن موضوع الحلى هذه المرة .

ولما فرغ الرجل من كتابته قال لها باسما وهو يمطط شفته :
ـ اذا كان عندك وقت فاريني حقل الشعير لانى انسى دائما اين حقلك واين هو حقل عمك .
فقالت له مكرهة :
ـ حقلي هناك حول التل .
وغضت بصرها وتكلفت النظر الى الفاس كانما تهم بحملة ثانية .
فقال الرجل مرددا كلماتها :
ـ حول التل .
ثم رقق صوته وجرى بيده الكبيرة اللينة فوق شفته وقال لها باسما :
ـ لكن اريني هذا الحقل ايتها الزوجة الطيبة .
وجعل يمعن النظر اليها بصراحة وكان لنظراته قوة جعلتها تتحرك الى حد ما ، فالقت الفاس من يدها وسارت تتبعه شأن النساء ان يمشين مع الرجال .
وكانت الشمس ترسل عليهما اشعتها الحارة والارض تحت اقدامهما دافئة خضراء يكسوها العشب الرطيب .
وفيما هي تسير احست فجاة بالدم يجرى في عروقها عذبا رفيقا بتأثير الحرارة . وداخلتها دون أن تدرك السبب غبطة عميقة وهي تتطلع الى هذا الرجل الذى يسير امامها وتنظر الى عنقه القوى الشاحب الذى يلمع العرق فوقه والى قوامه المتثنى في رداء الصيف الرقيق الناعم والى قدميه المكسوتين بجوارب بيضاء نظيفة وحذاء من قماش اسود .
وقد جعلت تسير صامتة فوق قدميها العاريتين ودنت منه في سيرها ونفذت الى انفها رائحته التى هى مزيج من دم الرجل ولحمه وعرقه . وما كادت هذه الرائحة تنفذ الى خياشيمها حتى هفا بها الحنين وهزها الشوق كل الشوق حتى لقد ذعرت من نفسها ومما قد تندفع اليه . وهتفت في صوت خافت وقد وقفت فوق الطريق المغطى بالحشائش :
ـ انى نسيت شيئا لحماتى .
ولما استدار ونظر اليها قالت ثانية في صوت متهافت اجش وقد فاض جسدها فجاة حرارة ورخاوة :
ـ نسيت شيئا كان يجب ان افعله .

ودارت على عقبيهـا وسارت مسرعة وتركته فى مكانه يحـدق خلفها . ولما وصلت الى الدار تسللت الى مدخلها دون ان يفطن اليها أحد . فقد كان الجميع نياما . واشتدت الحرارة بمضي الساعات. وجلست زوجة العم فى مكانها نائمة فاغرة الفم وقد نام طفلهـا الرضيع فوق صدرها . وكانت العجوز نائمة كذلك مدلاة الرأس مكشوفة الصدر كما تركتها . وخرجت البنت من الغرفة الخانقة وتمددت متوسدة حجرا رطبا ونامت بدورها . كما انطرح الفتى عاريا تحت شجرة الصفصاف ونام كذلك .

وقد تغير الطقس كذلك عما كان . فقد اشتد القيظ وشحب الضوء المنتشر وتجمعت فى السماء من ناحية الروابى سحب عظيمة سوداء . لكنها كانت مضيئة الحوافى كأنمـا ينيرها ضوء داخلي غريب . كما خمدت أصوات الطيور والحشرات وخيم السكون فوق جميع الكائنات .

لـكن الأم كانت أبعـد ما تـكون عن النوم . وذهبت بخفة الى الغرفة الداخلية المظللة الساكنة وجلست فوق الفراش وقد جعل الدم يتدفق فى أذنيها غزيرا . ذلك الدم المتولد فى جسدها القوى المنهوم الجائع .

وقد فطنت الآن الى ما كان يساورها ويثقل على نفسها . ولم تحاول فى هذه اللحظة انتوهم نفسها كما تفعل امراة من اهل المدن فى مكانها فتزعم انها مريضة معتلة . كلا . كانت اوفر بساطة وابعد عن التجاهل وهى تعلم علم اليقين ما بها . واستولى عليهـا ذعر شديد لم تحس مثله فى حياتها . فقد أدركت أن هذا النهم الذى يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم . .

وهى لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والتمنع وهى تعلم الآن ان هذا النهم الذى بها هو نفس النهم الذى به . وجعلت تئن انينا عاليا وتناجى نفسها قائلة :

ــ من الخير الا ينالنى . أواه . . كم أود الا ينالنى . وأن انجو .

على انها نهضت عن الفراش حتى وهى ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول .

جعت تسير تحت السحب السوداء العظيمة المنيرة الحوافى تحوطها الروابى مشربة بالخضرة فى هذه الظلال .

ذهبت تحت هذه السماء فى الطريق الضيق الملتوى الى حيث

كان ينعطف حول معبد صغير مهجور ، حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .

ولم تستطع ان تجاوزوه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر .. فتبعته الى الباب وأرسلت نظـــرها . فاذا هو واقف في الداخل يترقب وقد لمعت عيناه في المكان الظليل كعيني الحيوان الوحشي . فدخلت .

وقفا مخلوقين احدهما الى الآخر في الضوء الكليل .

كانا مخلوقين غارقين في حلم .. مستيئسين .. لا توقفهما قوى الدنيا في هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم .

غير ان المرأة امسكت لحظة . فقد افاقت من حلمها ورات آلهة المعبد الثلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحدق امامه ، والى جانبيه تابعان اقل شأنا .. وهم جميعا ارباب طيبون اقيمت انصابهم في جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون أو يلتمسون الاعتصـــام بالمعبد .

فتناولت الرداء الذى وضعته جانبا وذهبت الى الآلهة فطرحته فوق رءوسها وحجبت اعينها الناظرة المحدقة .

الفصل العاشر

في نفس هذه الليلة هبت الريح فجـــأة هوجاء عاتية من ناحية الروابي النائية ، واكتسحت امامهـــا سحب السماء الكثيفة المطيرة . وانهمرت الأمطار غزيرة فبددت حرارة النهار . ولما انقشعت الغيـــوم بزغ الفجـــر ساكنا مشرقا وبدت صفحة سماء صـــافية الاديم .

وقد أتت هذه العاصفة فيما جاءت به بنهاية العجوز . فقد نامت في مكانها طويلا وقت القيلولة . ولما غربت الشمس تعرض جسمها العاري لهبوب الريح . حتى اذا عادت الام الى الدار في الأصيل صامتة وكأنها عائدة من الحقـــــول ومن العمل الشريف . لفت العجوز في فراشها ترتعد بردا وقد آلمت بها الأوجاع والآلام .. وهتفت حينما رأتها :

ـــ ان ريحا شديدة حلت بي يا ابنتي . وريحا خبيثة اصابتني !.

وجعلت تتوجع ومدت يدها المغضنة ، فتناولتها الأم واحست بها يابسة ملتهبة .

والحق أن الأم قد طابت نفسها بهذا الذي وجدته . والحق أنها طربت حين آنست هذا التطور الذي يشغل ذهنها ويستغرق تفكيرها وينسيها ذلك الفعل العـــذب الخبيث الذي اقترفته هذا اليوم . وغمضت قائلة للعجوز :

ــ ان السماء متجهمة . وكدت أعود لـكي أرى اذا كنت جالسة تحت هذه السماء الغاضبة . لـكني قـدرت انك ستنظرين لونها وتحتجبين عنها .

فقالت العجوز مولولة :

ــ انى نمت طويلا . واخذنا النوم جميعا . ولما استيقظت رأيت الشمس ذهبت وأحسست ببرد الموت فى جسدى .

عند ذلك اسرعت الأم ودفأت بعض الماء ووضعت فيه زنجبيلا وأعشابا وشربت العجوز منه . غير ان وطأة الحمى اشتدت عليها فى الليل وجعلت تشكو ضيق التنفس وتقول ان عفريتا جالس فـوق صدرها يدس سكينة فى رئتيها . وما هى الا دقائق حتى كفت عن الكلام واخذت تتنفس بجهد من رئتيها المطبقتين .

وقد سرت الأم ان وجدت فى هذه المناسبة ما يحول دون نومها . ولم يفارقهـا هـذا السرور وهى جالسة طول الليل الى جانب العجوز تسهر عليها وتقدم لها الماء كلما توجعت وتطرح الغطاء فوقها اذا دفعته عنها شاكية وطأة الحرارة وهى ترتعد فى نفس الوقت .

واما فى الخارج فقد تكاثف الليل وانصبت أمطار غزيرة تخللت السقف المصنوع من القش وانسابت الى ركن العجوز الذى اقيم فيه فراشها . فأزاحته الأم من مكانه وطرحت حصيرا فوق فراش الأولاد حتى تدفع عنهم الماء المتسرب من السقف . وبرغم هذا كله فقد طابت نفسا اذ وجد ماتفعله وما يستغرق تفكيرها طوال الليل .

ولما طلع النهار زادت حال العجوز سوءا . فأرسلت الأم فتاها لاستدعاء العم الذى جاء مع زوجته وجاء بعـده بعض الجيران . ووقفوا جميعا يتطلعون الى العجوز التى تمددت فى مكانها وهى لا تكاد تعى ما حولها وقد اذهلتها الحمى والألم الذى كانت تحسه كلما تنفست . وجعل كل واحد منهم يصف الدواء الذى يراه علاجا لحالة العجوز . وأخذت الأم تروح وتغدو مهرولة لـكى تجرب هذه الوصفات جميعا . ثم أفاقت العجوز ورأت الجمع الذى يحف بها . فقالت وهى تلهث من صدر مثقل : هنـــــا عفريت يجثم فوقى ويسمرنى .. ساعتى .. ساعتى .

فأسرعت الام الى جانبها ورأت أنها تريد ان تقول كلاما تعجز عن نطقه . وكانت العجوز تشد بيد مرتعشة اطراف الكفن الذى حفل بالرقع ، وقد كانت تضحك كلما أضيفت اليه رقعة وتقول انهـا ستعيش حتى تبليه . غير أنهـا جعلت الآن تشده بيدها فأحنت الأم رأسها وسمعتها تلهث قائلة :

ــ هذا الكفن .. كله رقع .. ابنى .

وجعل الحضور يتفرسون فيها عاجبين متسائلين .. غير ان الفتى قال من فوره :

ــ عرفت ما تريده جدتى يا أمى . هى تريد ان تلبس الآن كفنها الثالث . الكفن الذى قال ابى انه سيرسله اليها . وكثيرا ما قالت إنها ستعيش حتى تبلى الذى تلبسه فى الوقت الحالى .

فلما قال الفتى هذا الكلام اشرق وجه العجوز قليلا وهتف الجميع قائلين : ما اقدر هذه العجوز وابسل قلبها ! ها هى ذى تريد كفنها الثالث .وسيتحقق لها ما كانت تتمنى .

وانبسطت قليلا أسارير وجه العجوز الغائر وقالت لاهثة الانفاس :

ــ لن اموت حتى يصنع الكفن والبسه .

وبادرت الأم لتحقيق هذه الرغبة . فعهدت الى العم بشراء الكفن وقالت له :

ــ اشتر القماش من اجود الانواع . وسأرد لك الثمن غدا اذا كان الآن فى متناول يدك .

فلما استقر راى الأم على أن تهيىء للعجوز افضل الاقمشة ، ولما ساد السكون ليلا حفرت الأم أرض الغرفة وتناولت النقود الفضية التى اخفتها واخذت منها القدر اللازم حتى تمضى العجوز الى نهايتها قريرة العين راضية .

والحق ان ذكرى هذا العمل الذى اتته وكانت تجتهد فى نسيانه وتغييبه فى اعمق اعماق ذاكرتها وتتشاغل دونه راضية بهذا التشاغل ــ هذه الذكرى المقيمة الدائمة قد رققت قلبها وحفزتها الى التفانى فى مرضاة هؤلاء الذين يتصلون بها . وكان يسكن نفسها ويخفف من وقع هذه الذكرى الخفية أن تتوفر على اسداء كل ما يتسع له ذرعها من الاحسان والمعروف والخير . وقضت ليلتين لم تذق فيهما طعم النوم وهى تجهد نفسها راضية لا تضيق بالأولاد ولا تنقم منهم وتتجه الى العجوز المائتة بقلب يسيل رقة ، ونفس تذوب عذوبة

وحنانا . ولما جاء العم بالقماش امسكته امام عيني العجوز وهتفت في سمعها بصوت مرتفع اذ كلما مرت الساعة زادت العجوز صمما وعمى :

ــ تشجعي يا أمي وتشددي حتى أصنعه .

فقالت العجوز في جلد نادر :

ــ نعم لن أموت .

وان كانت في الواقع قد زادت سوءا حتى اصبحت لا تقوى على الكلام بله التنفس ، وكلما تنفست خرجت منها حشرجة اليمة تثير الرثاء والأسى .

وبادرت الأم بصنع الرداء وكان من قماش احمر اللون كثوب العروس . وجعلت العجوز تراقبها وهي تصنع وتدمن النظر اليه .

ولم تعد العجوز تقوى على ازدراء طعام او شراب . بل عجزت حتى عن شرب اللبن الدافيء الذي اعتصرته امرأة طيبة من ثدييها لما يقال من أن هذا اللبن البشري يدفع الموت احيانا عن الكهول المحتضرين .. وكانت العجوز تتعلق بالحياة منتظرة لا يمسكها سوى هذا الهواء اليسير الضئيل الذي تتنفسه .

وجعلت الأم تخيط الثوب بلا توقف والجيران يأتون لها بما تحتاج اليه من طعام حتى لا تنقطع عن الخياطة . وتم صنع الثوب في نهار وشطر من الليل . وكان العم وزوجته وبعض الجيران واقفين عن كثب يرقبون صنع الثوب . بل لقد كانت القرية كلها يقظة تتساءل ان كان يقدر للأم أن تفـوز في هذه المساجلة بين الموت والحياة او يغلبها الموت على أمرها .

لكن تم أخيرا صنع الكفن الأحمر . ورفع العم العجوز بينما جعلت الأم وزوجة العم تضعان الثوب الجديد فوق الجسد المهدم الفاني الذي حال لونه ويبست اطرافه كأنه افرع عتيقة من شجرة ميتة . بيد أن العجوز وعت لبس الثوب . ولم تعد تقوى على الكلام الآن . بل تمددت وجعلت تحشرج وفتحت عينيها واسعتين وابتسمت عن فم لا اسنان له وقد أدركت أنها عاشت وغالبت الموت حتى لبست كفنها الثالث وهو كل ما كانت تتمناه في حياتها . وهكذا ماتت قريرة العين مظفرة .

***

على ان الأم ما فتئت تتشاغل وتنهمك في كل شيء رغم الفراغ من دفن العجوز وانتهاء حاجتها الى العمل .

وقد دابت على العمل فى الحقول على نحو غير معهود ، واذا أخذ الفتى فى اتمام عمل بدأته هى هتفت فيه بخشونة :

ـ دعني أفعل هذا . انى شديدة الحزن لذهاب العجوز ، وكم الوم نفسي لأنى لم أعد الى البيت فى ذلك اليوم حتى ارى انها فى مأمن من العاصفة .

وجعلت أهل القرية يفهمون انها شديدة الحزن لذهاب العجوز وانها تلوم نفسها حتى امتدح كثيرون مسلكها واثنوا عليها وكانوا يقولون :

ـ ما اطيب هذه المراة واشد وفائها .

وكانوا يهونون عليها ويطيبون خاطرها ويقولون لها :

ـ لا تحزنى أيها الزوجة . كانت عجوزا وجاء أجلها . وماذا ينفع الحزن اذا جاء أجل الانسان ؟ . كفاك عزاء ان زوجك على قيد الحياة وأولادك أحياء . تشجعى أيتها الزوجة الطيبة .

لكنها كانت فى حاجة الى هذه المعاذير لاخفاء خوفها وانقباضها . فقد كان لها أن تخاف وأن تنقبض حقا . وحآن الوقت لكى تنبش قلبها حتى وهى تعمل فى الحقل وتستخرج منه هذا الخوف الذى بقى كامنا فيه منذ ساعة العاصفة . وقد طابت نفسها كل هذه الأيام بل طابت نفسا بموت العجوز وكانت تناجي نفسها محزونة بهذه الكلمات : « من الخير أن العجوز ماتت حتى لا تعرف ما يقع ، ان كان لابد من وقوعه » .

ومضى شهر وهى خائفة . ومضى شهران وثلاثة وجاء أوان الحصاد وتم جنى المحصول . فاذا ما كان يساورها من المخاوف كل يوم قد استحال الآن يقينا وحقيقة واقعة . ولم يعد يجديها الشك وأدركت أن أسوأ ما خافته قد وقع وان السهم قد نفذ ، وهى ام لأولاد وزوجة طيبة مبجلة فى قريتها . وجعلت تلعن يوم العاصفة وتلعن شهوتها العمياء . وقد كان ينبغى لها أن تعلم علما لا ريب فيه أن تلك اللحظة ستثمر وتنتج اثرها وقد كان جسدها فائرا متفتحا مترقبا وان عقلها كانت تصهره نار آكلة ونفسها تذوب جوعا ونهما . وهل كانت تحلم بغير هذه النتيجة وقد كان الرجل كذلك قوى البنية موفور الحيوية ؟ .

ها هنا اذن لون غريب من الأمومة قضى عليه أن يلوذ بالسرية والكتمان وان تحصى أعراضه مقرونة بالجزع والذعر فى وحشة الليل والأولاد نيام . ومهما انتابها من أسباب الاشمئزاز فلم تكن تقوى

على ان تكشف عما يساورها . ومن عجب انها لم تأنس ابدا لهذا الاشمئزاز وهذا التقزز حين حملت اطفالها الشرعيين . فأما الآن فقد كانت تغثى بالطعام وتلفظه قبل ان يستقر فى جوفها . وخيل اليها كان هذه البذرة التى تنبت فى احشائها شديدة القوة موفورة الحياة حتى لتنمو فى بطنها من تلقاء نفسها وكأنهـــا اعشاب برية . وكانت تستأثر بجسدها فى غير رحمة وهى تجهد الا تترك ما ينم عنها .

وكانت تقضى الليالى متتابعة جالسة فى فراشها عاجزة عن التمدد والنوم . وتروح تتوجع وتناجى نفسها بهذه الكلمات :

ــ يا ليتنى كنت وحدى كما كنت وليس فى بطنى هذا الذى بها . يا ليتنى كنت وحدى كمـــــا كنت . اذن لرضيت نفسا وقنعت بحالى .

وكان يخطر لها احيانا وهى فى ثورة من امرها أن تعلق نفسها فى قائم الفراش وتقضى على حياتها . ولكنها لم تستطع الى هـذا سبيلا . فقد كان بجانبها اولادها . ولما نظرت الى وجوههم الساكنة الهادئة لم تقو على انفاذ هذا الخاطر الجنونى ولم تطق أن تتصور نظـرات الجيران الى جثتها الهامدة وهم يفتشون عن أسباب موتها . فلم يكن امامها اذن الا أن تعيش .

على أن هذه المرأة رغم آلامها لم تبرأ من رغبتها فى هذا الرجل ، وان كانت تمقت نفسـها كلما هزها الشوق اليه . بل لقد خيل اليها انه يربطها اليه رباط وثيق بهذا السر الخفى الذى ينمو فى احشائها . ومع انهـــا كانت تعض بنان الندم لاستسلامها اليه فقد كانت لا تفتأ تحن اليه نهارا وليلا . غير انهـا استحيت أن تلتمسه وخافت أن تراها العيون كذلك . ولم يسعها الا الانتظار حتى يعود ثانية . فقد بدا لها انها اذا ذهبت لالتماسه فهى هالـكة حقا ومتاع لـكل رجل من بعده .

لـكنها آنست فى هذا الشأن ظاهرة غريبة . فان الرجل قضى وطره منها وبث ما كان بينه وبينهـــــا . ولم يأت مرة واحدة طوال الصيف حتى انتهى حصد الحب ووجب ان يعـــود . ولما جاء لزم الصمت والتحرز كدأبه واقتضى الـكيل كاملا حتى لم يتمالك الفتى ان هتف عجبا .

ــ كيف أغضبناه يا أمى وهو فى العام الماضى كان رحيما بنا ؟ .

فأجابته الأم فى تبرم :

ــ وكيف أعرف ؟ .

لكنها كانت تعرف . وقد عرفت حقا اذ رأته معرضا عنها .
بل انه لم يتكلف أن ينظر اليهـــــا مرة واحـدة أثناء ولائم الحصاد رغم أنها اغتسلت ومشطت شعرها وسوته بالزيت وارتدت ثيابا نظيفة ولبست جوربها الوحيد وحذاءها الذى صنعته يوم دفن العجوز .
لبست اذن هذه الثياب وقد توردت وجنتاها أملا خامدا وحياء ولمعت عيناها بتأثير مخاوفها المكنونة وجعلت تروح وتغدو يوم الوليمة مهرولة أمام عينيه وراحت تخاطب هذا وذاك بصوت عال وهى تتكلف المرح ، حتى لقد تفرست نساء القرية فيها واخذتهن الدهشة من تورد وجنتيها ولمعان عينيها وارتفاع صوتها وتكلفها المرح وهى التى كانت تأخذ نفسها بالهدوء الوقور فى مجلس الرجال .
لكن الرجل لم يخلع عليها نظرة واحدة رغم هذا كله . وقد ذاق الخمر الجديده المصنوعة من الارز وهتف للفلاحين قائلا :
ـ أريد لنفسى قدرا او اثنتين من هذه الخمر ايها الزارعون واطلب ان تحكموا سد القدر بالطين حتى تبقى عذبة سائغة .
بيد أنه لم يصوب اليها نظرة واحدة . وكانت اذا وقفت امامه تخطاها بنظره وكأنها زوجة عادية لا يعرفها .
عند ذلك لم تطق المرأة صبرا . اجل . لم تستطع ان تطيق هذا رغم ادراكها أنه ينبغى لها أن تسر باعراضه عنهـــا وبانتهاء حاجته منها . فذهبت الى بيتها فى ابان الوليمة واخرجت تلك الحلى التى اهداها اياها من قبل من مخبأها السرى وهى ترتعش وتهتز انفعالا . وعلقت القرط فى اذنيها بعد أن نزعت منهما السلك الدقيق الذى جعلته فيهما السنين الطوال حتى لا يسد ثقباهما . ودفعت زوج الأساور فى يدها الخشنتين وخرجت مرة ثانية لكى يراها ووقفت بين النساء اللاتى اقمن على خدمة الرجال اثناء الوليمة . ولما رأتها الأرملة الثرثارة وكانت تلبس حذاء جديد وتدفع قدميها دفعا حتى يراه كل انسان هتفت قائلة :
ـ حسنا أيتهـا الزوجة الطيبـة . اراك اشتريت الحلى اخيرا وتحليت بها ايضا رغم ان زوجك لم يزل بعيدا عنك .
فاهت الأرملة بهذه الكلمات فى صوت عال حتى التفتت النسوة جميعا وضحكن بل التفت الرجال ايضا وابتسموا لما رأوه من مرح هذه المرأة . ولما سمع الوكيل هذا الضحك وهذا الكلام اللاذع الذى عنيت به المرأة رفع رأسه عن صحفته فى عجرفة وفى غير مبالاة وجعل

فكاه يتحركان لامتلاء فمه بالطعام وقال بغير اهتمام وبصوت عال حتى تسمعه :
ـ اى امراة تقصدون ؟ .
ووقع نظره على وجهها المورد وتخطاها بعينيه كأنه لم يرها ابدا وانهمك فى الأكل من جديد . ولما أحست المراة بالتورد يفيض من وجهها ابتعدت مسرعة وضحك الجميع حين راوها تجرى حياء من مرحها .
ومنذ ذلك اليوم حرصت المراة على العزلة والابتعاد عن أهل القرية جميعا تبقى وحدها مع أولادها اخفاء للكائن المروع الذى ينمو فى احشائها .
غير أنها كانت تفكر نهارها وليلها فيما يمكن أن تفعل ، وكانت امام الناس تواصل العمل فى الحقول وتخزن الحب للشتاء ولما حل عيد الخريف وكان فى كل بيت عيد وامتلأت البيوت بالحب والطعام لم تجد الأم للعيد طعما وان كانت مع ذلك صنعت بعض الفطائر لأولادها تمشيا مع العادة . ولما بزغ القمر ليلة العيد جعلوا يأكلون الفطائر خارج البيت تحت أشجار الصفصاف ويستمتعون بضوء القمر الفضى الذى أحال ليلهم نهارا ساطعا . غير أنهم كانوا يأكلون فى وجوم . واستشعر الأولاد حاجتهم وحاجة امهم الى الفرح والبهجة حقا وقال الفتى اخيرا فى رزانة :
ـ يخطر لى أحيانا ان ابى لابد أن يكون قد مات لأنه لا يعود أبدا .
فانتفضت الأم حين سمعت هذه الكلمات وقالت بسرعة :
ـ انت ابن عاق حتى تتكلم عن موت ابيك .
لكن هذه الكلمات أوحت الى نفسها خاطرا وبعثت فى ذهنها فكرة .
وقال الفتى مرة ثانية .
ـ يخطر لى أحيانا ان اذهب للبحث عن ابى ، وبامكانى ان اذهب اذا اعطيتنى مبلغا صغيرا ، وفى قدرتى أن احمل ملابسى الشتوية فوق ظهرى اذا تاخرت فى البحث عنه وايجاده .
عند ذلك أشفقت الأم وقالت له لكى تحول افكاره عن هذه الناحية :
ـ كل فطيرة اخرى يا ولدى ، وانتظر سنة ثانية . وماذا افعل اذا ذهبت انت ولم تعد أيضا ؟ انتظر حتى يكبر اخوك الأصغر ويحل محلك .

لـكن الابن الأصغر هتف بقوة اذ كان عنيدا متشبثا برايه :
ـ لكن اذا ذهب أخى فسأذهب انا ايضا معه .
وزم شفتيه الصغيرتين القرمزيتين ونظر الى امه غاضبا . فقالت الأم للفتى مؤنبة :
ـ هل رايت ما تكون النتيجة وانت تقول هـذا الـكلام وتشتت عقله ؟ .
ولم تشأ الأم أن تسمع كلاما آخر فى هذا الشأن .
لكن هذه الفكرة علقت بذهنهـــــا ولم تبرح خاطرها . وجعلت تستعرضها وتتأملها وتقلبها على وجوهها . فها هى ذى بقيت وحدها اعواما خمسة كاملة . فهل لم يكن ممكنا ان يعود فى أثناء هذه المدة اذا كان فى نيته أن يعود حقا ؟ .
لقد مضت اعوام خمسة . ولابد ان يكون فى عداد الموتى . ولابد انها أرملة ، بل ارملة منذ سنوات دون أن تدرى . وليس وكيل المالك متزوجا .
هى ارملة وهو غير متزوج . فقد سمعته يقول ان زوجته ماتت فى العام الماضى ولم تهتم آذ ذاك بكلامه ، اذ ما كان يعنيها من هذا الكلام وهى لم تكن قد ترملت بعد . أجل .. لابد أن تكون أرملة حقـا .
وفى هذه الليلة باتت ساهرة تسامر القمر وقد نام الأولاد وهجعت القرية الا من كلب ينبح هنا وهناك . وقد استقر فى نفسها كلما مضى الوقت انها أرملة . فاذا كانت كذلك ، واذا تزوجت منه . حالما يقبل فهل تصلح ما أفسدت ؟ .
ومن عجب أن الظروف عجلت بتحقيق هذا الـذى ساورها فان الفتى . لم ينس عزمه واخذ يعمل كالمحموم فى حرث الحقول وبذر القمح ، ولما تم له ذلك ركب رأسه واصر على الذهاب فى يومه لالتماس والده .
شب الفتى طويل القامة كأبيه . نحيلا صلبا كعود الخيزران . ولم يعد حدثا صغيرا يسكت على رفض رغباته . ونشأ هادئا عنيدا لا ينزل عن عزم يضمره . وقال لأمه :
ـ دعينى أذهب الآن للبحث عن أبى . اعطينى اسم المدينة التى يقيم فيها والبيت الذى يسكنه .
عند ذلك قالت الأم فى يأسها لصرفه عن عزمه :
ـ لـكنى أحرقت رسائله ولابد من انتظار العام الجـــديد حين تأتينا رسالة منه .

فهتف الفتى :
ـ نعم . لكنك قلت انك تعرفين العنوان
فقالت بسرعة :
ـ هذا ما كنت أظنه . لكنى نسيت بسبب مشاغلى الكثيرة وبسبب وفاة جدتك . وقد تذكرت انى نسيت لانى اردت ان ارسل رسالة فى أثناء مرضها فلم أتمكن اذ نسيت العنوان .
فلما نظر الفتى اليها معاتبا وهو لا يكاد يصدقها هتفت غاضبة :
ـ وكيف كنت أعرف انك ستفكر فى الذهاب وتترك كل الأعمال على راسى بعد أن كبرت واصبح يمكن الاعتماد عليك ؟ . لم أحلم ابدا بأنك ستترك أمك . وانا اعلم ان رسالة ستردنا فى السنة الجديدة ككل سنة .
وهكذا لم يستطع الفتى الا أن يطرح عزمه للزمن وجعل ينتظر ضيق الصدر متبرما . وقد وطن النفس على رؤية ابيه . ومع انه لم يعد يتذكر هذا الأب ، فقد خيل اليه ان فى ذاكرته منه صورة الرجل الطيب المرح وتاقت نفسه الى رؤيته . فانه لم يعد يكلف بأمه كثيرا فى هذه الأيام لأنه كان يراها حادة الطبع سريعة الغضب نحوه لا تفهم أو لا تكاد تفهم منه شيئا ، وساوره حنين الى ابيه .
ولم تدر الأم ماذا تفعل . ورات أخيرا ان الوقت قد حان لكى تقوم بعمل سريع حاسم . ولم يبق لديها شك فى وفاة الرجل بعد أن لبث كل هذه السنوات بعيدا عن زوجته واولاده . وجعلت تردد هذا الكلام حتى نزل من نفسها منزلة اليقين وأيقنت من موته حقا .
ولم يبق عليها الا أن تدبر مسألة شكلية لكى تقنع الفتى وتقنع اهل القرية بموته .
واذن فقد ذهبت مرة اخرى الى البلدة والتمست كاتبا آخر لم تكن رأته من قبل . وقالت له وهى تتنهد :
ـ اكتب لزوجة اخى وقل لها ان زوجها توفى . قل لها انه مات حرقا . فان النار شبت فى الدار التى كان يقيم فيهـــا لانقلاب المصباح بأيدى أحد العبيد وأنه احترق وهو نائم حتى استحال رمادا ولم يبق من جثته ما يرسل الى أهله .
ودون الكاتب اسمها باعتباره اسم زوجة الأخ . وقررت له اسما مستعارا باعتباره شخصا تطوع بابلاغ هذا النبأ ، وكتب اسم مدينة اخرى بعيدة باعتبارها مصدر هذا الخطاب . وآنس الكاتب فى هذا كله ما اثار دهشته وتساؤله ، بيد أنه لم يتعرض لأنه لا يعنيه

من الأمر شيء ولانه تناول اجرا مرضيا .

وهكذا وجدت المراة مخرجا . لم تستطع ان تصبر حتى يتم لها ما تريد على الوجـه الذى تصورتة . واعتزمت ان تخطر وكيل المالك بوفاة زوجها على وجه من الوجوه . وجعلت تختلف الى هنا وهناك باحثة عن بيته حتى وجدته . وكأن الآلهة حالفتها ، فقـد صادفته وهو يهم بدخول الدار . فهتفت به ووضعت يدها على ذراعه فنظر اليها والى يدها الموضوعة فوق ذراعه وقال لها :

ـ ما الذى تريدين يا امراة ؟ .

فأجابت همسا :

ـ سيدى . انا ارملة . انى سمعت اليوم فقط انى اصبحت ارملة .

فدفع يدها عنه وقال بصوت مرتفع :

ـ وما شأنى فى هذا ؟ .

ولما تطلعت اليه متألمة قال بخشونة :

ـ انى دفعت لك الثمن . دفعت لك الثمن كافيا .

وفجأة ناداه رجل فى الطريق فعرفه . وقال له ضاحكا :

ـ ما هـذا يا رجل يا طيب ؟ . هل تستوقف النسـاء الرجال هكذا ؟ .

فأجاب الوكيل ببرود :

ـ نعم . وهى امامك اذا اردتها . اما انا فلا .

ودخل داره دون أن يعبأ بها .

وقفت مكانها مشدوهة خجلى لا تفقه شيئا . لكن كيف دفع لهـا الثمن ؟ وما الذى اعطاها ؟ .

وفجأة تذكرت الحلى التى اعطاها اياها . فهل كان هذا هو الثمن الذى يعنيه ؟ .

ترى ماذا تفعل الآن بعد أن عرفت كل شيء ؟ .

سارت قدما عائدة الى البيت واحست بقلبهـا يكاد يقف عن الحركة . وراحت تقول لنفسها :

ـ لم يحن وقت البكاء بعد . لم يحن وقت البكاء بعد .

والحق أن العبرات جاشت فى نفسها وكادت تخنقها . لـكنها غالبت نفسها .

والزمت قلبها الصلابة والسكون يوما او يومين حتى وافتهـا الرسالة التى دبرتها . فحملتها الى كاتب القرية . وقالت له بسكون

وهى تقدمها له :
ــ تحدثنى نفسى يا عمى باننى ساسمع انباء سيئة . فهى فى غير موعدها .
فتناول الكاتب الرسالة وطالعها وانتفض قائلا :
ــ هذه اخبار سيئة ايتها الزوجة الطيبة . فاستعدى .
فقالت له فى تجلد :
ــ هل هو مريض ؟ .
فوضع الكاتب الرسالة وانزل العوينات عن وجهه وقال برزانة وهو يحدق فيها :
ــ بل مات .
فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت والقت رداءها فوق راسها وبكت .
أجل . كان لها ان تبكى الآن . فبكت آمنة واسترسلت فى البكاء وكأنها تعلم انه مات حقا .
بكت لوحدتها وتهدم صرح حياتها . بكت لسوء حظهـا وذهاب زوجها . بكت لأنها لا تستطيع أن تلد هذا الجنين الذى حملته فى أحشائها . وبكت اخيرا لأنها ديست بالاقدام وامتهنت اى امتهان .
وأراقت الآن فى غير ضن هذه العبرات الحرى التى كانت تحبسها اشفاقا من عيون الأبناء والجيران .
ولما سمع نساء القرية بأمرها أسرعن اليها يواسينها ويوصينها الا تسرف فى البكاء حتى لا تمرض فقد كان لهـا أبناؤها اخيرا ، وذهبن وجئنا لها ترويحا بولديها عن نفسها وتخفيفا لحزنها . ووقف الولدان امامها وكان الفتى شاحب اللون كأنما اصيب بمرض فجائى بينما جعل أخوه الأصغر يبكى لبكاء أمه .
وفجاة وفى ابان هذا الهرج ارتفع صوت البكاء والعويل وتبين انه صوت الأرملة الثرثارة التى تغلب عليها الحـزن من هذا المشهد وانحدرت الدموع على وجنتيها واخذت تقول منتحبة :
ــ انظرى الى انا المسكينة . فأنا اتعس منك حظا . لأنى لا أملك ولدا . أنا أحق بالشفقة واسوا من كل النساء حالا .
وتجدد حزنها القديم واشتد حتى دهشت النسوة والتفتن اليها يواسينها فانتهزت الأم هذه الفرصة وذهبت الى بيتها يتبعها ولداها وهى تبكى فى سكون دون أن تستطيع امساكا .
ولما وصلت الى البيت جلست لدى الباب تبكى . وبكى الفتى قليلا

وجعل يجفف دموعه بظهر يده واستمر الولد الأصغر فى بكائه دون أن يدرى معنى موت أبيه لأنه لم يكن رآه . وجعلت البنت تبكى وتتوجع وهى تضغط على عينيها المًا .

لكن الأم رأت أن بكاءها الآن الى غير غاية لا يجديهـــا شيئا . وما لبثت ان كفت عن البكاء الى حين وهونت على الأولاد الى حد ما بسكونها واخذت تفكر فيما تفعل .

رأت أنه ليس امامها اذا لم تتخير الموت نهاية لها الا أن تنتزع من أحشائها ذلك الجنين الذى ينمو كل يوم . لكن هذا عمل لا قدرة لها عليه وحدها . ولابد لها من حليف يساعدها . ولم يكن أمامها من تلجأ اليه سوى زوجة العم . وقد ودت الأم كثيرا الا تضطر لاطلاع أحد على أمرها . غير أنها لم تدر كيف تقوم بهذا العمل وحدها . وقد كانت زوجة العم امرأة طيبة ذات خبرة . وهى تعرف أساليب الرجال وتعرف خصب النساء . لكن كيف السبيل الى اطلاعها على هذا الأمر ؟ .

غير ان المناسبة المنشودة جاءت من تلقاء نفسها . فقد تقابلت المرأتان بعد يوم أو يومين من ذلك فى أحد الطرقات ووقفتا تتجاذبان أطراف الأحاديث . فقالت زوجة العم بلهجتها الرقيقة : -

— يا بنت عمى كلى وضعى حدا لأحزانك . فان وجهك شاحب كأن فى بطنك بعض الديدان .

فخطرت الفكرة فى بال الأم وقالت بمرارة وفى صوت خافت :

— الحقيقة ان فى بطنى دودة تمتص حياتى .

ولما حدقت زوجة العم مستفسرة وضعت الأم يدها على بطنهاقائلة:

— يوجد شىء ينمو فى بطنى يا بنت عمى . لكنى لا أعرف ما هو الا ان كان ربما خبيثا من نوع ما .

فقالت زوجة العم :

— دعينى أنظر .

ففتحت الأم رداءها وتحسست زوجة العم موضع الانتفاخ من بطنها وقالت فى دهشة :

— يا بنت عمى . هذا يشبه جنينا . ولو كان لك زوج لقلت انه كذلك .

فلم تنبس الأم ببنت شفة . لكنها نكست رأسها وهى فى أشد حالات التعاسة ولم تقو على رفع بصرها ورأت زوجة العم حركة فى بطنها .. فهتفت مرتاعة :

ــ احلف انه طفل . لكن كيف أمكن هــذا وزوجك غائب منــذ سنين ، الا ان كان من فعل روح من الأرواح ؟ لكنى سمعت أن هذا يحدث احيانا للنساء . وقد حدث فى الأزمان القــديمة للنساء القديسات اللاتى كانت الآلهة تزورهن . غير انك يا بنت العم وان كنت امراة طيبة محترمة فلست من القديسات .. لكن هل زارك اله ؟.

وقد همت الأم حينما سمعت هذا السؤال أن تكذب كذبة اخرى وان تقول انها أحست باله يزورها حين اعتصمت يوما من العاصفة بأحد المعابد . غير أنها ، كادت تفتح فمها لصوغ هذه الكذبة حتى عجزت عن النطق ووقفت الكلمات فى حلقها . فقد خافت أن تكذب على الاله الطيب الذى حجبت وجهه بردائها هذه الكذبة الشنيعة . ومن ناحية أخرى فقــد ملت الــكذب ولم تستطع أن تمعن فيه الى النهاية .

ولذلك رفعت راسها وتطلعت الى زوجة العم فى حالة تبعث على الرثاء والشفقة وتصاعد الدم الى وجنتيها الشاحبتين فضرجهمــا بحمرة متقطعة وودت ان تنزل الآن عن نصف عمرها لكى توفق الى كذبة تستتر بها هذا الموقف . لكنها لم تستطع . وادركت المراة الطيبة الحقيقة وفهمت كل شىء فلم تلق عليها سؤالا آخر ولم تستفسرها كيف حدث ما حدث . بل قالت لها :

ــ غطى نفسك يا أختى حتى لا تبردى .

وسارت كلتاها معا . واخيرا قالت الأم فى لهجة تقطر مرارة :

ــ لا يهم ان تعرفى من احدث هــــذا . ولن يعرفه أحد . واذا ساعدتنى فى هذا يا بنت عمى واختى فسأخدمك طول حياتى .

فقالت زوجة العم فى صوت خافت :

ــ انى لم أعش هذه السنين الطـــــويلة عبثا . وقد رايت نساء يتخلصن من شىء لا يردنه .

وللمرة الأولى لمع بريق الأمل امام عينى الأم ، فقالت همسا :

ــ لكن كيف ؟ لكن كيف ؟ .

فأجابت زوجة العم :

ــ توجد ادوية يمكن شراؤها اذا كان عند الانسان نقود . وهى مواد قوية تقتل الأم والوليد احيانا .. وهى تحدث دائما عسرا أشد من الولادة . لكن اذا أخذت منها ما يكفى فسيتم كل شىء .

فقالت الأم :

ــ اذن فلتقتلنى هذه المواد بشرط أن تقتل الجنين . وبهذا اخفى

الحقيقة عن أولادى وعن الناس .
فتفرست زوجة العم طويلا فى وجه الأم ووقفت مكانهـــا وقالت لهـــا :
ــ نعم يا بنت عمى . لكن هل يتكرر هذا الأمر بعد أن مات زوجك؟.
فجعلت الأم تقسم وهتفت متوجعة :
ــ لا . سألقى نفسى فى الترعة واهدىء حرارتى الى الأبد اذا ركبتنى الشهوة كما ركبتنى فى الصيف .
وفى هذه الليلة كشفت الأم عن الحفرة وأخرجت نقودها الفضية وانتهزت فرصة مناسبة فأعطتها لزوجة العم كي تبتاع بها الادوية .
ولما جىء بالعقاقير وتم اعدادها سعت زوجة العم فى ظلام الليل الى الام وهمست فى اذنها :
ــ اين تشربين الدواء ؟ هذا عمل دموى ولا يمكن أن يتم فى اى بيت ؟ .
عند ذلك تذكرت الأم ذلك المعبد المقفر الخرب الذى يقل المرور به نهارا وينعدم ليلا . فقصدت كلتاهما اليه وشربت الأم العقاقير وتمددت على الأرض وجعلت تنتظر .
واخيرا اخذت هذه المواد تتفاعل فى احشائها واحدثت مغصا وآلاما شديدة لم تكن الأم تحلم بمثلها حتى لقد هان عليها أن تموت . وقد طغى عليها هذا الألم وألم بها طويلا حتى ذهلت وطاش صوابها . غير انها برغم هذا تذكرت شيئا واحدا اخذت نفسها به فى غير لين ولا هوادة وهو الا تصرخ تسكينا لألمها . بل انها لم تجسر حتى على اضاءة نور ما خوفا من احتمـــــال مرور أحد بهذا المكان من قبيل الصدفة الخارقة فيرى نورا غير عادى فى هذا المعبد الخرب .
راضت الأم نفسها اذن على احتمال الألم بكل ما اوتيت من قـــوة وجلد . وسال العرق فوق جسدها غزيرا وذهلت عن كل شىء الا هذا المغص القاتل وكأنما قد أنشب وحش ضار انيابه فى أمعائهـــا واخذ ينتزعها وينهشها . بل لقد جاءت لحظة خيل اليها فيها ان هذه الأمعاء قد انتزعت حقا . وبدرت منها صرخة واحدة . .
عند ذلك جاءت زوجة العم بحصـــير احضرته معها . وتناولت ما تناولت وجعلت تتحسس ثم قالت فى كآبة :
ــ كان يمكن ان يكون ذكرا أيضـــا . انت امراة موفقـــة فى ولادة الذكور .
لكن الأم جعلت تئن وتتأوه وقالت :
ــ لن الد شيئا بعد الآن .

ثم انطرحت الأم فوق الأرض واستراحت قليلا . ولما قويت على النهوض قفلتا عائدين الى البيت . واتكأت الأم على ذراع زوجة العم وجعلت تقالب انينها . وفي الطريق مرت زوجة العم بقناة فالقت باللفافة فيها .

ورقدت الأم اياما كثيرة في فراشها حليفة المرض والهزال . وكانت زوجة العم الطيبة القلب تسدي اليها ما تستطيع من مساعدة . لكن المرض والهزال لازماها طوال الشتاء ، حتى لقد كان الذهاب الى السوق لبيع حمل من الأحمال يكلفها كثيرا من الألم والعذاب ، لكن لم يكن لها مفر من ذلك وكانت تؤديه على وجه من الوجوه .

ثم تحسنت قليلا بدخول فصل الربيع ، وان لم تعد الى حالتها الأولى ، وكانت اذا جاءتها زوجة العم بطعام مريء والحت عليها في تناوله وضعت الأم يدها على صدرها قائلة :

ـ لا يمكن ان ابتلع شيئا . هنا شيء ثقيل يضغط على صدري . واحس بأن قلبي معلق بين ثديي ولا يمكن ان ازدرد الأكل . واشعر بأن قلبي يفيض الما ولكني لا استطيع البكاء والتخفيف مما اشعر . ولو استطعت أن ابكي الى النهاية لتحسنت حالتي .

ذلك ما كان يبدو للأم . لكنها لم تستطع الى البكاء سبيلا . ومضى الربيع وهي لا تستطيع البكاء ولا تقوى على العمل كسالف شأنها . وكان الابن الأكبر يكافح للقيام بأعباء العمل يساعده العم بنصيب موفور .

وظل الحال كذلك حتى نضج الشعير . وجلست الأم ذات يوم في اشعة الشمس يغلبها الاعياء حتى لقد تركت شعرها أشعث غير ممشط . وفجأة سمعت وقع خطوات قربها ، ولما رفعت راسها الفت وكيل المالك واقفا امامها .

وما كاد الفتى يرى الوكيل حتى تقدم نحوه قائلا :

ـ سيدي . ان ابي مات وانا اقوم مكانه ، وامي مريضة منذ شهور كثيرة . ولابد من ذهابي معك الآن لتقدير المحصول اذا كنت حضرت لهذا الغرض ، لأن امي لا تقوى على ذلك .

فلما سمع الرجل هذا الكلام نظر الى الأم طويلا بغير مبالاة وقد ادرك تماما ما حل بها . وعرفت هي انه فهم أمرها واطرقت براسها صامتة . لكنه قال بغير اكتراث :

ـ هيا بنا اذن يا فتى .

وذهب الاثنان معا وتركاها وحدها .

ادركت الأم تماما انه لا أمل لها عند هذا الرجل . وهى لم تكن فى حاجة اليه بعد الآن وبعد أن الم بها هذا الضعف المزمن . لكن رؤيته الآن كانت جماع ما تريده وكانت القطرة الأخيرة التى طفحت بها كأس شقائها . فأحست بغصة فى حلقها والم مميت فى قلبها وطفرت الدموع الى عينيها . وسارت فى طريق غير مطروق حتى وصلت الى قبر موحش مهجور طال عليه القدم حتى جهل النـاس اسم صاحبه أو صاحبته ، فجلست فوق سطحه المكسو بالحشائش وانتظرت . وأخيرا طاوعها الدمع فأخذت تبكى .

وانحدرت دموعهـا اول الأمر بطيئة مريرة . غير انها انهمرت غزيرة بعد قليل . فأسندت راسها الى القبر وجعلت تبكى كما تبكى المرأة حين يطفح قلبها حزنا وتفيض نفسها مرارة وغما وتلتمس شفاء ما بها فى سكب الدمع وسفح العبرات . وقد حمل نسيم الربيع صوت بكائها الى القرية ، فجعل نسـاؤها يتبادلن النظـر ويقلن مشفقات :

ـ دعوا هذه المسكينة تبك وتخفف عن نفسها . فهى لم تتعز بمرور الوقت وطول الزمن . قولوا لأولادها ان يتركوها فى بكائها .

وهكذا تركها الجميع تبكى ما طاب لها البكاء .

على أن الأم بعد طول البكاء سمعت صوتا قربها . فرفعت راسها ورأت فى ضوء الشفق اليسير ابنتها تتحسس الطريق اليهـا فوق الأرض الوعرة ، وهتفت البنت فى سيرها :

ـ أمى . ان زوجة عمى أوصت أن تدعك تبكين حتى تخففى عن نفسك . لكن الم تشعرى بالراحة بعد طول هذا البكاء ؟ .

فما كانت الأم تسمع هذه الكلمات حتى ثابت الى رشدها وتطلعت الى البنت وهى تتنهد . ثم جلست وسوت شـعرها المهدل وجففت عينيها المورمتين ونهضت . ومدت البنت يدها تتحسس يد الأم وهى تطبق عينيها اتقاء وهج الشمس الآفلة ، وقالت شاكية :

ـ يا ليتنى لا أبكى ابدا . فانى اذا بكيت شعرت بألم شديد فى عينى .

ثابت الأم الى رشدها فجأة حين سمعت هذه الكلمات وتطهرت نفسها . اجل . ان هذه الكلمات القلائل التى صدرت فى ختام هذا اليوم ، وهذه اليد الصغيرة الممدودة الى ناحيتها ، فقد انتزعتا الأم من قوة اليأس التى كانت تتخبط فى ظلماتها طوال الأشهر الماضية . فعادت اليها عواطف الأمومة ثانية ونظرت الى البنت وقد طرحت

عنها ذهولها آخر الأمر وهتفت :
ــ هل تؤلمك عيناك كثيرا يا ابنتى ؟ .
فأجابت البنت :
ــ اظن انى لم اتغير عما كنت ، الا فى ان النور يؤذينى اكثر ، ولم أعد أراك بوضوح كما كنت فى الماضى . ولا يمكننى الآن بعد ان كبر اخى ان أميز بينك وبينه حتى اسمع صوتكما .
فلما سمعت الأم هذا الكلام اخذت تتوجع قائلة وهى تقود ابنتها برفق :
ــ اين كنت كل هذه الأيام ؟ سأذهب يا ابنتى عند طلوع النهــــار لشراء مرهم لشفاء عينيك كما كنت اقول كثيرا .
وفى هذه الليلة بدت الأم لأبنائها جميعا وكأنها عادت من مكان قصى وثابت الى نفسها ثانية . فقد ملأت صحافهم بالطعــام حتى حوافيها وجعلت تهرول شاحبة اللون ولكن هادئة النفس ســـاكنة القلب . واخذت تنظر اليهم جميعا وكأنها لم ترهم منذ اعوام . ثم تطلعت الى الابن الأصغر وهتفت :
ــ غدا سأغسل لك ملابسك يابنى . اننى لم ارها على هذه الحالة من القذارة والتمزيق . أنت ولد جميل ولا يمكن امك ان تتركك تسير فى الطرقات بهذه الثياب .
ثم التفتت الى الابن الأكبر قائلة :
ــ قلت لى أن اصبعك جرحت وانها تؤلمك . دعنى انظر ..
وعمدت الأم الى يد الفتى فغسلتهـــا وصبت بعض الزيت فوق الجرح وقالت له :
ــ كيف جرحت يا ولدى ؟ .
ففتح الفتى عينيه دهشة وقال :
ــ قلت لك يا امى انى جرحت اصبعى عندما كنت اشحذ المنجل استعدادا لحصد الشعير .
فأجابت الأم بسرعة :
ــ صحيح . تذكرت الآن . فأنت قلت هذا .
وقد خيل للأبناء دون أن يدروا كيف حدث هذا التحول « انهم يشعرون فجأة بالأنس والدفء . وان هــذا الأنس وهذا الدفء يفيضان عن امهم . وملأ الفرح والبهجة قلوبهم واخذوا يحدثونها فى كل شأن . وقال لها الابن الأصغر :
ــ لقد تراهنت اليوم مع اصحابى على أبينا بوسعه ان يقذف الى

ابعد مرمى . وفزت عليهم وكسبت هذا البنس . وانا لا شك مجدود لان هذا البنس هو اول ربح أصيبه .

فنظرت اليه الام بشراهة ورات جماله وترقرق الصحة فيه وعجبت من نفسها كيف غفلت عن هذا من قبل وقالت له بحنو شديد :

ـ انت غلام نابه لانك احتفظت بهذا البنس ولم تشتر به حلوى .

لكن الطفل ظهرت عليه علائم القلق حين سمع هذا الكلام وقال :

ـ لكن اليوم فقط يا امى فكرت فى ان اشترى به حلوى غدا . ولا حاجة بى الى ادخاره وبوسعى ان اكسب كل يوم بنسا مثله .

وكان الطفل يتوقع ان تقابله بالرفض ، لكنها اجابته برقة :

ـ اشتر يا ابنى ما يحلو لك . لان هذا البنس ملكك .

ثم تدخل الفتى فى الحديث وقال لامه :

ـ اريد يا امى ان اقول لك شيئا غريبا ، فعندما كنت فى الحقول مع وكيل المالك ابلغنى ان هذه آخر سنة له عندنا لانه سيذهب للعمل فى جهات اخرى . وقد قال انه تعب من طول المشى فى الطرقات الريفية ومل الفلاحين البسطاء وزوجاتهم وسئم تشابه الفصول ، وانه سيذهب الى احدى المدن البعيدة .

فلما سمعت الام هذا الكلام جلست جامدة فىمكانها وجعلت تتفرس فى الفتى وتتطلع اليه من خلال الضوء اليسير المرسل من الشمعة التى اوقدتها هذه الليلة ووضعتها فوق الخوان . ولما استوعبت هذه الكلمات تركتها تستقر فى نفسها فنزلت على قلبها بردا وسلاما كما ينزل ماء المطر فوق التربة المتعطشة ، وهتفت فى صوت منفعل خافت :

ـ هل قال ذلك يا ولدى ؟ .

ثم اردفت بسرعة وكان الامر لا يعنيها :

ـ لكن لابد أن ننام ونستريح ، لانى ساقوم غدا فى الفجر واذهب الى البلدة لشراء مرهم لاختك حتى يشفى نظرها ويعود كما كان .

وقد فاهت الام بهذه الكلمات فى صوت قوى ملىء بالسكينة والاطمئنان . ولما دنا الكلب منها مستجديا أطعمته بسخاء فأخذ الحيوان ياكل وهو سعيد مذهول وراح يزدرد الطعام مسرعا . ولما شعر بالشبع والامتلاء تنهد راضيا .

وفى هذه الليلة وفقت الام الىالنوم . ونامت واولادها نوما عميقا مليئا بالراحة والهدوء .

الفصل الحادي عشر

لم تفد الأم من رحلتها الطويلة الى العطـــار فى البلدة المجاورة لشراء مرهم لعينى ابنتها الكفيفة . فقد ابلغها الرجل ان عمى البنت محقق لا شفاء منه ، وعزا السبب الى لعنة حلت بالبنت نتيجة اثم ارتكبه أحد أبويها . ومع ان الأم ذهبت بعد ذلك الى معبد لالهة رحيمة للصلاة والاستغفار لعل اللعنة ترتفع عن البنت العمياء ، فان الالهة لم تستجب لها ، وايقنت الأم أن خطيئتها هى السبب ، وعادت الى البيت بائسة نادمة على تلك الخطيئة التى انزلقت اليها . وعندما استبد بها اليأس برئت من شهوات الشباب وانطوت صحائفه من سجل حياتها . وانطمست فى نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل ، ولم يبق فى سماء حياتها سوى ولديها وابنتها العمياء .

***

هكذا ولى عهد الشباب عند الأم ونيفت سنها الآن على الثالثة والأربعين . ورغم ذلك لم يكن احب الى قلبها من العمل فى الحقل غير مكترثة باحتجاج أكبر أولادها وحثه اياها على الاخلاد الى الراحة .

وأصبح يشقيها الآن التفكير فى مصير الفتاة العمياء اذا لم يقدر لها الزواج . وقد هداها طول التفكير الى البحث عن زوجة لابنهـــا الأكبر لــكى تعنى به وبأخته الكفيفة . انه قد ناهذ الآن التاسعة عشرة من عمره ، وغدا شابا مكتمل الصــفات صلب العــود دءوبا على العمل ، ولم يكن يعيبه فى نظرها سوى قسوته على أخيه الاصغر الـكسول العابث اللاهى الذى كانت رغم ذلك تحبه وتؤثره على اخيه الأكبر اذ كان أقرب شبها بأبيه . والواقع ان هذا الفتى كان يتهرب من العمــــل ويتغيب يوما أو يومين عن البيت حتى أثار اغضاؤها وتدليلها حفيظة الابن الأكبر ومقته له .

***

كان مقت الشاب لأخيه الفتى يزداد كل يوم رسوخا فى نفســه . ولم تدر الأم نفسها الى أى حد بلغ هذا المقت من نفس الشاب حتى جاء يوم معين انفجرت فيه براكين هذه العـــــاطفة المريرة فى صدره وفاضت جائشة مكتسحة كما يفيض النهر فجأة ويكتسح الســدود القائمة دونه وقد غذته روافد خفية لا تراها الأعين ، حتى اذا سال فيضه دهش الناس لأنهم لم يدركوا كيف كان النهر فى الأحوال العادية

وقد كان يبدو لأعينهم ساكنا .
حدث هذا وقت حصاد الأرز فى أواخر أيام الصيف حين يكد الجميع فى الحقول ويكدحون منذ مطلع الفجر حتى مغرب الشمس، وحين يجب على كل قادر أن يكد ويكدح ما لم يكن غنيا ميسور الحال .
وقد قام الفتى الأصغر بنصيبه كذلك من عمل اليوم وان كان عقله منصرفا الى عمل فى مكان سحيق كان يجب أن يقوم به . لكن امه كانت قد استحثته للعمل وقالت له وهى تبسط أصابع يده الملساء :
ـ اشتغل يابنى كما يجب فى هذه الأيام ، أيام الحصاد ، وبرهن لأخيك على قدرتك . واذا قمت بالعمل كما يجب وارضيت أخاك فانى سأشترى لك شيئا تحبه وتحتاج اليه .
وهكذا وعدها الفتى بالعمل وهو يزم شفتيه ويعد نفسه مرهقا مضيقا عليه ، واخذ يقوم بنصيبه من هذا العمل بقدر ما يدفع عنه أذى أخيه اذا وقعت عينه عليه .
لكنهم فى هذا اليوم الذى أنذرت فيه السماء بالمطر تجاوزوا ساعات العمل المألوفة وساهمت الأم معهم فى العمل حتى كلت قواها فلم تتمالك أن قومت ظهرها الموجع متنهدة وقالت لابنها الشاب :
ـ سأعود يا بنى الى البيت لكى أدفىء الأكل لأنى أشعر بأشد التعب والألم .
فقال الشاب فى خشونة يسيرة لا يقصدها لأنه لم يحمل امه أبدا على تجاوز طاقتها فى العمل :
ـ عودى الى البيت اذن .
وهكذا عادت الأم الى البيت وتركت ولديها وحدهما ..
وما كادت الأم تأخذ فى انضاج الطعام حتى هتفت الفتاة التى كانت جالسة فى مدخل الدار قائلة انها سمعت أخاها الأصغر يبكى .
ولما خرجت الأم مسرعة من المطبخ تحقق لديها ذلك . فركضت بكل قواها الى الحقل حيث ألفت ابنها الشاب يضرب أخاه الأصغر بقبضة المنجل ضربا قاسيا أليما والفتى يصرخ ويستغيث ويرد الضربات بقبضتى يديه ويحاول أن يخلص نفسه من يد أخيه المطبقة على عنقه .
لكن هذا لم يتخل عنه وظل ينهال عليه بقبضة المنجل . فاندفعت الأم بكل قواها الى الابن الأكبر وتعلقت به وصاحت متوسلة :
ـ يا بنى ! انه لا يزال صغيرا . يا ابنى . يا ابنى .

وانتهز الفتى هذه الفرصة فافلت من قبضة اخيـه وراح يركض في الحقل كالارنب الهارب واختفى فى ظلام الشفق . ولما صارت الأم وحدها مع ابنها الغاضب الحنق قالت فيصوت متهدج :

ــ هو لم يزل طفلا صغيرا فى الرابعة عشرة من عمره وعقله منصرف الى اللعب .

لـكن الشاب اجابها :

ــ وهل كنت طفلا وانا فى الرابعة عشرة ؟ هل كنت العب فى موسم الحصاد وانا فى الرابعة عشرة من عمرى ؟ وهل كنت ترشينني بخاتم او رداء جديد او غيره مما لم اكن اربحه وانااله بكدى ؟ .

فهمت الأم من هذه الكلمات أن الفتى الابله قد راح يزهو بمـــا يتوقع أن يناله ، ووقفت صامتة لا تحير جوابا وهى شاعرة بغلطتها . واستسلم الشاب لآله ومرارته فانفجر صائحا :

ــ نعم . انت تحتفظين بالنقود . وانا اعطيك كل ما نربحه . وانا لا آخذ بنسـا واحدا لشخصى ولا ادخن قصبة صغيرة ولا اشرب قدحا من الخمر ولا أشترى لنفسى شيئا مما يناله اى شاب ويعده حقـا لنفسـه . ومع ذلك فأنت تعدينه بكل ما لم انله فى حياتى . ولأى داع ؟ لـكى يقوم بالعمل الذى يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن ما يأكل وما يشرب .

أحست الأم ببعض الخوف من هذا الابن الغاضب الناقم الذى كادت تنكره الآن لفرط ما كان يتسم به من الرزانة والهـــــدوء فى الأيام العادية . وقالت فى صوت خافت مضطرب :

ــ انا لم اعده بخواتم ولا ملابس .

فقال الشاب بانفعال شديد :

ــ بل وعدته . او اذا لم تكونى وعدته فقد فعلت ما هو اسوأ . فقد قال انه سينال كل ما يريد بعد بيع المحصول وسداد الضرائب . بل قال انك وعدته .

فقالت الأم وهى خجلى امام هذا الابن الطيب الفاضل :

ــ انى قصدت أن أقدم له لعبة تافهة لا تكلف سوى مبلغ زهيد يسير .

ثم استجمعت شجاعتها بعد ان رات انها هى الأم وأن لهـا حقوقا . فقالت :

ــ واذا كنت وعدته بلعبة تافهة فلكى انقذه من غضبك الدائم الذى تلاحقه به مهما فعـل ، وأنت تشـتد عليه وتؤذيه بنظراتك القـاسية

وكلماتك الأليمة ، والآن بضرباتك .

لكن الشاب لم يقل شيئا آخر . وانثنى الى حزم الأرز يعمل فيها بصرامة وسرعة وكأن شيطانا ركبه . ووقفت الأم تنظر اليه وهى لا تدرى ماذا تفعل . وكانت تشعر بأنه قد قسا فى معاملته لابنهـا الأصغر ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت انها اخطأت وحادت عن طريق الصواب .

ثم ألقت عليه نظرة فاذا الدموع تكاد تطفر من عينيه ولكنه ضغط على فكيه لكى يحبس عبراته . فلما آنست الأم فيه هذا الاحساس الذى لم تمهده فيه من قبل وهو الذى كان أبدا راضيا مستسلما لا يبدى رغبة ما ، ذاب قلبها ورقت حاشيتها كدابها كلما آذت احد ابنائها ، وان كان الابن لا يحس منهـا ذلك ، وزاد حدبها وحنانهـا فهتفت بلهجة سريعة :

ــ انى اقر بخطيئتى يا ولدى . انا لم اصنع نحوك ما يجب فى المهد الاخير . انا لم ادرك انك صرت رجلا . لـكنك رجل . وأنا الآن اقدر هذا واراه بعينى . وسيكون لك مقام الرجل فى بيتنا وتضع يدك على على النقود وتحتل المكان الأول بالاسم كما تحتله فى العمل الذى تقوم به دائما . نعم . انى اراك الآن رجلا . وساعمل فى الحال ما ابطأت فيه زمنا طويلا . سأبحث لك عن زوجة وسـيكون لك ولهـا دور الصدارة . انى لم ادرك هذا من قبل . لكن أدركته الآن كما يجب .

وهكذا عمدت الأم الى الاصلاح . وغمغم الشاب كلاما لم تسمعه وادار ظهره ولم ينبس بكلمة اخرى بل راح يواصل العمل . اما هى فقد سرى عنهـا وعادت ادراجهـا وهى تقول هذه الجملة لاخفـاء شعورها :

ــ كفى . لابد ان يكون الأرز احترق الآن .

وما كادت تصل الى المنزل حتى راحت تتشاغل بمختلف الأعمال وقد نسيت اعياءها . ولما سألتها الفتاة عما حدث أجابتها فوراً :

ــ لا شيء يا ابنتى الا ان اخاك الأصغر لم يقم بنصيبه من العمل ، او هذا ما قاله شقيقه . لكن الاخوة يتشاحنون دائما كما أظن .

واسرعت الأم باعداد لون شهى من الطعام يحبه ولدها الأكبر . وراحت وهى تعده تفكر فى خطة الاصلاح التى عولت عليها . فرأت انه من الصواب ان يتزوج ابنها . وجعلت تلوم نفسها لأنها اعتمدت عليه كما تعتمد على الرجل دون أن يظفر بما يظفر به الرجال من الجزاء . وزادها التفكير تصميما على انفاذ ما قررته .

وعاد الشاب الى البيت أخيرا فى ضوء الشمعة التى أوقدتهـــا ووضعتها فوق الخوان . ولما تفرست فى وجهه دون ان يفطن اليهــا رأته قد عاد الى حالته السالفة وظهرت عليـــه علائم السرور بتأثير ما وعدت به وفارقه الغضب . فلما رات الأم هذا الصفاء نادت الفتى الأصغر الذى كان يحوم حول الباب دون أن يجسر على الدخول حتى يتبين شعور أخيه ، وان كان الجوع قد ارغمه على المجىء . وقالت له الأم :

ــ أدخل يا بنى .

فدخل الفتى وهو ينظر الى اخيه . لـكن هذا لم يحفل به ولم يلتفت اليه بعد أن تلاشى غضبه ، وأحست الأم بالرضـــاء وطابت نفسها ورأت انها أحسنت فى اتخاذ قرارها ، وشرعت فى تحقيق هذا الوعد الى النهاية .

ذهبت الأم الى بيت العم وزوجته كعادتها فى كل معضلة . وقـد دفعها الى الذهاب كذلك أنها لم تكن تعرف فتاة لتزويجها من ابنها . ولم يكن بوسعها أن تختار احدى بنات القرية اذ كان أهلها جميعا من ذوى القربى وهم يلقبون بلقب مشترك . كما أنها لم تكن تعرف فتاة من أهل البلدة لاقتصار معاملاتها على بضعة حوانيت صـغيرة كانت تشترى منها ما تقدمه للبيع .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن فى المساء ، ودار الحديث فى هـذا الشأن بينما كانت زوجة العم ترضع وليدها الأخير . وأعربت الأم اخيرا عن عرضها من الزيارة وقالت :

ــ فهل تعرفين يا اختى فتاة فى تلك القرية التى كنت بها قبل زواجك ؟ انى اريد فتاة مثلك تماما . سمحة الخلق ، سريعة الحمل ، قادرة على العمل . ولم يزل فى امكانى أن أدبر شئون البيت أعواما اخرى كثيرة ، واذا لم تكن ماهرة فى هـذه الشئون ففى وسعى أن احتمل هذا .

فلما سمعت زوجة العم هذا الـكلام ضحكت عاليـا وهتفت وهى تنظر الى زوجها :

ــ لا أعلم اذا كان ابنك يا أختى يعد زوجة مثلى نعمة أو نقمة ؟ .

وضحكت الزوجة ثانية وقالت :

ــ فى وسعى يا أختى ان اذهب الى هناك وابحث ففى تلك القرية زهاء المائتين من العائلات ، ولا ريب أن فى احداها فتـاة صالحة للزواج .

وهكذا جعلت المرأتان تتحدثان في هذا الشأن وقررت الأم بجلاء انها لاتحتمل تكاليف كثيرة واستطردت قائلة :

ــ أنا اعلم تماما انى لا اطمع في فتاة كاملة من كافة النواحي . لانى فقيرة وابنى لا يملك سوى رقعة صغيرة من الأرض ونحن مضطرون لاستئجار اكثر مما نملك .

وفي اليوم التالي لبست زوجة العم ثيابا نظيفة وحملت طفلهـــا الرضيع واصطحبت معها اثنين من ابنائها الصغار لكى يراهما أهلها واثنين أكبر منهما لمساعدتها في العناية بالصغيرين . واستأجرت عربة من ذات العجلة الواحدة واللذراعين لحمل الأولاد جميعا وامتطت هي حمار زوجها الأشهب الذي استغنى عنه في الوقت الحالي بعد انتهاء موسم الحصاد . وذهب الجميع على هذه الحال وغابوا اياما . ولما عادوا أخيرا كانت جعبة الزوجة حافلة بأخبار الفتيات اللاتي رأتهن ، وقالت الأم التي سارعت للوقوف على أبنائها عقب علمها بعودتها :

ــ انى رأيت الفتيـــات كثيرات في القـــــرية فنحن لا نقتلهن هناك كما يفعل الناس في بعض البلدان عنـــد مولد البنات . ونحن نتركهن يكبرن مهما كان عددهن عند الأم الواحدة ، ولذلك كانت القرية مكتظة بهن .

وقد رأيت بعيني يا أختى اثنتى عشرة فتاة أعرفهن . وهن جميعا مكتملات النمو ذوات لحم موفور ولون طبيعي . وكل واحـدة منهن تليق لواحد من أبنائي . لكنى كنت أعلم أن المطلوب واحدة فقط ، فضيقت عيني وجعلت أنظر الى هذه والى تلك حتى وقع اختيارى على ثلاث . وأخذت استعرض هؤلاء الثـــلاث فرأيت احداهن تسعل والثانية تشكو ألما في عينيها ، وأما الثـــالثة فكانت أوفرهن كمالا . وهي فتاة بارعة حريصة في أقوالها وافعالها وقد قيل انها اسرع خياطة في البلدة . وهي تصنع ملابسـها وملابس أهلها كمـــا تصنع ملابس غيرهم وتجنى من ذلك بعض النقود . وهي اكبر قليلا من ابنك لأنها كانت مخطوبة من قبل وقد مات خطيبها قبل أوانه والا لكانت الآن في عـداد المتزوجات لكن هذا ليس مما يؤخذ عليها ، فان والدها متلهف لتزويجها على وجه من الوجوه ولن يطلب فيها مالا كثيرا . وربما لم تكن وافرة الملاحة كغيرها . وهي في الواقع شاحبة اللون الى حد بسبب انهماكها في الخياطة . لكنها سليمة العينين .

فقالت الأم بسرعة :

ـ عندنا في البيت من العيون المريضة ما يكفي . كما أن نظرى لم يعد كما كان فى المـاضي . ونحن فى حاجة الى فتـــاة تخيط وتحب الخياطة. واذا كانت لا تكبر ابنى بأكثر من خمسة اعوام ففيها الكفاية.
وهكذا تم الاتفاق على هذه الفتـــاة . وذهبت الأم الى عراف فى البلدة فجعلت تضاهي عنده ايام الشهر الذى ولد فيه العروسان ، وموقع السنة وساعة المولد . فاذا هى جميعـــا تحمل طابع القبول والتوفيق . فاما الشاب فقد ولد تحت برج الحصان . وأما الفتـــاة فتحت برج القط ، وكلاهما لا يلتهم صاحبه . ولذلك تنبأ العراف بالوفاق فى الزواج استنادا الى هذه البيانات .
ولمـا تبين ان كل شيء يجرى مجـــراه الطبيعى ثم تبادل الهدايا المألوفة فى مثل هذا المقام .
وذهبت الأم الى كنزها المخبوء فأخرجت منه بعض العملة الفضية والنحاسية واشترت اقمشة قطنية جيدة لصنع ثوبين للعروس . وقد ارادت أن تقوم بصنع الثوبين امراة سعيدة الطالع موفقة فى زوجها وابنائها كما جرت العادة . ومن فى القرية أكثر توفيقا فى هذا الشأن غير زوجة العم ؟ ولذلك حملت الأم القماش اليها قائلة :
ـ ضعى يدك فى هذا القمـــاش يا أختى حتى يمتد حظك الى زوجة ابنى .
فقامت زوجة العم بما طلب منها . وجعلت كلا الثوبين رحبـــا فضفاضا حول البطن حتى اذا حملت الفتاة لبستهما فى يسر وسهولة ولم تطرحهما جانبا .
وانفقت الأم نقودا اخرى واستأجرت مقعد الزفاف الأحمر ، والتاج والقرط المصنوعين من اللآلىء الزائفة والسراويل الحمراء التى يتحتم على العروس ارتداؤها فى هذه الجهات . ثم حدد يوم الزفاف ، ومضت الأيام تباعا . وأخيرا حل هذا اليوم المنشود ، وكان يوما باردا من ايام الشتاء .
بدا هذا اليوم غريبا فى نظر الأم التى كان عليها أن تستقبل فى بيتها امراة شابة جديدة وقد ظلت فيه عهـدا طويلا صاحبة المقـام الأول والحظوة التامة .
وحين وقفت لدى الباب تنتظر العروس وهى مرتدية أفخر ثيابها ، ورأت مقعد الزفاف الأحمر يضم بين جنبيه العروس الشابة ، بدا لها انه لم يكد يمضي سوى عهد قصير منذ أن جاءت هىنفسها فى هذا المقعد . وقد وقفت العجوز المتوفاة حيث هى اليوم واقفة . ووقف

زوجها حيث يحتل ابنهـــا الآن مكانه . ولم تكن الأم تستعرض فى خيالها ايام زوجها الماضية الا لماما . والحق انه كان يبدو لها فى عداد الموتى . لكن اعجب العجب ان قد ساورها الآن حنين الى هذا الرجل حيث وقف مكانها. وما كان هذا الحنين يمت الى الجسد بأوهى صلة. فقد مات مثل هذا الحنين وتلاشى منذ عهد طويل . ولكن كان حنينا من لون آخر ـ لاكمال ما تحسه من نقص فى شيخوختها ، بعد ان شعرت بالوحدة والانفراد .

ونظرت الى ابنها نظرة لا عهد لها بها ، فاذا هو لم يعد ابنا لهـا وحدها بل كان زوجا لامراة اخرى ، وقد وقف مكانه شديد السكون منكس الراس متصلب الاعضاء فى هذا الرداء الأسود الجديد الذى صنعته له ، يلبس حذاء فى قدميه اللتين كانتا أبدا عاريتين .

وقد بدا لهـا بعيدا عن الانفعال او خيل اليها انه يبدو كذلك ، حتى رأت يديه ترتجفـــان فى كم ردائه الأسود . فتنهدت ثانية . وتذكرت زوجها للمرة الثانية وذكرت كيف اطلت عليه من فرجة ستار مقعدها فوثب قلبها فرحا حينما رأته وسيم المحيا تستريح العين اينما نظرت اليه .اجل . كان زوجها أكثر وسامة وصباحة مما يبدو الآن ابنها الاكبر ، وبدا لها الآن انه كان اجمل رجل رأته فى حياتها .

على أن طليعة موكب الزفاف أهلت قبل أن تمضى الأم فى تأملاتها المحزنة الى ابعد من هذا الحد . فجاءت أولا فاكهة الزفاف يتبعهـا الديك الذى كانت الأم ارسلته الى بيت العروس فردوه مع دجاجة قرنوها اليه كما تقضى بذلك التقـاليد . ثم أقبل المقعد بعد هـذه الأشياء اليسيرة واستقر أمام الباب . وتقدمت زوجة العم والأرملة الثرثارة وغيرهما من نساء القــرية المكتهلات واخذن بيد العروس محاولات اخراجها من المقعد . فتمنعت وتأبت اول الأمر . ثم خرجت أخيرا ولكن فى نفور شديد . وقد غضت بصرها ولم تتطلع بعينيها مرة واحدة . وعند ذلك انسحبت الأم الى دار العم عملا بالعادة المتبعة التى تحظر على زوجة الابن أن ترى حماتها فى يسر وسهولة والا استخفت بأمرها فيما بعد ولم ترهب جانبها . وأمضت الأم نهارها كاملا فى بيت العم .

على ان الأم وقفت قرب الباب تنصت الى ما يقـولـه الناس عن الزوجة الجديدة . فسمعت احدى النساء تقول : « هى فتاة طيبة مستقيمة » . وقالت اخرى : « يقال انها تجيد الخياطة ، واذا صح انها صنعت الحذاء الذى تلبسه فان لها أصابع ثمينة » .

وذهبت نساء الى العروس فأخذن يتحسسن ثوب الزفاف الاحمر ورفعن الرداء الخارجي لفحص ما تحته من الملابس الداخلية ، فالفينها جميعا متقنة الصنع ووجدن الأزرار صلبة مصنوعة بدقة من قماش مجدول . وأسرعن الى الأم فنقلن اليها ما رأين وقلن لها :

ــ هى فتاة طيبة قديرة ومظهرها يدل على تمام الاستقامة .

لكن بعض الرجال تناول العروس بالنقد الجاف وقال قائل منهم :

ــ هى شديدة النحول والشحوب لا أسيفها اذا كانت لى .

فرد عليه آخر قائلا :

ــ نعم . لكن هذا النحول يعالج فى ظرف شهور قلائل يا أخى . وليس كالرجل فى قدرته على نفخ الفتاة .

وبينما كانت هذه الأحاديث الطروبة المكشوفة تدور ، تقدمت العروس مترددة متثاقلة الى بيتها الجديد . وهكذا تمت مراسم الزفاف .

ثم اضطرت الأم لاخلاء الفراش الذى نامت فوقه اعواما طويلة . وجاءت زوجة الابن ليلا لاعداد فراش الحماة كما تقضى بذلك التقاليد فبسطت خلف الستائر تلك المرتبة التى كانت العجوز المتوفاة تنام فوقها من قبل ، وكان ينام فوقها بعد ذلك الابن الأكبر . ووضعت مرتبة اخرى بجانب هذه لنوم الفتاة العمياء . وترك للابن الأصغر ان ينام فى المطبخ اذا عن له أن ينام فى البيت اطلاقا . أما الفراش الأصلى فقد جعل الآن لنوم الابن الأكبر مع زوجته الجديدة .

ولم يكن يسيرا على نفس الأم أن تتخلى للزوجين الحديثين عن المكان الذى كان لها ولزوجها من قبل . وقد جعلها هذا التطور تبدو هرمة فى عينى نفسها كلما آوت الى فراش العجوز المائتة . وكانت فى النهار تتشاغل وتصدر الأوامر وتصلح هذا وتعدل ذاك ، فتبدو فى حالتها العادية . أما فى الليل فكانت عجوزا فانية . وطالما كانت تستيقظ ليلا فتنكر نفسها ولا تكاد تصدق انها هى التى ترقد فوق المرتبة وان الزوجين يحتلان الفراش الكبير حقا . وكانت تناجى نفسها وقد استحوذ عليها الذهول بهذه الكلمات :

ــ احسب ان تلك العجوزالتى كانت اما حينما جئت الى هذا البيت قد احست احساسى وساورها شعورى الحالى عندما اقتحمت بيتها عروسا ونحيتها عن فراشها واحتللته بدورى مع ابنها . والآن ها هى ذى أخرى ترقد فى الفراش مع ابنى .

عجبت الأم اشد العجب من هذه العجلة الخفية التى تدور الى

ما لا نهاية . هذه السلسلة المتصلة الحلقات التى لا يدرك آخرها .
حتى لقد بهرها التفكير فى هذا الشأن. وأذهل حواسها ، مذ كانت لا تتكلف التفكير فيما يعرض امام عينيها ، وانما تتقبل كل ما تراه بالتسليم والامتثال . لـكنها تضاءلت فى عينى نفسها منذ هذا اليوم .
ومع انهـــا كانت بالاسم كبرى نســاء البيت واولاهن واجـدرهن بالسيادة والتصدر فانها لم تبد كذلك فى عينيها .
ثم جعلت الأم تراقب زوجة ابنها . فالفتها مجدة غيورة على اداء واجباتها ، وكانت تقوم بواجب التحية لحماتها فتنحنى أمامها كل يوم حتى تبرمت الأم وامرتها أن تكف عن هذه التحية ، لكن الأم لم تستطع ان تهتدى الى نقيصه فى خلق الفتاة أو فى تصرفاتها . ومن ثم كان هذا الـكمال نقيصه فى ذاته . وغمغمت الأم قائلة :
ـ حسنا . . لا شك أن بها عيبا خفيا لا يبدو لى فورا .
فان زوجة الابن لم تكشف عن دخيلتهـا مرة واحدة . اذ كانت موفورة النشاط سريعة فى اتمام واجباتهـــا . واذا اتمت كل شىء جلست تخيط شيئاً لزوجها . لكنها كانت تؤدى اعمالها بطريقتهـا الخاصة الدالة على الحرص والتدقيق .
والواقع انه ليس فى الدنيا امراتان يمكن أن تقـــوما بعمل واحد بطريقة متشابهة . وقد غابت هذه الحقيقة عن ذهن الأم وكانت ترى أن جميع النسـاء يفعلن الشىء كما تفعله . لكن هذه الزوجة كانت تمتاز بطابعها الخاص فى القيام بكافة الأعمال . وكانت اذا تولت طهى الأرز جعلت فيه ماء كثـــيرا ، او هكذا كان يخيل للأم فيجىء الأرز اكثر رخاوة مما ألفت الأم أو مما تحب أن يكون . وقد نفضت هذا الراى لزوجة الابن ، لكن هذه اطبقت شفتيها الشاحبتين وقالت لها :
ـ لكنى اصنعه دائما هكذا .
ولم تشأ أن تغير هذه الطريقة .
وسرت هذه القاعدة الى كافة الشئون المنزلية الأخرى . فقد جعلت زوجة الابن تتناول هذا الشىء وذاك بالتغيير والتبديل وفاقا لذوقها ، ولم تلجأ فى هذا الى العجلة والتسرع والنزق ، بل كانت دائمـــا فى اعمالها مثال التأنى والحرص والأخذ بقاعدة التدرج . وبهذا لم تهيىء للأم سبيلا للغضب والتحرش .
ثم كانت هناك مسألة أخرى . فان الزوجة الشابة نفرت من رائحة الدواب فى الليل وشكت من ذلك لا الى الحماة ولكن لزوجها . فعمد الرجل فى نفس هذا الشتاء الى بناء غرفة اخرى ملحقة بالبيت لنقل

الفراش اليها حتى ينام وزوجته وحدهما . وكانت الأم تنظر الى هذه التطورات الجديدة بعين الدهشة والعجب .

وقد قررت الأم لفتاتها العمياء أول الأمر انها لن تغضب من زوجة ابنها . والواقع انه لم يكن يتيسر لها أن تبدى هذا الغضب بسرعة فان الزوجة الشابة كانت تتقن اعمالها وتؤديها بحرص وتدقيق وكان يتعذر على الأم ان تقول لها انك اخطأت فى هذا أو لم تتقنى ذاك . لكن من الأمور ما كانت الأم تمقته اشد المقت كطهى الأرز رخوا طريا ، وجعلت تكرر الشكوى من هذا الأمر ولم تتمـــالك أخيرا ان رددت شكواها عاليا فى هذا الشأن اذ قالت :

ـ انا لا اشعر بالشبع والتغـــذية بمثل هذا الأرز . لا يوجد ما امضغه بأسنانى من هذه المادة المائية . وهى تقر ببطنى كالريح ولا تستقر بها كما يستقر الطعام الثابت الجيد .

ولما رأت أن زوجة ابنها لم تعر هذه الشكوى التفاتا ذهبت خلسة ذات يوم الى ابنها فى الحقل وقالت له :

ـ يا بنى . لم لا تأمرها أن تطهو الأرز جافا يابسا ؟ انى كنت اعرف انك تحبه هكذا .

فكف الابن عن العمل واستند الى فأسه قليـلا ثم قال بلهجتـه الهادئة :

ـ انى أحبه كما تصنعه وتجيد صنعه .

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى تحرك الغضب فى صدرها وقالت :

ـ أنت لم تكن تحبه هكذا . ومعنى هذا انك تنضم اليها ضدى . من العار أن تحبها هذا الحب وتقاوم أمك .

فتورد وجه الشاب توردا شديدا وقال ببساطة :

ـ نعم انى أحبها كثيرا .

واستأنف العمل بمحراثه .

ومنذ هذا اليوم أدركت الأم انهما صارا سادة البيت . ولم تختلف طباع الشاب عن رقتها المألوفة وكان يجيد القيام بالعمل ويستحوذ على النقود فى يده . وصحيح انه لم ينفق هذه النقود ولم تمسسها زوجته ، فقد كان كلاهما من المستمسكين بأسباب الاقتصاد . لكنهما كانا رجلا وزوجته والبيت بيتهما والأرض أرضهما ، ولم تعد الأم فى نظرهما سوى امرأة عجوز .

وصحيح كذلك أن الأم اذا تكلمت فى مسائل التربة او البذور أو

شئون العمل الزراعى الذى كانت تعرفه تماما مذ كانت مستقلة به وحدها ـ كان الزوجان يتركانها تتكلم ، حتى اذا فرغت من الكلام كانت كان لم تتكلم ، وراحا يقومان بمشروعاتهما الخاصة ويؤديان كل شيء على الوجه الذى يحلو لهما . وبدا للأم انها لم تعد شيئا مذكورا وان خبرتها لم تعد ذات قيمة فى البيت الذى كان بيتها .

كان هذا اشد من ان يستطيع انســـان احتماله . ولما تم تشييد الغرفة الجديدة وانتقل اليهـــا الزوجان غمغمت الأم قائلة لفتاتها العمياء التى كانت ترقد بجوارها :

ـ انا لم أر فى حياتى مثل هذه المغالاة فى الرقة . وكان رائحة الدواب الطيبة هى سم مميت . احلف انهما جعلا هذه الغرفة ليتيسر لهما البعد عنا وتدبير خططهما دون ان نسمعهما . انهما لا يفضيان الى بشيء بتاتا . ليست المسألة مسألة دواب . ولكن الحقيقة ان اخاك يحبها حبا مخجلا . نعم هما لا يهتمان بك ولا بأخيك الصغير ، بل لا يهتمان بى أيضا .

ولما لم تجب الفتاة قالت لها الأم :

ـ الا ترين هذا مثلى يا ابنتى ؟ . السـت على حق ؟ .

فترددت الفتـــاة قليلا ثم صدر صـــوتها من خلال الظـلام بهذه الجملة :

ـ يا أمى عندى كلام اريد ان أقوله لك ، ولكنى لا أود ان أقول لـكيلا احزنك .

فهتفت الأم :

ـ تكلمى يا بنت . انى تعودت الحزن .

فقالت الفتاة فى صوت خافت :

ـ ماذا تنوين أن تفعلى بى يا أمى وانا فتاة عمياء ؟ .

كانت الأم ترى ان من الممكن ان تقيم هذه الفتاة معها فى هــذا البيت مدة أخرى . وقالت فى دهشة :

ـ ما هو قصدك يا ابنتى ؟ .

فأجابت الفتاة :

ـ أنا لا أقصد ان أقول ان زوجة اخى ليست طيبة . فهى ليست قاسية . لكنى اظن أنها لا تحلم بأنك لن تزوجينى قريبا . وقد سمعتها تسأل اخى الأصغر عن امكان خطوبتى . ولما قرر لها أنى لست مخطوبة قالت له بدهشة : « فتاة كبيرة لا حماة لها ! » .

فقالت الأم :

ـ لـكنك عمياء يا ابنتي . وليس من السهولة تزويج فتاة عمياء .

فقالت الفتاة برقة :

ـ اعرف هذا .

ثم استطردت بعد قليل في انفعال :

ـ لكنك تعرفين يا أمي ان في قدرتي أن أقوم بأعمال كثيرة . وقد يوجد رجل بائس ، كأرمل مسكين او سواه ، يرضى بما أستطيع أن أؤديه دون أن يدفع لي مهرا . فاذا تيسر هذا كنت في بيتي وتسنى لي اذا ذهبت انت أن أجد من اهتم به . انا لا اظن ان أختي تريدني يا أمي .

لكن الأم اجابت في لهجة عنيفة :

ـ لن ادعك تذهبين لتعمير بيت رجل على هذا الوجه يا طفلة . نحن فقراء كما اعرف . لكن في وسعنا أن نطعمك . ان أرامل الرجال يا ابنتي هم أقسى واغلظ الأزواج . فلتنامي اذن ولا تفكري في هذا بعد . أنا لا أزال موفورة القوة ويمكن ان أعيش مدة طويلة . ولم يكن أخوك قاسيا نحوك أبدا ، حتى وانت طفلة .

فقالت الفتاة وهي تتنهد :

ـ هو لم يكن متزوجا في ذلك العهد .

ولزمت الفتاة الصمت بعد هذا كأنما استسلمت للنوم .

لكن الأم لم تجد سبيلا للنوم رغم انها كانت في الليـــالي السالفة تستغرق في النوم . وتمددت في مكانها تقدح ذاكرتهـــا وتستعرض الايام الماضية يوما يوما لعلها تجد سندا من الحقيقة والواقع يؤيد ما قالت الفتاة . ومع انها لم تستطع أن تهتدى الى شيء معين فقد بدا لها ان زوجة الابن ليست بارة ولا رفيقة . أجل انها لم تكن بارة كما يجب نحو الابن الأصغر ، وهي أقل برا بالفتاة العمياء . وهكذا توفرت للأم مادة جديدة للألم والعذاب .

الفصل الثاني عشر

كان غضب الأم شديدا عندما وجدت ابنها الأكبر يستحثها على تزويج أخته العمياء لانه لا يستطيع اطعامها طول حياته . وقد اتهمته بأن هذه الفكرة هي من تحريض زوجته ورفضت بعناد واصرار . ثم تجرات زوجة الابن واصبحت تشـــكو علنا وتعرض بالابن الأصغر

الكسول العاطل والفتاة العمياء التى لم تتزوج. وكان الجيران يتدخلون ويقولون ان هناك عائلات فقيرة لها ابن لا امل له فى الزواج ويمكن أن تقبل فتاة عمياء فقيرة زوجة له اذا أخذت العروس بلا مقابل . وبتأثير الحاح الجيران رضخت الأم وانتهى طول البحث الى تزويج الفتاة من ابن لعائلة فقيرة بين التلال الشمالية فى ارض قاحلة ، فقد بدا للأم اخيرا انها قد لا تعيش طويلا ولابد لها من الاطمئنان على مصير فتاتها العمياء ، كما ان مرض الأم عجل بتنفيذ هذه الخطوة التى زكاها الجميع . وعندما حل يوم رحيل الفتاة الى بيت الزوجية النائى بين التلال ، جاء رجل عجوز فوق حمار اعجف لمصاحبة الفتاة الى مقر ابن أخيه العريس بين التلال تنفيذا لما تم الاتفاق عليه بين الوسطاء . وقد توجست الأم شرا من هيأة العجوز وكادت تمانع لولا الحاح الابن الأكبر وزوجته والجيران . وهكذا غلبت الأم على أمرها وركبت فتاتها الحمار الأعجف مرتدية ما صنع لها من ملابس جديدة وودعتها الأم وهى تشدد من عزمها وتعدها بزيارة قريبة فى مقرها الجديد ، وعندما توارت الفتاة خلف التلال استسلمت الأم للدموع والأحزان .

***

لم يكن للأم الا أن تتشاغل على وجه من الوجوه تسكينا لمخاوفها وسدا للفراغ الذى خلفه ذهاب الفتاة العمياء . وقد بدا لها البيت ساكنا والشارع مقفرا حيث لم تعد تسمع رنين الناقوس الصغير الذى كانت الفتاة تدقه كلما خرجت من البيت . فلم تقو الأم على الصبر والاحتمال وذهبت الى الحقول للعمل فيها على غير رغبة ابنها ، ولما رآها تمسك الفأس قال لها :

ــ لا حاجة بك الى العمل يا أمى . يخجلنى ان اراك تعملين فى الحقول ويراك الناس هكذا وانت فى سن الشيخوخة .

لكنها قالت له غاضبة :

ــ لست عجوزا كما تتصور . دعنى أشتغل حتى أروح عن نفسى . الا ترى كيف يجب أن أروح عن نفسى ؟ .

فأجاب الشاب فى عناده المألوف :

ــ يبدو لى انك تحزنين بلا موجب للحزن يا أمى . ولا حاجة بك الى توقع مكروه قد لا يحدث ابدا .

لكن الأم قالت فى حزن لازمها هذه الايام ملازمة الظل :

ــ انت لا تفهم . انت صغير . لا تفهم شيئا بتاتا .

فتطلع الشاب الى امه فى ذهول دون ان يدرك مغزى كلامها . لكنها لم تنبس بكلمة اخرى . بل حملت فاسا وخرجت الى الحقول فى صمت وسكون .

على أنها لم تعد تقوى على العمل الشاق بعد . فقد كان العرق يغمرها اذا فعلت . واذا هبت الريح ولو ساخنة بعثت قشعريرة فى جسدها . وسرعان ما تجدد الداء وعاودها مرض القيء القديم .

فلم يكن بد اذن من أن تحتمل هذا الخمول ، ولم تسع الى العمل فى الحقول بعد شفائها . بل كانت تجلس فى مدخل الدار فى كسل واستسلام . ولم تكن بحاجة الى القيام بأى عمل فى داخل البيت اذ كانت زوجة الابن لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا قامت بها على خير الوجوه .

وقد رات الأم ان لا عيب فى هذه الزوجة سـوى انها لا تحمل ولا تلد . وكانت الأم وهى جالسة فى مكانها بلا عمل تدير عينيها قلقة فى أرجاء الحوش حيث ألفت من قبل أن تنظر أطفالها الصغار يتعثرون فى لعبهم . وكانت طوال يومها تستعرض الأيام الذاهبة . وتذكرت كيف جلست مرة فى هذا المـكان تفيض صحة وشبابا وقد وقف زوجها عن كثب وراح أطفالها يرتعون ويمرحون وهى الزوجة الشابة وغيرها الأم العجوز . ثم ذهب زوجها ولم تسمع عنه شيئا . فحزنت فى نفسها هذه الذكرى وأعرضت عنها . وعاد بها الفكر الى الواقع فبدت الدنيا فى عينيها خواء أو كالخواء . فقد كان ابنهـا الأكبر يقضى يومه فى الحقول أو يتفقد المحصول مع وكيل المـالك ، وهو رجل عجوز مهدم قيل لهم انه يمت بصلة القرابة الى المـالك ولم يقع نظرها عليه مرة واحدة . وقد ذهبت ابنتها العمياء . وكان ابنها الأصغر يختلف كثيرا الى البلدة ولا يعود الى البيت الا لماما .

ومهما يكن من شيء فقد بقى لها هذا الابن الأصغر . وكانت تفكر فيه كثيرا وتؤثره على سائر أولادها بمزيد الحب والاعزاز . وكان يبدد وحشتها كلما جاء بين حين وآخر ويخلق فى سماء حياتها جوا من البهجة والانتعاش . واذا رأته نهضت من عزلتها باسمة وراحت تملأ العين من محاسنه وتجتلى طلعته البهية . فهو أجمل أولادها وأقربهم شبها لأبيه . وكان يجيء فى هذه الأيام مطمئنا آمنا لا يخاف أخاه كما يخافه من قبل ، اذ كان يقوم بعمل فى البلدة يستمد منه بعض الكسب .

على انه لم يقل مرة ما هو هذا العمل ولم يشر اليه بشيء من

التجديد ، ولم يعرف عن هذا العمل الا أنه كان يهيىء له مالا كثيرا احيانا واحيانا اخرى كانت جيوبه تنضب منه ، وان لم يظهر هذا المال مرة لأمه ولكنه كان يبدو فى الملابس الطيبة التى يرتديها ، على انه كانت تهزه الأريحية أحيانا فيدس فى يد امه خلسة قطعة من النقود ويقول لها :

ـ خذى هذه يا أمى وانفقيها على نفسك .

فكانت الأم تتقبلها منه وتثنى عليه وتبدى له حبها اذ كان الابن الأكبر لا يقدم لها مالا على الاطلاق ، ومنذ آلت اليه السيادة فى البيت استبقى النقود كلها فى يده ولم يتخل عن شيء منها . وقد كانت فى الحق تنال كفايتها من الطعام وهو لذتها الوحيدة الباقية ، وكانت تتمتع بالملبس الطيب والخدمة الصادقة ، بل كان كفنها قد هيىء لها وان لم تفكر بعد فى الموت وكانت ترى انهـا تستطيع أن تعيش طويلا ، وكانت تنال كل ما تطلبه وتشتهيه. فمن قصبة لتدخين وقدر من الطباق الجيد ، الى قدح من النبيذ الأصفر الذى يقدم لها ساخنا ، لكن ابنها وزوجته لم يخطر لهما يوما أن يدسا فى يدها قطعة من النقود ويقولا لها : « خذى هذه لانفاقها فى أى شيء تحبين». وكانت تعلم انها اذا طلبت مثل هذه القطعة لتبادل الزوجان النظر وقال احدهما :

ـ لكن اى شيء تشترين بها ؟ ألسنا نقدم لك كل شيء .

فلما أعطاها الابن الأصغر قطعة النقود سرت بها أكثر من سرورها بكل ما فعله الزوجان نحوها ، وابقتها فى صدرها حتى جاء الليل فنهضت الى الحفرة واخفتها فى بطنها .

لـكن هذا الابن الأصغر لم يكن بحيث تراه دائما . وكانت الأم وزوجة ابنها تجلسان وحدهمـا فى الحوش فيبدو للأولى ان كل ما حولها خواء ووحشة وفراغ . وكانت تجلس مكانها ترسل الزفرات وتدخن القصبة وتفكر فى حياتها الماضية او فى بعض نواحيها على وجه التحديد . فقد كان يشوبها ذلك الحـادث الذى لا تستطيب التفكير فيه . واذا فكرت فيه أعاد الى ذهنها شأن فتاتها العمياء ولم تستطع أن تجزم بأن الحادث ومصاب الفتاة غير مقترنين فى تقدير الآلهة وحسابها . وكان يعن لها أحيانا أن تقصد الى احد المعـابد التماسا لبعض السلوى والعزاء وان كانت لا تدرى كنههما . لكن الخطيئة الماضية كانت تقف ابدا سدا أمامها ، وكان يبدو لها أن أوان الصفح والغفران قد انقضى وفات ، فتدع الامور تجرى فى

مجراها وتتنهد وتتحدث احيانا عن ابنتها العمياء فى حزن وكآبة :
ولما تكلمت يوما فى هذا الشأن قالت زوجة الابن بحدة :
ــ هى بخير ولا شك . ومن حسن الحظ انكم وجدتم من يقبلها زوجة لولده .
فقالت الأم بحرارة :
ــ ان ابنتى فتــاة ماهرة . وأنا اعرف انك لا تؤمنين بقدرتهــا ومهارتها . لـكنها كانت تقوم بأعمال كثيرة قبل مجيئك ، فلما جئت ولم تتركى لها أن تعمل شيئا فاتك أن تعرفى مبلغ مهارتها .
فقالت زوجة الابن وهى تدنى القماش الذى تخيطه من عينيها لـكى تحكم خياطته :
ــ نعم . ربما كان هذا . لكنى تعودت مواصلة العمل الذى أقوم به حتى اتمه . اما الفتــاة العمياء فانها لا تقــدر على القيام بعمل جــدى .
فتنهدت الأم ثانية وادارت نظرها فى الحوش الخاوى وقالت :
ــ ليتك كنت تحملين طفلا يا ابنتى . لابد لكل بيت من طفل أو طفلين أو ثلاثة . وانا لم أتعود بقاء البيت خاويا هكذا . ويا ليت ولدى كان يتزوج اذا كتب عليك الا تعقبى أولادا . لكن لن يفعل هــذا لسبب ما .
كان هذا العامل مصدر حزن الشابة . فقد مضى على زواجهــا خمس سنوات دون أن تحمل أو تظهر عليها دلائل الحمــل . وقد ذهبت الى أحد المعابد للصــلاة والدعاء وفعلت كل ما تستطيع وتعرف . غير انها بقيت عاقرا ولم تظهر لها بارقة أمل . غير انهــا كانت شديدة الكبرياء لا ترضى أن تكشف عن مبلغ حزنها فى هذا الشأن . وقد اجابت الأم فى هدوء :
ــ سيكون لى أولاد فى الوقت المناسب ولا شك .
فقالت الأم فى نزق :
ــ نعم . لكن هذا هو الأوان . انا لم اسمع بامرأة متزوجة فى قريتنا لا أولاد لها . ان رجالنا يغدون آباء حالما يتزوجون ، ونساءنا دائما ذوات خصب . بذرة صالحة . وتربة صالحة . لابد من وجود مرض خفى فى جسمك يتولد عنه هذا العقم الغريب . انى صنعت لك ملابسك رحبة فضفاضة . لكن ما الفائدة ؟ .
وراحت الأم تشكو لزوجة العم وتقول لها همسا :
ــ أنا أعرف تماما مصدر الخلل . ان زوجة ابنى مجــردة من

الحرارة . هى مخلوقة شاحبة صفراء . وهى لا تختلف فى يوم عن يوم ولا يعلوها ابدا ذلك التوقد الذى يصدر من داخل الجسم .

فأومات زوجة العم برأسها ايجابا وضحكت وقالت :

ــ صحيح ان امثال هؤلاء النساء الصفراوات الباردات لا يحملن بسرعة .

ثم ضحكت ضحكة اخرى ذات مغزى واستطردت :

ــ لكن ليست كل امراة مملوءة حرارة يا اختى كمــــا كنت فى شبابك . وانت تعرفين تماما ان هذا غير محمود دائما فى المراة .

فلما سمعت الأم هذا التعريض قالت بسرعة :

ــ آه . نعم . أعرف هذا .

ولزمت الصمت بعض الوقت . ثم قالت مكرهة :

ــ صحيح انها امراة حريصة شديدة النظافة . وهى تغتسل بين وقت وآخر وربما كان هذا هو سبب عقمها . فان الافراط فى الاغتسال غير محمود دائما .

لكنها لم تتكلم فى حرارة النساء بعد هذه المناسبة . فقد خافت ان تثير زوجــة العم موضــــوع الخطيئة التى ارتكبتها فى أعمــاق الماضى ، وان كانت زوجة العم من أطيب النساء ولم تشر مرة الى هذا الموضوع بشىء طوال تلك السنوات . ولولا هذان العاملان اللذان كانا مصدر حزنها وانقباضها ــ اى عمى الفتاة وعقم زوجة الابن ــ لنسيت الأم هذه الخطيئة نسيانا تاما بعد ان باعد الزمن بينها وبين عهود الجسد والشباب . أجل . كان يمكن أن تنسى هذه الخطيئة لولا اشفاقها من ان يكون الحزن المقترن بهذين العاملين هو عقاب الخطيئة وجزاؤها .

لكن هكذا قدر أن تكون حياتها . فابنتها عمياء وقد ذهبت عنها . وزوجة ابنها عاقر لا ولد لها .. وليس حولها سوى الدواب والكلب . وحتى هذه الحيوانات لم تجسر على اطعامها .

ولم يبق لها عزاء فى هذه الأيام سوى ان ولديها كفا عن الاختصام والشجار . فقد قنع الابن الأكبر بما نال من ســـيادة فى البيت . واستقر الابن الأصغر خارج الدار فى مكان ما ــ وقصارى ما كان نفعله الشاب اذا جاء اخوة ثم عاد من حيث جاء ان يقول فى شىء من الازدراء .

ــ ترى من أين يستمد اخى هذه الملابس الطيبة التى يرتديها وما هو هذا العمل الذى يؤديه ؟ لا استطيع ارتداء ملابس كهــذه

الملابس وانا الذى أكد واقوم بأشق الأعمال . ويبدو انه يحصل على المال من أى طريق . وكل ما أرجو الا يكون مندمجا فى سلك عصابة من لصوص المدن أو فى شىء من هذا القبيل فيجلب لنا التعب اذا قبض عليه .

فلما سمعت الأم هذا الكلام هبت فى بسالة للدفاع عن ولدها الأصغر كدابها . وقالت :

ــ ان اخاك ابن شديد الطيبة . ويجدر بك ان تثنى عليه وتحمد ذهابه وتوفيقه الى عمل خاص يقوم به حتى لا يبقى هنا ويشاركك هذه الأرض .

فقال الشاب ساخرا :

ــ نعم .. هو يرضى أن يقوم بكل شىء.يبقيه بعيدا عن العمل فى الأرض .

أما زوجة الابن فلم تتدخل فى شىء من هذا الحوار . فقد طابت نفسا هذه الأيام اذ بقى البيت لها وحدها ولم يكن يعنيها ما يقوم به الابن الأصغر وما يفعله . وانقطعت شكواها الآن لأنه كان يبتاع ملابسه ويخيطها بعيداً فلا تضطر لصنعها له .

وهكذا كانت الأيام تمضي والزمن يدور . واقبل الربيع وانقضى وجاء الصيف ولم تستطع الأم أن تنسى فتاتها .

وجلست ذات يوم تحصى على أصابعها الأيام التى مضت منذ أن حالت التلال بينها وبين ابنتها . فأحصت بأصابع يديها حوالي اثنتى عشرة مرة ثم ضلت والتبس عليها العد . ولذا قالت فى كآبة :

ــ لابد من ذهابى اليها . انى استسلمت للضعف وكان يجب أن اذهب من قبل . ولو كانت فتاة صحيحة لجاءت الآن لأداء الزيارة التى تقوم بها الزوجات لبيوتهن القديمة ، ولسألتها عن حالها ولمست يديها وذراعيها ووجنتيها ورأيت لون وجهها .

وراحت الأم تسرح الطرف فى سفوح التلال المحيطة بها وقد اكتست بتقدم الصيف ثوبا سندسيا وأينعت النباتات فى الحقول وبسقت أعوادها . وراحت تتحامل على جسدها الذى دب اليه الاعياء رغم خمولها الدائم . وناجت نفسها قائلة :

ــ لابد من ذهابى فورا لرؤية ابنتى . فقد أصبحوا لا يحتاجون الى فى الحقول وهاأنذا أجلس خاملة بلا عمل . سأذهب قبل اشتداد الحرارة حتى لا يصيبنى المرض من جديد . نعم . سأذهب فى الغد اذ لا توجد سحابة واحدة فى هذه السماء الجميلة . هذه السماء الزرقاء .

ولما جاء ابنها الأكبر قالت له :
ـ انني أفكر فى الذهاب غدا لرؤية اختك ، ولمعرفة أحوالها فى البيت الذى تزوجت فيه ، لانها لا تستطيع ان تجيء الى .
فلما سمع الشاب هذا الكلام قال فى لهجة القلق :
ـ لا يمكننى أن اذهب معك يا أمى فى الوقت الحالى . لان عندنا عملا فى الغد . انتظرى حتى يتم الحصاد ويدرس الحب ويكالْ ، فيتيسر لى بعض الفراغ لمرافقتك .
لكن الأم لم تستطع أن تنتظر . فقد كانت ذات صلابة وقوة اذا اعتزمت امرا ، وكانت متبرمة من طول قعودها وخمولها . وقالت :
ـ لا سأذهب غدا .
فقال الابن دون أن يفارقه قلقه :
ـ لكن كيف تذهبين يا أمى ؟
فاجابت :
ـ سأركب حمار العم اذا أعارنى اياه . ولتكلف انت احد أولاده بالذهاب واستدعاء أخيك لكى يقود الحمار ويسير بجانبى . وسنكون فى أمان اذ لا يوجد لصوص فى هذه الأيام سوى هذا النوع الجديد من لصوص المدن الذى يسمونه « الشيوعيين » .
وقد رضى الابن آخر الأمر أن يتنزلْ على رايها ، وان لم يذعن لها بسهولة حتى تدخلت زوجته وقالت بهدوء :
ـ صحيح انى لا ارى خطرا ما اذا رافقها اخوك الاصغر .
وهكذا تركوا الأم تفعل ما يحلو لها . وذهب ابن العم الى البلدة وبحث عن الابن الأصغر حتى وجده وعاد الى الأم قائلا :
ـ ان ابن عمى وابنك الثانى سيجيئان يا عمتى .
وجعل الفتى يفكر قليلا وهو يدير زر ردائه ثم قال ثانية :
ـ احلف ان ابن عمى الأصغر يقيم فى مكان سرى غريب يصعب ايجاده . فهو يعيش فى غرفة مستطيلة مملوءة بالفرش . فيها نحو عشرين فراشا وهى كائنة فوق احد الحوانيت . وهى مكتظة بالكتب والأوراق . لكنى سـألته وعلمت منه انه لا يشتغل فى الحانوت . انا لم اكن اعلم يا عمتى ان ابن عمى يستطيع أن يقرأ . واذا كان يقرأ هذه الكتب فهو رجل عالم .
فقالت الأم فى دهشة :
ـ هو لا يعرف القراءة . وهو لم يخبرنى ابدا انه يكسب من الكتب . والحقيقة ان هذا شيء شديد الغرابة . ولابد ان أسأله

فى هذا الشان .

وفى اليوم التالى بعد ان ركبت الأم الحمار وسار بها يشق طريقه فى الوديان انتهزت فرصة انفرادها بولدها وسألته :

ـ ما هذه الكتب والاوراق التى قال ابن العم انها موجودة فى تلك الغرفة التى تقيمون فيها جميعا ؟ انت لم تخبرنى ابدا بأنك تعرف القراءة او انك تعيش من الكتب . انا لم ارك تقرأ كلمة واحدة يا ولدى .

فكف الابن عن اتمام الأغنية التى كان آخذا فى الترنم بها اذ كان رخيم الصوت يحب الغناء ، واجاب قائلا :

ـ نعم . انى تعلمت قليلا .

ولما ألحت عليه فى السؤال قال لها :

ـ لا تسالينى الآن يا أمى . فانك ستعرفين كل شىء فى يوم ما ، متى حانت الساعة .

قلقت الأم ولم تتمالك ان هتفت مشفقة :

ـ ارجو الا تكون مندمجا فى عصابة شريرة يا ولدى كلصوص او من شاكلهم . هذا أقرب الى كلام النهابين وقطاع الطرق يا ولدى .

لكن الفتى غضب من هذا الكلام وقال :

ـ انت لا تفهمين شيئا يا أمى . انى اقسمت أن الزم الكتمان . لكن سيأتى يوم تعرفين فيه كل شىء . نعم . لن انساك فى ذلك اليوم . لكن انت وحدك . ولن اقاسم احدا لم يقاسمنى .

وقد فاه الفتى بهذه الجملة الأخيرة فى صوت مرتفع حتى لقد فهمت الأم انه يعنى أخاه بها . ولذا لزمت الصمت لحظة خوفا من اثارة غضبه .

لكنها لم تستطع أن تتركه حيث يريد ، وقد جلست فوق ظهر الحمار وتشبثت بجلده ذى الشعر وجعلت تفكر فى أمر هذا الابن وتخالسه النظر .

راته يسير أمام الحمار ممسكا بزمامه ، وانشأ يغنى من جديد اغنية لم تسمع مثلها فى حياتها ، اغنية ملتهبة نارية لم تستطع ان تلم بكلماتها . ورات انه قد آن الاوان لكى يتصل هذا الفتى بالحياة ويندمج فيها . أجل . ويجب ان ترده الى حظيرة البيت والعائلة وتربطه اليهما برباط اشد وثاقا . وعليها أن تزوجه وان تضم زوجته الى البيت . فاذا فعلت كثر تردده على البيت . وربما أقام فيه اقامة دائمة لأجل زوجته . وفى وسعها أن تلتمس له فتاة حسناء

يمكنه ان يعشمها . لأن في وسع زوجة الابن الاكبر ان تقوم بسائر أعمال البيت فيتيسر للأم أن تفتش لابنها الأصغر عن زوجة من طراز آخر .

فلما استعرضت الأم هذه الخواطر طابت نفسها ولم تستطع أن تكتم ما يجيش في صدرها وقالت له :

ـ انت الآن يا ولدي تناهز الحادية والعشرين من عمرك . وقد فكرت في تزويجك قريبا . كيف تجد هذه الفكرة السارة ؟ .

كانت الأم تتوقع أن يبتسم الفتى ويلزم الصمت وهو بين الرضا والحياء . لكنه وقف مكانه واستدار نحوها وقال باصرار :

ـ كنت انتظر منك مثل هذا الكلام . فهو كل ما تفكر فيه الأمهات ويملأ أدمغتهن . ورفاقي يقولون ان هذا هو كل ما يردده آباؤهم . لكني لن اتزوج . واذا زوجتني رغم ارادتي ، فلن ترى وجهي ابدا .

ودار في مكانه وجعل يسير بسرعة أكبر فلم تجسر على مبادرته بالكلام . بل جلست في مكانها مذهولة مرتاعة من غضبه وسكوته عن الغناء .

غير انها لم تلبث ان نسيت هذا الموضوع بتأثير ما هي مقبلة عليه فقد أخذ الطريق يضيق شيئا فشيئا . وتلاشت سفوح التلال السندسية وأعقبتها سلسلة من الجبال الصخرية الجرداء الصاعدة في السماء . واختفت النباتات لانعدام المياه في هذه البقاع المقفرة المجردة من معالم الحياة . وكان الطريق يمتد متعرجا صاعدا لا نهاية له . وبعد الظهر بساعتين تقريبا أشرق فجأة على واد عميق مستدير بين الجبال قامت فيه قرية صغيرة مربعة يحف بها سور صخري وتنتشر فيها بعض حقول خضراء . على انه حينما وقفت الأم وابنها بباب القرية مستفسرين عن المكان الذي يقصدان اليه تقدم منهما رجل كان واقفا وأشار بيده عاليا وقال :

ـ هناك حيث تنتهي الخضرة عند حافة هذا المرتفع البعيد يوجد بيتان وهذه آخر حدود الأرض المزروعة . ولا يوجد بعدها غير الصخور والسماء .

وكانت الأم في هذه الأثناء تحدق في دهشة الى هذه الجبال الصخرية وما حولها من المناطق الزراعية اليسيرة . وقد قضت حياتها بين الوديان الخصبة التي تفيض بالخير والحياة . ولم تتمالك ان هتفت حين وقعت عيناها على هذا الجدب الموحش :

ـ انا لا أميل الى مظهر هذا المكان يا ولدي . وأخاف أن يكون

مكانا قاسيا لا يصلح لمعيشة اختك . فان كان ذلك فسأردها الى بيتنا اذن . نعم . اذا كانت تعاني شظف العيش هنا ففي وسعي ان أمشي وأن نركبها الحمار وليقولوا بعد ذلك ما يقولون . انهم لم يدفعوا مهرا لها . ولن نسألهم شيئا الا ان يعيدوها لنا .

لكن الفتى لم يقل شيئا . فقد كان منهوك القوى جوعا اذ أنهما لم يبتلعا الا طعام بارد يسير حملاه معهما . وكان متلهفا للوصول الى بيت اخته حيث قدرا أن يمضيا الليل بين جدرانه . وجعل يجذب عنان الحمار بشدة حتى ضاقت الأم وهمت ان تنتهره وتؤنبه .

وفجأة وصلا الى البيت المنشود .

وصلا الى بقعة بين الصخور فيها بيتان رأت الأم عند أحدهما ذلك العجوز المشئوم الذى جاء لأخذ فتاتها . فأدركت ان ابنتها تقيم هنا . ولما رآها الرجل يحدق فيها بعينيه وكأنه لا يصدق انها هي . وسرعان ما دخل البيت وخرج منه ثانية يتبعه رجل اسمر نحيل مخيف الشكل وامرأتان وشاب متكاسل . لكنها لم تر ابنتها .

ترجلت الأم عن الدابة وذهبت اليهم وهم يحدقون اليها صامتين . فلم تتمالك أن تطلعت خلفها خوفا .

والواقع انها لم تشاهد فى حياتها مثل هذه السجن . فقد كانت كل من المرأتين مشوشة الشعر مغضنة الوجه شديدة السمرة بتأثير حرارة الشمس ، ترتدى ملابس قذرة كل القذارة لم تغسل يوما ما . وكذلك كان شأن الجميع .

وانضم الى هذه الزمرة المخيفة اطفال مرضى شاحبو الوجوه شديدو القذارة خرجوا من البيت الثانى . ووقف الجميع يحدقون صامتين لا يبادرون الأم وابنها بتحية وقد تجردت نظراتهم من كل دلائل الانسانية وكأنهم حيوانات وحشية لا تعقل ولا تبين .

عند ذلك تمزق قلب الأم خوفا وجزعا وركضت الى الامام قائلا :

ــ اين ابنتي ؟ اين اخفيتم ابنتي ؟ .

وأسرعت الأم حتى صـــارت بينهم . أما الفتى فقد وقف مكانه مترددا ممسكا بعنان الحمار .

وأخيرا قالت احدى المرأتين فى لهجة مبهمة تشف عن السخط والتبرم :

ــ انت جئت فى الوقت المناسب أيتها المراة الطيبة . فانها ماتت اليوم .

ــ ماتت !! .

ماهت الأم بهذه الكلمة في صوت خافت ولم تعقب بشيء . فقد كف قلبها عن الحركة .. وانقطع تنفسها . واحتبس صوتها .

لكنها اندفعت الى اقرب الكوخين . فاذا فتاتها العمياء ممددة فوق فراش من قش ملقى على الأرض . اجل .. كانت الفتاة ترقد رقدة هادئة وقد فارقتها معالم الحياة . وكانت ترتدى نفس الملابس التى ارتدتها يوم فارقت بيت أمها . لكنها لم تكن نظيفة ولا سليمة . وكانت الغرفة مقفرة الا من كوم من الحشائش البرية وبعض القاعد الصغيرة الجافية .

هنالك اندفعت الأم وجثت بجانب الفتاة وجعلت تحدق فى وجهها الساكن وعينيها الغائرتين وفمها الصغير وكافة هذه التقاطيع التى تعرفها تمام المعرفة . وفجأة انهمرت دموعها وصاحت باكية وارتمت فوق الفتاة وتناولت يديها وازاحت كمهـــا ونظرت الى ذراعيهـــا الصغيرتين ثم حسرت سروالها عن ساقيها وجعلت تنظر ان كان بهما آثار رضوض أو ضرب أو اذى من أى لون .

لـكنها لم تجد شيئا . ورات بشرة الفتاة الرقيقة سالمة من كل سوء وعظامها النحيلة صحيحة وليس بها ما يستوقف النظر . وبدت لها شاحبة اللون شديدة النحول . لكنها كانت نحيلة ابدا والموت يطبع الوجوه بطابع الشحوب . فانحنت الأم فوقها وجعلت تتشمم فاها التماسا لرائحة سم . لكنها لم تجد الا رائحة الموت اليسيرة التى يفوح منها الحزن .

على أن الأم لم تستطع ان تؤمن بأن ما نزل بفتاتها هو موت طبيعى مالوف . فانثنت الى أصحاب اثبيت الذين وقفوا بالباب يراقبونها صامتين . وتطلعت اليهم وأجالت عينيها فى وجوههم الوحشية المخيفة التى لا تعرف وجها واحدا بينها ثم صاحت فيهم من خلال دموعها المنهمرة الغزيرة .

ــ أنتم قتلتموها . أنا واثقة انكم قتلتموها . فاذا لم يكن هذا فاخبرونى كيف ماتت ابنتى بهذه السرعة ، وقد تركتنى صحيحة الجسم سليمة الأعضاء .

فكشر الرجل العجوز الذى احست نحوه بالمقت منذ راته لاول مرة عن انيابه واجابها :

ــ زنى كلامك أيتها المراة الطيبة . ليس من اليسير أن تقولى اننا قتلناها .. و .

لكن المرأة الغاضبة المشوشة الشعر قاطعته صارخة :

ـ كيف ماتت ؟ ماتت من برد اصابعها . لأنها شديدة الضعف . هذا سبب موتها .

وبصقت المرأة على الأرض ثم استأنفت صياحها :

ـ كانت فتاة عديمة النفع . جاهلة لا تعرف شيئا . بل لم تكن تستطيع احضار الماء من العين دون أن تتعثر اوتسقطاوتضلالطريق.

فأرسلت الأم بصرها ورأت طريقا حجريا ضيقا ينحدر في سفح الجبل الى عين ماء صغيرة . ولم تتمالك أن هتفت موجعة :

ـ هل هذا هو الطريق الذي تقصدين ؟ .

لكن لم يجب احد . فهتفت في ألم متزايد :

ـ كنتم تضربونها . لابد أنكم كنتم تضربون ابنتي كل يوم .

لكن المرأة قالت فورا :

ـ فتشي وانظري ان كان بهـــا أي خدش . ان ابني ضربها مرة واحدة لانها عادت اليه متباطئة . لكنها المرة الوحيدة .

فتطلعت الأم اليها وقالت بصوت خافت :

ـ اين ابنك ؟ .

فدفعوا لها ذلك الابن . فاذا هو معتوه لا يكاد يعقل .

فأمالت الأم راسها فوق جثمان فتاتها الميتة وجعلت تبكي وتنتحب في لوعة أي لوعة وفي حرقة وجنون . واشتد بكاؤها ونحيبها كلمــا فكرت فيما قاسته الفتاة على أيدي هؤلاء الأشقياء . وفيما هي كذلك كان الغضب يتجمع ويجيش في صدور الواقفين حولها . ثم أحست اخيرا بيد تلمس كتفها ، فرفعت رأسها ورأت ابنها الذي انحنى فوقها وهمس في أذنها مستحثا قائلا :

ـ نحن في خطر هنا يا أمي . يجب الا نبقى هي الآن ميتة يا أمي وماذا في وسعنا أن نصنع لها ؟ وهم ينظـــرون الينا نظرات تنم عن الشر ولا أدري ماذا يفعلون بنا . تعالى معي ولنعد مسرعين الى القرية حيث نشترى طعــاما يسيرا ثم نستأنف السير الى بيتنا في هذه الليلة .

اذ ذاك نهضت الأم مكرهة . على انها حينما نظرت اليهم الفتهم واقفين متلاصقين وآنست في ملامحهم ما جعل الخوف يتسلل الى قلبها . ولم تسترح الى تهامسهم والى نظراتهم التي كانوا يصوبونها اليها والى ابنها الفتى . أجل . يجب ان تفكر في أمر هذا الفتى . وليقضوا عليها ان شاءوا . لكن هناك ابنها .

تحولت الأم والقت نظرة ثانية على فتاتها الميتة وسوت ملابسها وبسطت يديها الى جانبيها . ثم سارت الى خارج الكوخ حيث كان الوقت قرب الاصيل .

ولما آنسوا هدوءها وراوها تستعد لامتطاء الدابة قال الرجل الذى لم يتكلم قبل الآن وهو والد الفتى المعتوه :

ـ انظرى ابتها المراة الطيبة . اذا كنت لا تحسبيننا اناسا طيبين فانظرى الى النعش الذى اشتريناه لابنتك . انه كلفنا عشر قطع من الفضة كانت كل ما نملك . وهل كنت تظنين اننا نشترى نعشا لو لم تكن لها قيمة عندنا ؟ .

نظرت الأم . فرأت قرب الباب نعشا حقا . لكنها ادركت انه لا يساوى هذه القيمة اذ كان مصنوعا من الخشب الجافى الرقيق . وهو لا يمتاز فى شيء عن أى نعش يؤتى به لأى رجل بائس فقير . وقد فتحت فاها لكى تعرب عن غضبها وتقول للرجل :

ـ هذا النعش ؟ . هل كانت النقود الفضية التى أعطيتها لابنتى يشترى بها مثل هذا النعش ؟ .

لكنها لم تفه بهذه الكلمات . فقد ساورها خوف شديد من هؤلاء الناس . واحست بيد ابنها تجذبها من كمها . فقالت فى رباطة جاش :

ـ لن اقول الآن شيئا . ان ابنتى ماتت ولن يردها الى الحياة غضب ولا كلام .

وكفت عن الكلام واجالت عينيها فيهم جميعا ثم استطردت :

ـ ستقفون أمام السماء وأمام الآلهة . فليحاسبوكم على ما فعلتم !

وادارت فيهم عينيها مرة ثانية . لكنهم لم يجيبوا . فتحولت عنهم وركبت الحمار وقاده الفتى بعيدا عنهم فى الطريق الصخرى . والتفت خلفه وهو يرتعد خوفا من ان يتبعوه ، وقال لامه :

ـ لن اطمئن حتى نصل الى تلك القرية حيث يوجد اناس من بنى الانسان . فاننى شديد الخوف .

لكن الأم لم تفه بكلمة . فما نفع الكلام الآن وقد ماتت فتاتها ؟ .

الفصل الثالث عشر

راحت الأم تبكى طوال الطريق الى البيت . وكانت حينا ترفع الصوت بالبكاء وحينا آخر تبكى بكاء رقيقا . وضاق الفتى ذرعا بهذا

البكاء ولم يتمالك ان هتف آخر الأمر فى الم وجزع :
ـ كفى عن هذا العويل يا أمى والا عجزت عن احتماله .
فهدأت الأم من روعها قليلا ، ولكن سرعان ما استأنفت بكاءها . فصر الفتى على أسنانه وغمغم فى عنف :
ـ لو أن اليوم الموعـود جاء ، ولو أنا لم نـكن فى اشد الفقر والتعاسة ، ولو نال الفقراء نصيبهم فى الحياة وتيسر لهم ان يدافعوا عن أنفسهم ، اذن لسعينا للثأر والانتقام لموت أختى . لكن ما الفائدة ونحن فى فقر شديد ولا عدل فى هذه الديار ؟ .
فقالت الأم وهى تنتحب :
ـ صحيح انه لا فائدة من الالتجاء الى القانون ما دمنا لا نملك مالا لالتماس العدالة .
ثم استأنفت بكاءها وهتفت :
ـ لكن اموال الدنيا وعدالة القانون لن تردا الى فتاتى العمياء .
ولم يتمالك الفتى أن بكى أيضا . ولم يكن بكاؤه لمصاب أخته وتفجع أمه باكثر من بكائه لحـــاله وما نال من ألم السير ووعورة الطريق .
وهكذا وصلا الى البيت أخيرا . ولما ترجلت الأم عن ظهر الحمار الأشهب نادت ابنها الأكبر صارخة مولولة حتى ركض اليها مسرعا فصاحت قائلة :
ـ اختك ماتت يا بنى .
وفيما كان الشاب يحدق فيها مذهولا وهو لا يكاد يفقه ما تقول راحت تسرد عليه القصة بحذافيرها . وجاء على صوتها سواد أهل القرية مسرعين ووقفوا ينصتون الى القصة فى ظلمة الشفق . ووقف الفتى مستندا الى الحمار وهو يكاد يسقط اعياء . ولما استرسلت الأم فى تفصيل قصتها انتحى جانبا وتهالك فوق الأرض وتمدد مكانه وهو فى ذهول مما شهد فى يومه . وراحت الأم تدير عينيها فى وجوه الواقفين حولها وهى تهتف عاليا :
ـ ماتت ابنتى وذهبت . وشد ما امقت نفسى لأنى تركتها تبتعد عنى . وما كنت أتركها تذهب لولا زوجة ابنى الباردة القاسية التى كانت تمقتها ، حتى انى خشيت اذا مت وبقيت وحدها أن تتعرض لكل مكروه . آه يا بنى ! ان زوجتك هى سبب هذا المصاب . انى ألعن اليوم الذى جاءت فيه الينا . ولا عجب اذا بقيت عاقرا وهى بهذا القلب القاسى المتحجر .

سرى عن الأم شيئا فشيئا وجعلت تبكى حينا فى صمت وسكون .
ثم تطلعت حولها قائلة :
ـ اين ابنى الأصغر ؟ .
فجاء الفتى وراته شديد الشحوب والاعيـــاء وقد فارقه مرحه وبشاشته . فحملته على الجلوس بجانبهـــا وتناولت يده وجعلت تستحثه على الأكل والراحة وقالت له :
ـ نم هذه الليلة بجانبى يا ولدى فى الفراش الذى اعتادت اختك ان تنام فيه . لا يمكن يا ولدى أن أراه الليلة خاويا .
وهكذا امتثل الفتى لقولهـــا ، وما كاد ينطرح على الفراش حتى استغرق فى نوم عميق .
لكن الأم لم تستطع أن تنام طويلا حتى رغم الهدوء الذى شمل أرجاء البيت . وكان عزاؤها الوحيد فى هذا الوقت أن تسمع غطيط الفتى وهو راقد بجانبها . واشتد حبها له الآن وجعلت تناجى نفسها بهذه الكلمات :
ـ لابد ان افعل نحوه كل شىء . هو آخر ابنائى . يجب أن أزوجه وان ابنى له غرفة جديدة فـــوق البيت سيكون له غرفة خاصة ولزوجته . واذا رزق اطفالا .. نعم يجب ان افتش له عن زوجة طيبة ذات حيوية حتى يكون لنا اطفال فى البيت .
واحست بأن هؤلاء الأطفال المرتقبين سيكونون سلواها ـ غير انها كانت تحرم من هذه السلوى . فقد عاودها المرض القديم حتى انهك جسمها وحال دون استسلامها للحزن أو تعلقهـــا بالرجاء . وكانت جاراتها تأتين اليها لمواساتها وتشديد عزمها .. فتقول احداهن :
ـ مهما يكن يا أختى فان الفتاة كانت عمياء .
وتقول ثانية :
ـ لا سبيل الى تبديل أحكام السماء يا أختى . ولا فائدة من الحزن على شىء فى هذه الدنيا .
وتقول ثالثة :
ـ فكرى فى ولديك .
ولما ذكرتها زوجة العم ذات يوم بهذا الكلام قالت لها :
ـ نعم . لـكن زوجة ابنى لا تحمل .. وابنى الأصغر لن يتزوج .
فأجابتها زوجة العم بحرارة :
ـ امهليها سنة أو سنتين يا أختى . فانه أحيانا بعد مضى سبع

سنوات في العقم تعود المراة الى طبيعتها وتنتج محصولا طيبا من الأولاد . وقد رايت مثل هذه الحالات . اما فيما يختص بقول الفتى أنه لن يتزوج فلابد ان تكون له حبيبة في مكان ما ، ومن واجبنا ان نفتش عنها وننظر في صلاحها للزواج منه . نعم . لابد ان له حبيبة مثل غيره من شبان هذه الأيام . فانه لا يوجد رجل في الدنيا لا يقبل الزواج .

لكن الأم قالت لها همسا :

ـ تعالى يا اختى وضعى اذنك فوق شفتى .

فلما امتثلت زوجة العم لما طلبت قالت الأم همسا :

ـ انى أخاف أحيانا كلما رايت الأحزان تلازمنى وكل شيء ينعكس فى وجهى ان يكون هذا بسبب تلك الخطيئة الماضية التى ارتكبتها والتى تعرفها الآلهة . وقد لا يبعد ان تضن على السماء بالأحفاد .

وما كاد هذا الخاطر يساورها حتى اغمضت عينيها وانحدرت دمعتان كبيرتان من بين أجفانها المطبقة .

وجعلت تفكر فى كافة خطاياها .. لا فى تلك الخطيئة التى تعرفها زوجة العم وحدها ، بل كذلك فى كذبها المتصل حينما زعمت أن زوجها توفى وانها أرملة ، وما تفرع عن هذا كله من الكذب والتدليس ، طمعا فى الفوز برجل آخر .

وهكذا الت بها الآن ذكرى هذه الذنوب جميعا ، وقد كانت تقوى على نسيانها فى الأحوال العادية لتقادم العهد عليها . اما الآن وقد الح عليها الضعف والحزن فقد كانت هذه الذكرى لاتثقل على نفسها لانها لم تكن تستطيع أن تبوح بها تضطر لكتماتها فى صدرها ، وكان يحز فى نفسها أكثر من هذا أن قومها يعدونها امراة فاضلة وينظرون اليها بعين الاحترام .

وقد اشتدت كآبة الأم ولم يعد شيء يسرى عنها حتى ترى ابنها الأصغر حولها . اجل . ومع ان زوجة الابن كانت تتفانى فى خدمتها وتبذل كل ما فى وسعها لمرضاتها فانها لم تكن مصدر سلواها ولا عاملا على تطييب نفسها . وطالما كانت الأم تؤنبها لأن يدها باردة أو لأن وجهها شاحب وتحدق فيها بنظرات عدائية صبيانية . على ان الأم مع ذلك كفت عن التنديد بعقمها . فقد خطر لها فى أعماق نفسها ان خطاياها قد تكون سبب هذا الجدب الذى منيت به زوجة ابنها .

بيد انها غادرت اخيرا فراش المرض . ولما ذهب الخريف زايلتها اسقامها وكانت تجلس طول النهار محزونة ولكنه حزن هادىء خلا من

ظواهر العنف واللوعة . وكانت تناجي نفسها قائلة :
ــ نعم . ربما صح ما يقولون . وقد يكون من الخير أن ماتت ابنتي . ففي الحياة أشياء كثيرة أسوأ من الموت .

وتشبثت بهذه الفكرة واطمأنت اليها .

ووجدت من اهل القرية جميعا كل عون ومساعدة . اذ لم يعد أحد منهم يحدثها عن ابنتها او يثير ذكراها امامها . وقد دفعهم الى هذا السكوت رغبتهم فى دفع الألم والحزن عنها ، ولأن الحديث فى هذا الشأن كان حديثا معادا لا جديد فيه ، ولأن شئون الحياة والناس المتجددة قد طغت على هذه الذكرى . وهكذا اختتمت سيرة الفتاة العمياء .

وهكذا تركت الأم الماضي ساكنا خامدا فلا تقلبه الا حين تخلو احيانا الى نفسها .

الفصل الرابع عشر

ثم خيل للأم أن قلبها يوشك ان ينعم ببعض الراحة والسلوى . ففى ربيع هذا العام جاء اليها ابنها الأصغر وقال لها :

ــ انى جئت الى البيت للاقامة فيه بعض الوقت يا امى . ولا أعرف كم من الوقت ابقى هنا . ولكنى سأبقى على الأقل حتى يصدر الأمر بعودتى .

ولما طربت الأم من هـذا النبأ لم يتبسط الفتى فى الكلام وكأن اطواره تغيرت واختلفت عن ذى قبل . فقد كان يبـــدو الآن كثير الهدوء لا يغنى ويلهو ولا يستهتر فى كلامه كما كان يفعل فيما مضى ، حتى لقد عجبت الأم من هذا وراحت تتساءل ان كان به مرض أو اضطراب خفى .

على أن الفتى لم يلبث بعد مضي تسعة ايام ان عاد مسرعا من حيث اتى وعلى نحو أقرب الى الخفاء منه الى الجهر ، وان لم يدر أحد كيف تلقى الأمر بالعودة . وقد دس الفتى ملابسه في صندوق من الجلد كان معه ، وحزنت الأم لذهابه فقالت له :

ــ كنت اظن يا ولدى أنك ستقيم معنا .

لكنه أجاب قائلا :

ــ آه . سأعود مرة ثانية يا أمي .

وكانت تبدو على الفتى بعد ذلك سيماء الجذل والمرح . وجعل

يعود الى القرية ويخرج منها بغير سابق انذار . وكان اذا جاء الى القرية راح يتسكع فى ارجائها يوما او يومين ، فيختلف الى حانوت الشاى ويلقى اقوالا رنانه وكلمات ضخمه فى سوء الأحوال وانعدام العدالة ويقرر انه سيأتى يوم عظيم تذهب فيه كل هذه المساوىء ويستقيم كل شيء . وكان الناس يصغون اليه وهم يتبادلون النظرات دهشة دون ان يفقهوا من كلامه شيئا . وذات يوم حك صاحب الخان راسه وهتف قائلا :

ـ أقسم يا جيرانى ان هذا الكلام يرن فى اذنى ككلام اللصوص ! .

لكنهم كانوا يتجاوزون عن هذا الكلام لاجل الأم ولأجل أخيه الطيب .

وكانوا يردون هذه الاقوال الى طيش الشباب ويعتقدون انه سيلزم حدود التعقل متى تزوج وعاش عيش الرجال .

على أن الفتى كان اذا عاد الى البيت يلزم البطالة والخمول ويتظاهر بالرغبة فى مساعدة أخيه والقيام ببعض الأعمال اليسيرة ، وأن كان أخوه اذا رأى ذلك منه قال له بازدراء :

ـ شكرا لك يا أخى . لكنى تعودت أن أعمل بغير مساعدتك .

فيتطلع الفتى الى أخيه بوقاحة ألفها فى هذه الأيام الأخيرة ويضحك ضحكة هادئة ويبصق على الأرض ثم يقول :

ـ كما تحب يا أخى .

وقد كان هذا الهدوء يثير الأخ الاكبر حتى يكاد ينشق من الغيظ والحقد ويهم بطرد أخيه من الدار الى الأبد لولا اشفاقه من لوم الناس وتنديدهم بهذا العمل .

أما الأم فلم تكن ترى فى مسلك الفتى نقيصة ولا مذمة . وقد سمعته يتشدق يوما بكلامه الضخم الرنان ويقول معرضا بأخيه الاكبر :

ـ اقسم ان صغار الملاك هؤلاء الذين يؤجرون الأرض هم أناس مغرورون لا قيمة لهم ، وانهم يستحقون ما سينزل بهم يوم تكون الأرض مشاعا ولا يملكها انسان بعينه .

فلم تفقه الأم من هذا الكلام سوى شطره الأول وقالت له مؤمنة على قوله :

ـ نعم . انى أرى مثلك أن اخاك شديد الغرور احيانا ، كما ان زوجته عاقر شديدة الجدب .

والواقع ان كل ما يصدر عن هذا الفتى كان فى نظرها آية الصواب وعين الحكمة والسداد . واذا عاد الى البيت كان يوم عودته عيدا

عندها . ولو استطاعت لذبحت له كل يوم دجاجة وصنعت له أطيب الطعام . لكن اين السبيل الى هذا وقد صار الدجاج الآن ملكا لابنها الاكبر ؟ وقصارى ما كانت تستطيع هو ان تسرق بيضة أو بيضتين وتخفيهما عندها للفتى ، حتى اذا عاد صبتهما سرا فى ماء ساخن ، وقدمتهما اليه مع بعض السكر الذى تدخره لمجيئه على وجه من الوجوه .

وكانت الأم اذا أصابت بعض الألوان اللذيذة المشتهاة او اذا ذهبت لزيارة بعض جاراتها فأعطينها خوخة او كعكة او غيرهما من باب الشفقة عليها ــ كانت اذا ظفرت بهذا أو ذاك ادخرته للفتى الأصغر وانفقت وقتا طويلا فى السهر على هذه الألوان حتى لا تفسد . ولا تتعفن وادخرتها اطول مدة ممكنة . حتى اذا ابطأ فى العودة اضطرت لأكلها قبل أن تفسد فعلت هذا مكرهة وهى لا تكاد تسيغ ما تأكل وان كانت تحب الطعام وتتلذذ به ! .

وكانت تنفق ساعات طويلة من وقتها كل يوم فى التطلع الى الطريق لعلها ترى ولدها قادما . حتى اذا رات رجلا آتيا هرعت بكل ما تتسع له قوتها فاذا كان القادم ولدها تناولت يده الدافئة الملساء فى يدها اليابسة المغصنة وذهبت به الى غرفتها وصبت له الشاى الذى تبقيه عندها زوجة ابنها وقدمت له ما أدخرت من سائغ الطعام وجعلت تراقبه فى تدله وهو يقلب ما قدمت له وينتقى منه أحسنه .

فاذا تناول ما طاب له راحت تنصت له وتستمع لما يقول . ولم يكن يجيب عما تلقيه عليه من الأسئلة اجابة صريحة ، واذا ألحت عليه أبدى لها تعجله فى العودة من حيث اتى . فلما رات ذلك منه الفت الا تلقى عليه سؤالا والفىهو بدوره أن يبعد بها عن موضوع السؤال بما كان يسرده عليها من نوادر الحواة والمشعوذين . فيقول لها مرة انه راى أحدهم يزدرد ثعبانا ثم يجذبه ويخرجه من جوفه ثانية. او انه شاهد امراة ولدت طفلا ذا رأسين كانت تعرضه أمام المتفرجين لقاء مبلغ تافه يسير . أو ما الى ذلك من المشاهد الغريبة التى يراها الانسان فى المدن .

وكانت الأم تتسلى بهذا الكلام وتبكى اذا ذهب الفتى عنها ، وتروح تقص هذه النوادر على ابنها الأكبر وزوجته . وذات يوم بينما كان الشاب يغسل وجهه فى وعاء به ماء بعد عودته من عمل النهار الشاق قصت عليه الأم بعض ما سمعت من ابنها الفتى . فلم يتمالك الشاب أن رفع رأسه المبلل وقال بمرارة :

ـ نعم . هو لا يطعمك ولا يفعل شيئا نحوك الا أن يجيء الى هنا ويأكل دون ان يحمل بيده فأسا ولا محراثا ويلقى اليك بقطعة زهيدة من النقود كأنك متسولة . وهو يجيء الى هنا يأكل دون أن يحمل بيده فأسا ولا محراثا ويقص عليك هذه القصص وهو عندك اكثر من . .

ثم احنى راسه ثانية وجعل يغسل وجهه فى ضجة عالية ولم يستمع الى ما ارادت الام أن تقول ردا على كلامه .

لكن الأم لم تعرف فى ابنها الأصغر الا انه فتى مليح العود رشيق القوام ذهبى البشرة طويل الأظفار ابيض الأسنان يصفف شعره الأسود بالزيت ويتركه ينمو ويتدلى حتى أذنيه ثم يدفع راسه دفعا لكى يزيح الشعر اللامع عن عينيه .

أجل . . كانت الأم تعرف فى فتاها هذا وحده وتحب منه نظراته الجريئة المستهترة وسخاءه فى انفاق الفضة وتعجب به حين يدس يده فى حزامه ويقدم لها ما يملك ، واذا لم يجد معه شيئا سألها أن تعطيه ما عندها ولم يكن أحب الى نفسها من أن تعطيه ما عندها وتلح عليه فى قبوله . وكل ما كان يمنحها كانت تدخره لكى تقدمه له اذا أعوزته الحاجة اليه وذلك فى نظرها افضل سبيل لانفاق ما تملك من مال يسير .

الفصل الخامس عشر

ولكنه ذات يوم لم يعد اليها فى الوقت الذى حدده . ولكن كيف ايقنت من عودته فى هذا الموعد المحدد ؟ .

ذلك أنه منذ ثلاثة أيام جاء خلسة فى الليل عن طريق الحقول لا عن طريق القرية وطرق الباب برفق حتى لقد خافت أن تفتحه وظنت الطارق من اللصوص . وفيما هى تهم بالصياح سمعت صوتا خافتا ، ومن حسن الحظ أن الدجاج اخذ ينق فى تلك اللحظة وحجب الصوت عن سمع الابن الأكبر وزوجته .

فنهضت الأم من فراشها مسرعة وراحت تلتمس ملابسها وتلتمس الشمعة فى تخبط وتعثر حتى فتحت الباب برفق اذ علمت انه جاء على هذا النحو لأمر خفى ، واذا هى تراه أمامها برفقة شابين آخرين وهم جميعا يرتدون ملابس سوداء كالتي اعتاد ان يرتديها فى هذه الأيام . وكان الثلاثة يحملون لفافة كبيرة محزومة بورق وحبال

ولما فتحت الباب وهى تحمل الشمعة فى يدها أطفأها الفتى اذ كان القمر يرسل نورا يسيرا كافيا . وما كادت الأم تهتف فى رفق معربة عن سرورها برؤيته حتى قال لها همسا :

ــ هذا شيء يخصنى يا أمى أريد ان اضعه تحت فراشك بين ملابس الشتاء . ولا تقولى كلمة عنه لأنى لا اريد ان يعرف أحد مكانه وسأعود مرة ثانية لآخذه .

فتوجست الأم خوفا حينما سمعت هذا الكلام وتطلعت اليه فى رزانة وقالت له فى صوت خافت :

ــ أرجوك يا ولدى الا يكون هذا شيئا محرما . أرجو الا تكون اخذت ما ليس لك .

لكنه أجابها على الفور :

ــ لا يا أمى . أقسم لك انه ليس من المسروقات . وهو بعض جلود الغنم اشتريتها بثمن قليل وأخاف أن يلومنى اخى كما يلومنى فى كل شيء وليس لى مكان آخر احفظها فيه . وسيكون لك واحد منها فى الشتاء القـــادم . بل انه سيكون لنا جميعا ملابس طيبة فى الشتاء القادم يا أمى .

فسرت الأم من هذا الكلام وصدقته ولذ لها أن تشاطر ابنها بعض اسراره وقالت له بسرعة :

ــ نعم . ثق بى يا ولدى . توجد بهذه الغرفة أشياء كثيرة لا يعرف ولدى ولا زوجته عنها شيئا .

عند ذلك حمل الشابان اللفافة الى داخل الغرفة ودساها فى سكون تحت الفراش ، وفى هذه الأثناء اخذ الدجاج ينق ويحـدق بأعينه واستيقظت الجاموسة واخذت تطحن فكيها .

لكن الابن لم يشأ أن يبقى بعض الوقت . وعجبت الأم حين آنست منه هذه العجلة ، لـكنها قالت له :

ــ ثق يا ولدى انى ســـأحرص على الأمانة . لكن الا يجب أن أعرضها للهواء والشمس خوفا من العث ؟ .

فأجاب الفتى بغير مبالاة :

ــ سنكون عندك يوما أو يومين ، لأننا سننتقل الى مكان أكبر وسيكون لى غرفة خاصة رحبة .

فلما سمعت الأم اشارته الى الفرفة الرحبة جالت بخاطرها تلك الفـكرة التى كانت تساورها أبدا . فـكرة تزويج الفتى . وسرعان ما انتحت به ناحية بعيدا عن رفيقيه وتطلعت اليه مبتهلة متوسلة .

ولم يكن يسوؤها منه سوى نفوره من الزواج واعراضه عنه . فقد كانت تعلم تمام العلم ان دماء الشباب تتدفق حارة فى عروقه وان هذا الابن يحمل نصيبا موفورا من عواطفها الجياشة وشهواتها الجـامحة فى صدر شبابها ، وكانت توقن أنه لا محالة يعمد الى اطفاء حرارة عاطفته على وجه من الوجوه . وهى تمقت الاسراف وتنفر منه أشد النفور . ولم يكن أحب الى نفسها من أن تزوجه فتاة نظيفة صالحة فيكون لها أحفاد . ولم تتمالك حتى فى هذه اللحظة حين كان يتعجل الذهاب وقد وقف صاحباه متسترين بظلام الباب ، ان وضعت يدها فوق يده وقالت له مستحثة فى نبرات خافتة :

ـ لكن يا ولدى اذا كانت لك غرفة خاصة رحبة فلم لا تتركنى ابحث لك عن عروس ؟ انى سأفتش لك عن أحسن الفتيات . أو اذا كنت تعرف فتاة معينة فاخبرنى عنها وانا أعهد الى زوجة عمك أن تذهب اليها وتخطبها لك . انا لا ارغمك يا ولدى . وانى لأحب الفتاة التى تحبها .

لـكن الفتى دفع خصلات شعره المسدلة ونظر الى الباب وحاول أن يرفع يدها عن يده . لكنها تشبثت به قائلة :

ـ لم تبذر حبوبك فى أرض غير صالحة يا ولدى ولا تهيىء لى الأحفاد ؟ ان زوجة أخيك شديدة البرودة ولا أظن أنى سأفوز بأطفال صغار اذ لم تنجبهم أنت . نعم . انت تشبه اباك . وانا اعلم تماما كيف كان أبوك . ابذر حبوبك فى ارضك يا ولدى ، واجن ثمارها فى بيتك .

لكن الفتى ضحك فى سكون وازاح شعره عن عينيه اللامعتين وقال :

ـ ان النساء امثالك يا امى لا يفكرن الا فى الزواج ووضع الاطفال . أما نحن شبان هذه الأيام فقد طرحنا كلَّ هذا وأعرضنا عنه . بعـد ثلاثة أيام سأعود يا أمى .

ثم انتزع نفسه من قبضتها وذهب مع رفيقيه فساروا فى الحقول المظلمة .

لـكن مضت ثلاثة أيام ولم يعد . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وثلاثة مثلها دون أن يأتى ، حتى خافت الأم أن يكون قد الم بابنها سوء . ولم تكن الأم فى هذا العام الحالى تذهب فى يسر وسهولة الى البلدة وهكذا لزمت الدار تنتظر وتترقب . وكانت تبرم وتضيق بكل من يدنون منها دون أن تجسر على مكاشفة احد بمخاوفها أو تجرؤ على الابتعاد عن غرفتها حتى لا تزيح زوجة ابنهـــا الستار وتهتدى الى

اللفافة المخباة تحت الفراش .

وانتابها أرق فنهضت واضاءت شمعة ونظرت تحت الفراش وهى ممسكة بيدها الستار المسدل . فاذا (الأمانة) ملفوفة فى ورق سميك ومحزومة حزما جيدا بحبال من القنب . ولما تحسستها بيدها لمست جسما صلبا بداخلها فأيقنت انه ليس جلود الغنم حقا . لـكنها لم تجسر على فتحها وتركتها كما هى .

ومرت الايام تباعا حتى انقضى شـــهر كامل دون أن يعود ابنها . فكادت تجن لولا أن حدث حادث انساها مخاوفها الى حد ما .

كان هذا الحادث آخر ما تحلم به فى هذه الأيام . اذ حملت زوجة ابنها .

اجل . عادت المراة الى طبيعتها بعد كل هذه السنوات وادت واجبها . وذات يوم جاءها ابنها الاكبر بينما كانت جالسة فى مدخل الدار وقال وقد أشرقت اسارير وجهه ابتساما :

ــ امى . سيكون لك حفيد .

فأفاقت الأم من التأمل الذى كان يستغرقها فى الأيام الأخيرة وجعلت تحدق فيه بعينيها الغائمتين وقالت له فى تبرم :

ــ انت تتكلم كالمغفلين . ان زوجتك باردة مجدبة كالحجر . وانا لا اعرف اين يوجد ابنى وهو يتعثر بذوره الصـــــالحة فى كل مكان ولا يتزوج لادخارها .

فسعل الابن الاكبر وقال ببساطة :

ــ ان زوجتى حامل .

لم تصدق الأم أول الأمر . وتطلعت اليه ثم صاحت وهى تنهض معتمدة على عصاها :

ــ هذا غير صحيح . لن اصدق هذا الكلام .

لكنها رات فى وجهه دلائل الصدق . فنهضت وأسرعت الى المطبخ حيث وجدت زوجة الابن تطهو الطعام . فتطلعت اليها وهتفت :

ــ هل حملت أخيرا ؟ .

فأومات الزوجة برأسها ايجابا واستأنف عملها وقد تضرج وجهها الشاحب بحمرة متقطعة . وأدركت الأم أن الحادث لا ريب فيه . فسألتها :

ــ متى عرفت هذا ؟ .

فأجابت الزوجة :

ــ من قمرين وزيادة .

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى غضبت حين رات انها لم تقف على النبأ فى وقته ولطمت الأرض بعصاها قائلة :

ــ لم لم تخبريني وقد كنت هذه السنين اتشوق واتلهف لمثل هذا النبأ ؟ . من قمرين ؟ هل فى الدنيا امراة فى برودك لا تتكلم عن هذا الأمر من يوم ظهوره ؟ .

فألقت الزوجة السكين التى كانت تقطع بها البصل من يدها وقالت :

ــ لم اخبرك لخوفى من أن اكون مخطئة فأزيد حزنك اكثر مما احيى أملك .

لكن الأم لم تقبل هذا العذر وبصقت على الأرض وقالت :

ــ وهل كنت اعجز عن معرفة الحقيقة وأنا التى انجبت كل هؤلاء الأبناء ؟ لا . انت تحسبينني طفلة او عجوزا بلهاء . أنا أعرف ماذا تظنين فى . ويبدو هذا منك فى كل عمل تقومين به .

لكن الزوجة لم تنبس بكلمة ، بل أطبقت شفتيها الغليظتين الشاحبتين وصبت للأم قدحا من الشاى وقادتها الى مجلسها قرب الحائط .

لكن الأم لم تستطع أن تجلس وتكتم هذا النبأ . بل لابد لها من أن تذهب وتخبر العم وزوجته حيث يجلسان فى بيتهما . فان ابناءهما احتملوا الآن عبء العمل فاضطلع ثلاثة منهم بأعمال الفلاحة وتفرق الآخرون فى اعمال اخرى يتلمسون قوتهم منها ، وكان العم يقوم بما يستطيع وهو دائما متشاغل ببعض الأعمال اليسيرة ، وان لم يكن يقوى الآن على أداء الأعمال التى كان يقوم بها من قبل . أما زوجته فكانت تمضى النهار فى نوم عذب هنيء لا تستيقظ منه الا حين يبكى أحد حفدتها الصغار .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن وايقظت زوجته بلا ترفق من نومها وصاحت قائلة :

ــ لن تكونى جدة وحدك . بعد شهور قليلة سيكون لى حفيد ايضا .

ثابت زوجة العم الى نفسها رويدا وهى تبتسم وتلعق شفتيها اليابستين من تأثير النوم وفتحت عينيها الصغيرتين الهادئتين قائلة :

ــ صحيح يا أختى ! هل يتزوج ابنك الأصغر ؟ .

فتكدرت الأم قليلا واجابت :

ــ لا . ليس هذا .

وكان العم الضئيل الهرم جالسا فوق مقعد منخفض من الخيزران يضفر حبلا من القش لدود القز لكي ينتج فوقها الخطوط الحريرية .
فرفع راسه وقال للأم :
ـ اذن فهي زوجة ابنك يا بنت العم ؟ .
فأجابت الأم بحرارة وقد عاودها اغتباطها وسرورها :
ـ نعم .
ـ وجلست لكي تسرد قصتها . بيد انها لم تشأ ان تتظاهر بالسرور وكتمت سرورها خلف ستار من الشكوى والتذمر قائلة :
ـ انى جعلت انتظر ثمانية اعوام كاملة . ولو كنت غنية لبحثت له عن امراة اخرى . لكنى كنت ارجو ان يتزوج ولدى الأصفر ويجرب حظه قبل ان امد اخاه بزوجة ثانية ، والزواج فى هذه الأيام يكلف الانسان كثيرا حتى ولو كانت زوجة ثانية . ان زوجة ابنى هذه امراة بليدة لها طبيعة باردة كطبيعة الثعبان .
فقال العم ينصف الزوجة :
ـ لكنها ليست رديئة يا بنت العم . فانها قامت بواجبها خير قيام وقد ضاعفت لكم عدد البط واستولدت الجاموسة عجـــلا صغيرا . وبفضلها زاد عدد الدجاج حتى صار الآن اثنتى عشرة دجاجة عدا ما يباع كل سنة .
فقالت الأم مكرهة :
ـ لا . ليست رديئة . لكنى كنت افضل ان تهتم بنفسها اكثر من اهتمامها باستيلاد الدواب والدجاج .
وكانت زوجة العم فى هذه الأثناء قد غفت قليلا ثم استيقظت من غفوتها ورات الأم فى مكانها . فابتسمت وقالت :
ـ قلت سيكون لك حفيد ؟ . نعم . ان لنا من الأحفاد سبعة . وهم ليسوا كثيرين .
ثم استسلمت لنومها الهنىء .

***

وهكذا ملأ هذا النبأ فراغ الأم وقد كاد الفراغ يذهب بعقلها لغياب ولدها . وشغلها الفرح عن الانتظار والترقب وبدا لها انه لابد عائد يوما ما . وتركت الأمر يقف عند هذا الحد .
لـكنها لم تنعم بهذا الفرح . فقد رات ان كل شىء ينعكس امامها ويفسد على وجه من الوجوه ، اذ اشفقت ان يجىء المولود انثى . وما كاد هذا الخاطر يهجس فى وجدانها حتى غمغمت قائلة :

ـ نعم . لو جاء المولود أنثى لكان هذا أقرب الى حظى السيء .

وقد ودت بتأثير ما انتابها من قلق واشفاق ان تسعى الى تلك الربة القوية التى تعرفها وترشوها برداء جديد أحمر أو حذاء أو غيرهما لكي تجعل المولود ذكرا . لكنها لم تجرؤ على الذهاب حتى لا تذكر الربة بخطيئتها الماضية التى لم تكفر عنها حتى بعد كلما ذاقت من الأحزان ، وحتى لا تتذكر الربة اذا رأتها وسمعتها تتكلم عن الأحفاد فتمد سلطانها وتبطش بالجنين فى الرحم . وناجت نفسها بهذه الكلمات فى لهجة تشف عن البؤس الشديد :

ـ خير لى الا اذهب ولا اظهر نفسى امامها أبدا . اذا بقيت بعيدة عنها ولم أخبرها بأن الطفل فى طريقه الى الدنيا فقد تنسانى بعد أن لبثت كل هذا الزمن الطويل بعيدة عن الآلهة جميعا ويكون المولود فى نظرها الآى انثى وليس حفيدى ، وارجو أن يكون ذكرا .

ثم ساورها القلق والانقباض ورأت ان الطفل رغم كونه مصدرا للفرح والسرور فهو سبب للأحزان أيضا . ولما فكرت فى هذا الشأن وفى أن الطفل قد يولد ميتا أو مشوها أو معتوها أو أعمى أو انثى ، لم تتمالك ان حقدت على الآلهة والآلهات الذين يملكون من القدرة ما يفسدون به حياة الناس . وغمغمت قائلة :

ـ لم أستوف عقابى عما ارتكبته من الذنوب ؟ من كان يحسب ان الآلهة ستعرف ما فعلت فى ذلك اليوم ؟ لكن لا ريب أن اله المعبد الخرب قد أحس بالخطيئة حوله ووشى الى الربة رغم انى حجبت وجهه . لا بأس . سأبتعد عن الآلهة محتملة كل ذنوبى وخطاياى ، لأنى اذا ذهبت اليها فلست أعرف كيف أكفر عن ذنوبى أكثر مما فعلت .. وأقسم لو وزنت أفراحى وأحزانى لرجحت كفة الأحزان ولم يكن للأفراح التافهة التى نلتها سوى وزن يسير . انى لم الد الطفل ، وقد رأيت فتاتى العمياء تموت وهى لم تزل عمياء . الا ينفع الحزن فى التكفير عن الذنوب ؟ نعم . ان حياتى كلها كانت طافحة بالأحزان . لكن الآلهة لا تعرف العدالة .

وهكذا رأت وقد ملك الحزن والاكتئاب شعاب نفسها أنه لا مفر لها من احتمال امرين : الخوف الا يولد حفيدها صحيح الجسم سليم الأعضاء أو يولد أنثى . وانتظار هذا الابن الأصفر الذى لا يريد أن يعود . وقد خيل اليها أحيانا ان حياتها كانت لونا من الانتظار المستمر . فقد انتظرت طويلا زوجها الذى لم يعد . وهى الآن تنتظر

ابنها واحفادها . وبدا لها ان هذه الحياة تافهة هينة لا وزن لهـــا ولا شأن .

ومع هذا فلم يكن امامها بد من التعلق بحبال الأمل والرجاء. وكانت تسأل كل من يعود الى القرية من البلدة قائلة :

ـ هل رايت ابنى الأصغر اليوم فى البلدة ؟ .

وكانت تطوف ببيوت القرية سائلة اهليها :

ـ من ذهب اليوم الى البلدة ؟ .

فاذا أجابها أحدهم بالايجاب قالت له :

ـ هل رايت ابني أيها الرجل الطيب ؟ .

والف أهل القرية جميعا أن يسمعوا منها هذا السؤال . وكانوا اذا راوها تتوكأ على عصاها التى اقتطعها ابنها لها من فروع الأشجار وسمعوا سؤالها عن ولدها الأصغر أجابوها برفق قائلين :

ـ لا . لا أيتها الأم الطيبة . وكيف يمكن أن نراه فى سوق البلدة حيث نذهب ، وهو ما تقولين انه يعيش من الكتب ؟ .

فلا تملك الأم الا أن تمضى فى سبيلها مذهوبة الأمل ضائعة الرجاء وتعود أدراجها الى البيت لـكى تنتظر عودة الابن وهى مشفقة ان يأكل العث جلود الغنم .

ولكن جاءت انباء ذات يوم بعد تعاقب عدة أقمار .

فقد جلست الأم بباب البيت بعد أن تناولت طعام الصباح ممسكة بقصبتها الطويلة بين أصابعها كعادتهـــا هذه الأيام . ورأت الشمس ترسل أشعتها حامية فوق رءوس الروابى المستديرة وجلست تنتظر أن تدركها حرارتها وتذهب عنها برد الخريف . وفجأة رأت أكبر أبناء العم يدخل الحوش ويذهب الى ابنها الأكبر الذى كان منحنيا فوق صندله يصلح رباطه الذى انقطع ويسر فى أذنه كلاما .

وقد عجبت الأم من رؤية ابن العم يعود الى القرية بعد أن شاهدته فى الفجر يذهب الى البلدة ببعض أحمـــال الحشائش ، اذ كانت لا تستطيب الفراش فى مطلع النهار ما تهيأت لهـــا الصحة لطول ما اعتادت النهوض مبكرة فى الفجر . فلما رأته يعـــود بمثل هذه السرعة همت بسؤاله ولكنها سمعت ابنها يهتف وهو ممتقع الوجه قائلا : أخى ؟ .

أجل . نفذت هذه الكلمة الى سمع الأم الحاد وقالت فورا :

ـ ابنى . . ماذا حدث له ؟ .

لكن الشابين جعلا يتكلمان معا كلاما كله جد واهتمام وقد لاحت

عليهما سيماء القلق ، فلم تطق الأم صبرا ونهضت وسارت اليهما متوكئة على عصاها وهتفت قائلة :
ــ حدثاني عن ابني .
لكن ابن العم سار مبتعدا دون ان يقول كلمة . وقال ابنها الاكبر :
ــ يوجد شيء غير طبيعي يا أمي . ولست أعرف الحقيقة . لكن لابد ان أذهب الى البلدة ثم اعود اليك لكي اخبرك .
لكن الأم لم يذهب . بل تشبثت به وهتفت :
ــ لن تذهب حتى تخبرني ؟ .
ولما سمعت زوجة الابن صوتها خرجت ووقفت تنصت ثم قالت :
ــ أخبرها والا مرضت من الغضب .
واذن فلم يجد الابن بدا من الكلام قائلا :
ــ قال ابن عمي انه رأى أخي في صباح اليوم بين كثيرين غيره مقيد اليدين بحبال من القنب ممزق الملابس يسير امام السوق حيث كان ابن عمي يبيع الحشـــائش . وقد كان اخي يسير في صف طويل مؤلف من عشرين او ثلاثين رجلا ، ولمــا رأى ابن عمي حــول نظره بعيدا . لكن ابن عمي جعل يسأل ، فقـــال الحراس الذين كانوا يسيرون معهم أنهم شيوعيون ذاهبون الى السجن لكي يعدموا غدا .
فلما قال الابن هذا الكلام جعل الثلاثة يحدقون بعضهم في بعض وسرت رعدة في فك الأم وأخذت تقلب نظرها بين ابنها وزوجته ثم قالت :
ــ اني سمعت هذه الكلمة . لكنني لا اعرف معناها .
فأجاب الابن متباطئا :
ــ اني القيت هذا السؤال على ابن عمي الذي سأل الحارس ، فضحك منه وقال ان هذه الكلمة تدل على نوع جديد من اللصوص ظهر هذه الأيام .
عند ذلك تذكرت الأم اللفافة التي طال عليها الوقت تحت الفراش وأخذت تولول وطرحت رداءها فوق رأسها وجعلت تنتحب قائلة :
ــ كان يمكن ان أعرف الحقيقة في تلك الليلة . آه .. ان اللفافة الموجودة تحت فراشي هي ما سرقه ..
وعندئذ تشبث بها الابن وزوجته واقتاداها الى البيت وقالا لها :
ــ ما قصدك يا أمي ؟ .
ورفعت زوجة الابن الستار ونظرت الى زوجها الذي تقدم الى الأمام بينما أشارت العجوز الى اللفافة وقالت وهي تنتحب :

ـ لا اعرف ما فيها . لكنه احضرها الى هنا ذات ليلة وأوصاني ان الزم الكتمان يوما او يومين . لكنه لم يرجع ابدا .

فذهب الرجل الى الباب واغلقه برفق واوصده بالمزلاج . وعلقت الزوجة جلبابه فى النافذة وحمل الاثنان اللفافة وفكا اربطتها ..

وغمغمت الأم وهى تحدق فيها :

ـ اخبرنى ان بها جلود غنم .

لـكنهما لم ينبسا بكلمة ولم يؤمنا بشيء مما تقول . فقد يكون ما فيها شيئا ذا قيمة ، وخيل أو كاد يخيل اليهما حين لمسا ثقلها وصلابتها ان فيها ذهبا .

على انهما حين فتحا اللفافة لم يجدا بها غير كتب .

كانت طائفة كبيرة من الكتب ، كلها صغيرة الحجم ، وبينها أوراق كثيرة فى بعضها صور تمثل اغرب المشاهد الدموية .. منها ما يمثل الموت ومنها ما يمثل الجبابرة يضربون أقزاما أو يمزقونهم بالخناجر .

فوقف الثلاثة يحدقون بعضهم فى بعض دون أن يفقهوا شيئا ودون أن يدركوا ماذا يدفع الانسان الى أن يسرق ويخفي مجرد أوراق مخططة بالمداد .

لكنهم لم يستطيعوا ان يفهموا شيئا مما يرون . فلم يكن بينهم من يعرف القراءة . ولم يفهموا من الصور الا انهـــا تمثل مشاهد دامية فيها رجال ممزقون بالخناجر ورجال يموتون وآخرون مقطعة اوصالهم قطعا ذريعا ، وهى جميعا مشاهد دموية ممقوتة لا تحدث الا حيث يكون اللصوص وقطاع الطرق .

واستولى عليهم جميعا رعب وجزع . فاما الأم فقد جزعت لمصير ابنها . واما الزوجان فقد اشفقا أن يعرف الناس وجود هذه الاشياء فى بيتهما . وقال الرجل :

ـ لنحزمها كما كانت ولننتظر حتى يأتى الليل ، فنحملهـــا الى المطبخ لاحراقها .

لكن الزوجة كانت أكثر منه حرصا ، فقالت :

ـ لا يمكن ان نحرقها جملة واحدة والا راى الناس الدخان الكثير وتساءلوا عن سببه . لابد من حرقها واحدا واحدا ويوما بعد يوم فيحسب الناس انى أوقد الحشائش لطهى الطعام .

لكن الأم لم تحفل بهذا . فكل ما كان يعنيها الآن ان ابنها قد وقع فى التهلكة . وقالت لولدها الأكبر .

ـ ما الذى تفعله لأخيك الأصغر يا ولدى ؟ كيف تبحث عنه ؟ .

فأجاب الرجل مكرها :

ـ انى أعرف مكانه . فقد قال ابن عمى انهم أخذوه الى سجن معين قرب باب البلدة الجنوبى ، حيث يوجد ميدان للاعدام .

وفجأة هتف الرجل حين وقع نظره على وجه أمه الذى امتقع ونادى زوجته فحملها الاثنان فيما بينهما وارقداها فوق الفراش حيث تمددت وأخذت تلهث وقد استحال وجهها الى لون الطمى لفرط جزعها على الفتى المعتقل . وقالت لاهثة الأنفاس :

ـ الا تذهب يا ولدى ؟ أخوك ...

فلما آنس الابن حالتها طرح جانبا خوفه على نفسه وقال وقد هزته الشفقة عليها :

ـ نعم يا أمى سأذهب .. سأذهب .

وابدل الرجل ملابسه ووضع حذاء فى قدميه . وكان الوقت فى حساب الأم يمر بطيئا فلم تطق صبرا . ولما أتم الابن استعداده نادته الأم الى جانبها وادنت رأسه منها وهمست فى أذنه قائلة :

ـ لا تدخر مالا يا ولدى . ان كان حقا فى السجن فلابد من دفع مال لاخراجه . المال هو السبيل يا ولدى . من سمع أن سجنا استعصى فتحه على المال ؟ انى أملك مالا قليلا فى تلك الحفرة ادخرته لأجله فأنفقه كله . انفق كل ما نملك .

لم تتغير ملامح الرجل حين سمع هذا الكلام . وتبادل النظر مع زوجته وقال :

ـ سأعمل كل ما فى وسعى لأجلك يا أمى .

لكن الأم هتفت :

ـ وما الفائدة منى ؟ انا عجوز على حافة القبر . افعل كل شىء لأجله .

بيد ان الرجل كان قد ذهب . ومشى الى ابن عمه الذى شهد الحادث فرافقه الى البلدة . ولم يكن فى وسع الأم الا ان تلجأ الى الانتظار والترقب . لكن هذا كان أمر الوان الانتظار التى عهدتها فى حياتها . ولم تستطع أن تتمدد فوق الفراش ولا أن تقوى على النهوض لفرط ضعفها واعيائها . وجزعت زوجة الابن اخيرا من حال الأم ومن نظراتها ومن كلامها ومن ضربها على فخذيهـا النحيلين . فذهبت الى العم وزوجته مستنجدة ، فأقبلا الى الدار وجلسا مع الأم العجوز .

والواقع ان الأم قد سرى عنها حين جاء الزوجان الى جانبها .

فاليهما وحدهما كانت تستطيع أن تتكلم وان تفضى بذات نفسها . وراحت تبكي وتبدىء وتعيد قائلة :
ــ اذا كنت أذنبت فى حياتى افلم انل من الأحزان ما يكفى ؟ اذا كنت اذنبت فلم لا اموت وحدى واضع حدا لكل شىء ؟ لم يؤخذ اولادي واحدا بعد الثانى ، وسيؤخذ حفيدى أيضا من غير شك ؟ . لا . لن يقدر لى ان ارى حفيدى . نعم لن اراه . ولن اكون انا التى يجب ان ينفذ فيها حكم الموت .
وفجأة ضاق صدرها حنقا بهـذه الأحزان وهتفت غاضبة وهى ترسل الدموع ؟ .
ــ لكن اين هى المراة الكاملة المبراة من الذنوب ؟ ولم احتمل وحدى هذه الأحزان كلها ؟ .
فلما سـمعت زوجة العم هذا الـكلام خافت ان تندفع الأم الى الافضاء بأكثر مما يجب وهى فى سورة هذا الألم . فبادرتها قائلة :
ــ ثقى ان لنا جميعا ذنوبنا ، واذا وجب ان نحاسب عن هذه الذنوب فلن يبقى لواحدة منا اولاد . انظرى الى اولادى واحفادى . انى برغم وجودهم مخلوقة شريرة فاسدة . وأنا لم اذهب فى حياتى الى احد المعابد ولا اسـعى الى الذهاب . وكنت اذا جاءتنى كاهنة تحثنى على التقرب الى السماء وجدت من شواغل أولادى ما يحول دون قيامى بهذا الواجب . وحين تجيئنى الآن كاهنة وتحضنى على التوبة قبل فوات الأوان اقول انى بلغت من العمر حدا لا يثمر معه علم ولا تلقين ولا مفر من موتى مقصية عن حظيرة الدين اذا لم يمكن قبولى على علاتى .
بمثل هـذا الـكلام راحت زوجة العم تهون على الأم المضعضعة الحواس . وقال العم بدوره .
ــ انتظرى يا بنت العم حتى نعرف الخبر . قد لا يكون هنـاك داع لحزن ، فقد يفرجون عن ولدك فى مقابل المال الذى يجب دفعه . وقد يجوز ان ابنى اخطأ وراى شخصا آخر غير ولدك يسير امامه مقيدا .
وأما زوجة العم الحريصة فقد أمرت زوجة الابن ان تمضى لتدبير شئون البيت حتى لا يبـدر من الأم البائسة كلام لا ينبغى ان تسمعه . ولو فعلت الآن بعد هذا الصمت الطويل لكان هذا من دواعى الرثاء حقا .
وهكذا جعل الثلاثة ينتظرون عودة الشابين . وكان الانتظار اخف

وقعا على نفوسهم من انتظار الأم وحدها .
لكن أقبل الليل دون أن تشهد الأم عودة الشابين . وكانت قد جرت نفسها من الفراش جرا وزحفت الى شجرة الصفصاف فجلست تحتها وجلس العم وزوجته قربها . وجعل ثلاثتهم يحدقون بأنظارهم في طريق القرية لعلهم يرون أحدا قادما ، الا زوجة العم حين كانت تغفو غفواتها القصيرة التي ما كان الحزن نفسه يدفعها عنها .
ولما غربت الشمس اخيرا راتهما الأم عائدين . فنهضت وتوكأت على عصاها وظللت عينيها بيديها من أشعة الشمس الآفلة وصاحت :
ـ ها هما قد أقبلا .
وقد بدرت هذه الصيحة من الأم عالية مدوية ، ورنت خطواتها في الشارع سريعة متلاحقة ، حتى لقد خرج أهل القرية جميعا من مساكنهم . فانهم علموا بقصة الفتى المعتقل ولكنهم لم يجسروا على المجيء علانية الى بيت الأم خوفا من تعرضهم للمؤاخذة والجزاء واستهدافهم للاعتقال أيضا . وقد تفرقوا في النهار للقيام بأعمالهم وهم يتحرقون فضولا وتشوقا . ولكنهم كذلك خائفون متوجسون كشأن القرويين حين يتصل الأمر بموضوع السجون والحكام . أما الآن فقد نفروا من دورهم وراحوا يتلكأون هنا وهناك عن بعد أيضا واخذوا يراقبون ما يجرى .
ونهض العم كذلك وتبع الأم . بل لقد همت زوجته أن تتكلف الذهاب لولا أنها أصبحت لا تسير الا حين يجب المسير ، وقد رأت أن بوسعها أن تقف على جلية الخبر بعد قليل ، وكانت المرأة تؤمن بوقوع الخير آخر الأمر ، ولهذا كله وفرت على نفسها مؤونة الذهاب وجلست فوق مقعدها تنتظر .
أما الأم فقد تشبثت بذراع ولدها صائحة :
ـ ماذا جرى لابني ؟ .
بيد أنها تفرست في وجهي الرجلين وهي تلقى هذا السؤال ورأت نذر السوء مرتسمة على ملامحها . وتبادل كلاهما النظر ثم قال الابن أخيرا برزانة :
ـ هو في السجن يا أمي .
وتبادلا النظر مرة ثانية . فحك ابن العم راسه وتكلف البلاهة وتظاهر بأنه لا يعرف ما ينبغي أن يقال . فلم يجد الابن بدا من الكلام فقال :
ـ انى أشك يا أمي في امكان انقاذه . لقد حكم عليه مع عشرين

شخصا بالموت ، وسينفذ الحكم في الصباح .

فصرخت الأم ورددت صرختها :

ــ الموت !! الموت !! .

ولولا انهم تلقوها لهوت على الأرض .

وذهب بها الرجلان الى أقرب بيت ووضعا مقعدا تحتها واخذا يهونان عليها . اما هى قد جعلت تبكى وتصيح كالطفل . وكان فمها المفضن يرتجف والدموع تنحدر فوق وجهها غزيرة . وراحت تلطم ثدييها اليابسين بقبضتى يديها وانشأت تصيح وتتهم ولدها قائلة :

ــ انت لم تقدم لهم مالا كافيا . قلت لك انى أملك هذا المبلغ اليسير وهو فى جملته قطعة من الفضة وقطعتان اخريان اعطانيهما اخيرا ..

ولما رات ابنها واقفا منكس الراس يسيل عرقه غزيرا فوق جبينه وشفته بصقت عليه غضبا وقالت :

ــ لن تؤخذ منها قطعة واحدة لك . لن تكون لك اذا مات . نعم . سأذهب والقيها فى النهر أولا .

عند ذلك تكلم ابن العم دفاعا عن صاحبه وايثارا للسلم ، فقال وقد ارتسمت على وجهه أمارات الصدق فى هذه الساعة العصيبة وازاء هذه المهمة الصعبة :

ــ لا يا عمتى .. لا تلوميه . انه عرض اكثر من ضعف مالك . انه عرض مائة قطعة . عرضها على الكبير والصغير فى السجن . انه راح يرشو هذا وذاك . لكنهم لم يسمحوا له برؤية ولدك .

فصاحت الأم :

ــ انه لم يعرض مالا كافيا . من سمع أن حراسا فى السجن يستحيل رشوتهم ؟ لكنى سأذهب واحضر هذا المال فى هذه اللحظة . نعم . سأخرجه من الحفرة واذهب بنفسى انا العجوز ، واخرج ولدى من السجن وأعود به الى البيت . ولن يتركنى ابدا مهما قال الناس .

فعاد الرجلان الى تبادل النظر وتوصل الابن الى ابن عمه بعينيه ان يتكلم دفاعا عنه مرة اخرى . فقال هذا :

ــ انهم لن يسمحوا لك حتى برؤيته يا عمتى . وهم لم يأذنوا لنا أبدا بالدخول . نعم لم يأذنوا لنا رغم اننا عرضنا عليهم نقودا ، وقد فسروا سبب هذا التشدد فقالوا أن الحاكم ناقم على الجريمة التى اتهم بها ولدك . هى جريمة جديدة فى هذه الأيام . جريمة بشعة .

فصاحت الأم فى كبرياء ورفعت عصاها وجعلت تهزها فى وجه الرجل قائلة :

ــ ابنى لم يرتكب جريمة فى حياته . يوجد عدو هنا يدفع أكثر مما نملك لكى يبقى ولدى فى السجن .

وجعلت تدير عينيها فى الجمع الواقف حولها يلتهم هذه الانباء التهاما وقد فغر افراده افواههم وجعلوا يحدقون بأعينهم . ثم صاحت فيهم :

ــ هل رأى أحدكم ابنى يرتكب جريمة ؟ .

فأخذ الجميع يتفرسون بعضهم فى بعض دون أن يقولوا شيئا .

ولما رأت الأم نظراتهم المستريبة تمزق قلبها وجعلت تبكى وهتفت :

ــ آه . كنتم تكرهونه لجمال شكله . لأنه أحلى من اولادكم السود .. الفلاحين . نعم . انتم تكرهون كل من يكون أحسن منكم .

ونهضت الأم وسارت مترنحة الى بيتها وهى تبكى بكاء مرا .

على انها حينما عادت الى البيت ولم يبق معها سوى العم وزوجته واولادهما كفكفت دموعها وقالت لولدها الأكبر فى هدوء وفى لهجة المحموم أيضا :

ــ لكن هذا ضياع للوقت . اخبرنى بكل شىء . فقد تكون امامنا فرصة لانقاذه . امامنا الليل بطوله . ما هى جريمته ؟ سنأخذ كل ما نملك ونسعى لانقاذه .

فتبادل الابن وزوجته عند سماع هذا الكلام نظرة لا تنم عن الشر حقا ، ولكنها شفت عن نفاذ صبرهما واحتمالهما . ثم قال الابن :

ــ انا لا أعرف ما هى جريمته تماما . لكنهم يسمونه « شيوعيا » كما قلت لك . وهى كلمة جديدة سمعتها كثيرا . ولما سألت عن معناها قيل لى انها لون جديد من اللصوصية . وقد سألت الحارس الواقف بباب السجن حاملا بندقيته على كتفه ، فأجابنى بهذه الكلمات ، « تسألنى عن معنى (الشيوعى) ؟ . اعلم أيها الرجل الطيب ان الشيوعى هو الذى يسرق حتى أرضك . وهو رجل يتآمر على سلامة الدولة ولذلك وجب أن يموت مع رفاقه » . نعم يا أمى . هذه هى جريمته .

انصتت الأم بعناية واهتمام شديدين الى هذا التفسير وقد سقط ضوء الشمعة فوق وجهها الذى تلألأت فوقه قطرات الدموع . وقالت فى صوت يشف عن الذهول وقد راحت تجهد ان تكسبه رنة الجلد والتماسك :

ـ لكنى لا اظن ان هذا ممكن . انا لم اسمعه ابدا يقول كلمة فى هذا الشأن . انا لم اسمع ابدا بمثل هذه الجريمة . ان قتل الانسان ، وسرقة البيوت ، وتجويع الوالدين ، هى الجرائم بمعناها . لكن كيف تسرق الأرض . هل يمكنه ان يطويها كأنها قطعة من القماش ، ويأخذها معه ، ويخفيها فى مكان ما ؟ .

فأجاب الابن وقد نكس رأسه وتدلت يداه بين ركبتيه وهو جالس فوق المقعد الصغير :

ـ لا اعرف يا أمى .

كان الابن لم يزل مرتديا جلبابه الوحيد ، بيد انه دس طرفه فى حزامه اذ لم يألف لبس الجلاليب . ثم استطرد فى تؤدة :

ـ انا لا أعرف ما قيل غير ذلك . فقد سمعنا كلاما كثيرا فى البلدة هنا وهناك . لأنهم سيقتلون عددا كبيرا غدا وسيكون يوم عطلة . ماذا قيل غير هذا يا ابن عمى ؟ .

فحك ابن العم ذقنه وازدرد لعابه وتطلع فى الوجوه التى حوله ثم قال :

ـ ان اهل البلدة قالوا كلاما كثيرا . لكنى لم أجسر على الاكثار من الأسئلة . لأن أحد حراس السجن حين سمعنى أسأل عن سبب الضجة السائدة وادقق فى السؤال التفت الى قائلا ، « هل انت واحد منهم ايضا ؟ وماذا يهمك اذا قتلوا ؟ » . ولم اجسر على القول بأنى ابن عم أحدهم .. لكننا وجدنا احد رؤساء السجانين واعطيناه بعض النقود والتمسنا منه أن نحدثه على انفراد . فقادنا الى احدى زوايا السجن خلف بيته حيث أخبرناه بأننا من القرويين الاشراف واننا نملك ارضا صغيرة ونستأجر مساحات أخرى ، وان لنا بين المحكوم عليهم بالموت فتى يمت لنا بصلة القرابة البعيدة ، ولنا اذا استطعنا انقاذه لما ترددنا صونا لواجب الشرف لأن احدا من اهل بيتنا لم يسبق ان مات تحت سكين الجلاد ، لكن بشرط ألا ندفع مبلغا كبيرا جدا لأننا اناس فقراء . فأخذ السجان النقود وسألنا عن اوصاف الفتى فأخبرناه بها . وعند ذلك اجابنا : « اظن انى اعرف الفتى الذى تقصدون . لأنه متضايق من السجن واعتقد انه لا يتردد فى الاعتراف بكل ما يعرفه لولا وجود فتاة من اشد الفتيات جراة تثير نخوته وتحمله على الجلد والتشدد . نعم . يوجد بين المحكوم عليهم اناس صلاب أجرياء لا يحفلون كيف ولا متى يموتون . لكن هذا الفتى كثير الخوف . واشك فى انه يقدر ما فعل أو يعرف

سبب الحكم عليه بالموت . لأن مظهره يدل على انه فتى قروى ساذج قد استخدموه لاغراضهم ومنوه بوعود عظيمة . واعتقد ان جريمته نجمت عن تلبسه بحيازة كتب معينة كان يوزعها بين الناس مجانا . وفي هذه الكتب كلام فاسد يحض على قلب الحكومة واقتسام كافة الأموال والأراضي بالمساواة » .

فلما سمعت الأم ما نقله ابن العم عن السجان انهمرت دموعها من جديد وأخذت تئن وتتوجع والتفتت الى ابنها قائلة :

ـ كنت اعرف انه كان يجب أن تمنحه بعض الأرض . كان يمكن أن نستأجر ارضا اخرى ونعطيه نصيبه منها . لكن ابنى الأكبر وزوجته استأثرا بكل شيء وضنا عليه بكل شيء .

ففتح الابن فاه للكلام . لكن العم قال بهدوء :

ـ لا تتكلم يا بنى . دع أمك تلومك وتخفف عن نفسها . نحن جميعا نعرف اخلاقك واخلاق اخيك ونعلم انه كان يمقت العمل فى الأرض بل كان يكره العمل بتاتا .

واذن فقد لزم الابن الأكبر الصمت نزولا على رأى العم . واخيرا استطرد ابن العم قائلا :

ـ وقد سألنا السجان بعد ذلك كم ندفع للافراج عن الفتى . فهز السجان راسه وقال انه لو كان ذا مكانة كبيرة وولدا لرجل غنى عظيم ذى نفوذ فلا ريب ان المال كفيل بالافراج عنه واخلاء سبيله . اما هو فتى قروى فقير ، فما من رجل يعرض حياته للخطر فى سبيله مهما عظمت المبالغ التى تدفعها . وهكذا لا مفر له من الموت .

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت قائلة :

ـ وهل يموت لأنه ولدى وانا فقيرة ؟ اننا نملك ارضا وسنبيعها لمنحه حريته . نعم . سنبيعها فى هذه الليلة فورا . يوجد فى هذه القرية أناس .

لكن الابن الأكبر ما كاد يسمع حديث الأرض حتى قال :

ـ وكيف نعيش اذن ؟ لا نكاد نستطيع العيش والأرض فى حالتها الراهنة . واذا استأجرنا ارضا اخرى بهذه الأجور المخزية لأصبحنا من المتسولين . ان كل ما نملكه هو هذه الأرض اليسيرة المحدودة . ولن ابيعها يا امى . لا . ان الأرض ارضى . ولن ابيعها .

ولما فاه الابن بهذا الكلام نطقت زوجته لأول مرة ، اذ كانت جالسة فى هدوء تنصت الى ما يدور . فقالت برزانة :

ـ ولابد من التفكير فى أمر الجنين الذى أحمله الآن فى أحشائى .

فلم تملك الأم الا أن تلزم الصمت . أجل . لزمت الصمت وجلست تبكي . وكلما وجهت اليها كلمة واحدة طوال هذه الليلة كان جوابها الوحيد سفح الدموع واستئناف البكاء .

وجلس أصحاب هذا البيت ساهرين ليلتهم . ولما بزغ الفجر الشاحب استجمعت الأم قوتها وقالت :

ـ سأذهب بنفسي . سأذهب مرة ثانية الى البلدة وانتظر رؤية ولدي اذا لم يكن مفر من خروجه الى الموت .

فوضعوا ايديهم على ذراعها يسألونها الا تذهب . وقال الابن بلهجة الجد :

ـ امي . سأذهب لاحضاره فيما بعد . لأنك ستموتين اذا رأيت هذا المشهد .

لكنها قالت له :

ـ وماذا لو مت ؟ .

وغسلت الأم وجهها ومشطت ما بقي لها من شعر أشيب يسير فوق رأسها ولبست رداء جديدا كعادتها كلما قصدت الى البلدة وقالت لابنها ببساطة :

ـ اذهب واحضر حمار العم . هل تتركني اركبه يا عمي ؟ .

فأجاب العم في كآبة ولم يسعه الا أن ينزل على ارادتها :

ـ آه . نعم .

واذن فقد ذهب الابن وابن العم وجاء بالحمار واركبا الأم فوق ظهره وسارا بجانبها قاصدين الى البلدة وقد حمل الابن مصباحا في يده اذ كان ضوء الفجر ضئيلا .

وكانت الأم قد خارت قواها ولزمت الهدوء لفرط ما سكبت من الدمع . ومضت في طريقها لا تكاد تعي شيئا وقد تشبثت بظهر الحمار ونكست رأسها ولم ترفع عينيها مرة لكي ترى مطلع الفجر ، بل جعلت تحدق في الطريق الشاحب الترب الذي لا يكاد يبدو للعيان من خلال الظلام . ولزم الرجلان الصمت كذلك . وظلوا يواصلون السير في الطريق متجهين الى الجنوب حتى وصلوا الى باب البلدة الجنوبي الذي لم يكن قد فتح بعد في بكرة النهار .

لكنهم رأوا جمهورا كبيرا ينتظر عند الباب . فقد ذاع في انحاء هذه الجهات ان اناسا كثيرين سينفذ فيهم حكم الموت . وتقاطر أفراد عديدون للتفرج وجاءوا معهم بأولادهم .

وما كادت الابواب تفتح حتى دخل الجميع يتزاحمون بالمناكب

وبينهم الأم فوق الحمار ورفيقاها . وقصدوا جميعا الى ارض فضاء كائنة قرب سور البلدة . فراوا فى طلائع ضوء النهـــار جمهورا حاشدا ينتظر وقد تضام أفراده ولزموا الصمت رهبــة من مشهد الموت الذى يوشكون أن يروه ، وتشبث الأبناء بآبائهم فى ذعر غير مفهوم . واذا صرخ أطفال الزموا الصمت فورا . وخيم السكون فوق هذا الجمع الحاشد الذى وقف ينتظر فى نهم الجـــائع مستمتعا متلذذا ولكنه يذوب فى نفس الوقت رعبا وجزعا مما يرتقب ويتطلع اليه :

لكن الأم وصاحبيها لم ينتظروا فى غمار هذا الحشد . فقد همست الأم قائلة :

ــ لنذهب ونقف عند باب السجن .

فقد كانت المسكينة ترجو اذا رأت ولدها أن تحدث معجزة على وجه من الوجوه وأن تلتمس وسيلة لانقاذه .

واذن فقد ذهب بهـــا الرجلان الى باب السجن ووقفوا ينتظرون عند بابه فى السور المرتفع الذى غرست فوق قمته قطع الزجاج . وقد رأوا عند الباب حارسا منتصب القامة وبجانبه مصباح به شمعة قصيرة مضاءة هبت عليها ريح الفجر القارسة فأطفأتها .

وقف الثلاثة ينتظرون فى الشارع الترب . ونزلت الأم عن ظهر الحمار وجعلت ترتقب . وسرعان ما سمعوا خطوات كثيرة تسير فوق الأرض الحجرية ، ثم صاح صائح :

ــ افتحوا الباب .

فوثب الحراس فى أماكنهم منتصبين بجانب الباب شـــــاهرين أسلحتهم . ثم فتح الباب بعد قليل .

هنالك اتأرت الأم عينيها لكى ترى ولدها . فرج من الباب شبان كثيرون مقيدو الأيدى بحبال من القنب يسيرون اثنين اثنين وقد قيد كل اثنين الى من يتقدمهما . وقد بدا هؤلاء المسوقون لأول وهلة فتيانا جميعا . على أنه كان بينهم بعض الفتيـــــات وأن تعذر تمييزهن بسهولة . فقد قصت شعورهن وارتدين مثل ملابس الفتيان ولم يكن هناك ما يدل عليهن الا أن يحـــدق الانسان بعينيه فيرى ثداءهن الضئيلة وخصورهن النحيلة . أما وجوههن فكانت مبتسمة بطـابع الجراة والغلظة مثل وجوه الفتيان .

تطلعت الأم الى وجوههم جميعا . وفجأة رات فتاها . أجل . راته يسير أمامها منكس الراس ، مقيدا الى فتاة تسير الى جانبه .

عند ذلك اندفعت الأم الى الأمام والقت نفسها عنـــد قدميه وضمتهما وصرخت صرخة داوية :

ـ ولدى ! .

وتطلعت الأم الى وجهه . فاذا هو شاحب بل أشد ما رأت من الوجوه شحوبا . واذا شفتاه ممتقعتان وعيناه متبلدتان .

ما كاد الفتى يرى امه حتى اشتد شحوبه وامتقاع لونه واوشك ان يسقط على الأرض لولا انه كان مشـــدود الوثاق الى الفتاة . والواقع ان هذه الفتاة جعلت تشده ولم تتركه يسقط . بل لم تتركه يتريث فى مكانه . ولما وقع نظرها على المرأة العجوز ذات الشـعر الأبيض الجاثية عند قدميه ضحكت ضحكة عالية تشف عن جرأة بالغة ومرح عظيم ، وهتفت فى صوت عال أجش :

ـ ايها الرفيق . تذكر الآن انه ليس لك أم ولا أب .

وجذبته الفتاة فى سيرها .

وفى هذه اللحظة اسرع احد الحراس ورفع الأم من مكانها والقاها جانبا فبقيت فى سقطتها فى التراب . وتقدم افراد الفريق وواصلوا السير حتى غابوا عن نظرها متجهين شطر الباب الجنوبى .

وجاء الرجلان اخيرا وهما برفع الأم عن الأرض لولا أنها لم تتركهما يفعلان . وتمددت فوق التراب وقتا وهى تئن وتنصت فى ذهول الى وقع الخطا المتباعدة .

على أنه لم يفسح لها طويلا فى مجال التوجع والانين . فقد خرج من باب السجن حارس ووكزها ببندقيته فى غلظة شديدة وصرخ فيها قائلا :

ـ امشى يا عجوز .

فخاف الرجلان واوقفا الأم على قدميها واركباها فوق الحمـــار وسارا بها متجهين الى البيت . على أنهم وقفوا قرب جدار قبل أن يصلوا الى الباب الجنوبى وجعلوا ينتظرون .

وفيما كانوا ينتظرون سمعوا صراخا عظيما . فتبادل الرجـلان النظر وتطلعا الى الأم العجوز . وسواء كانت الأم قد سمعت هذا الصراخ أو أدركت معناه فانها لم تبد أدنى اشارة . بل جلست فوق ظهر الحمار مطرقة الرأس تحدق فى التراب تحت قدميها .

ثم استأنفوا سيرهم . وقابلوا فى الطـريق أفراد الجمهور الذى انفض وتفرق وراح أفراده يتبادلون الكلام بأصـــوات عالية . فلم ينبس الرجلان بكلمة ولم يبد من حالة الأم انها منصتة لما يقال .

لكن احدهم هتف قائلا :
ـ هل رايت ذلك الفتي الذى تفجر دمه الأحمر حتى لوث تدم الجلاد وجعله يسب ويلعن ؟ .
ومن الناس من كان يضحك وقد تورد وجهه . ومنهم من علاه الشحوب . وفيما كان الرجلان والأم يخرجون من باب البلدة رأوا شابا ممتقع الوجه مستندا الى الجدار مستسلما للقيء .
وسواء رأت الام هذه المشاهد أو سمعت هذه العبارات فانها لم تنبس بكلمة . أجل . فقد علمت ان الفتى قد صار فى عداد الأموات . ولا ينفع مال ولا لوم ان كان فى وسعها أن تلوم . وقد ساورها فى هذا الوقت تلهف الى العودة والتماس ذلك القبر المهـــدم حيث تسكب فوقه عبراتها وقد حز فى نفسها أنها حرمت حتى قبرا خاصا بولدها الميت تبكى فوقه كما تبكى النساء فوق قبور ابنـــائهن ... ولا مفر لها من البكاء فوق قبر مجهول شفاء لما فى قلبها وتخفيفـــا للوعتها . على ان هذا الألم تلاشى من نفسها واصبحت تتلهف للبكاء وحده وتسكين ما بها .
ولما وصلت الأم الى باب بيتها نزلت عن الحمـــار وتوسلت الى ولدها قائلة :
ـ اذهب بى الى خارج القرية . لأبد من البكاء .
وكانت زوجة العم قريبة وسمعت هذا الرجاء . فهزت رأسها وقالت برفق وهى تكفكف دموعها بكمها :
ـ نعم . دع هذه المسكينة تبكى قليلا . فهذا أفضل ما تفعل .
فلم يسع الابن الا أن يذهب بها فى سكون الى القبر حيث مهد لها مجلسا كساه ببعض الحشائش . فجلست الأم وأسندت رأسها الى القبر وتطلعت الى الابن ممتقعة الوجه وقالت له :
ـ اذهب واتركنى وقتا حتى أبكى .
ولما تردد الابن كررت قولها فى حرارة وانفعال :
ـ اتركنى . اما ان ابكى او أموت .
فذهب الابن عنها وهو يقول :
ـ سأعود بعد قليل لمرافقتك يا أمى .
والواقع انه كره ان يتركها وحيدة فى مثل هذا المكان .
وجلست الأم الى القبر ترقب مطلع النهـــار وانتشار الضوء . ورأت الشمس تشرق وتسطع فوق الأرض وكانه لم يمت أحد فى هذا اليوم . وكانت النباتات قد نضجت وأينعت واكتست الحقول

بأشعة الشمس الذهبية . وجعلت الأم ترتقب أن يفيض حزنهـــا ويستحيل الى دموع تخفف عن قلبهـــا المحطم . وراحت تستعرض حياتها وتفكر فى موتاها وتحصى ما فى هذه الحياة من افراح ضئيلة . فجاشت الأحزان فى قلبها .

استسلمت الأم لهـذه الأحزان دون أن تغضب الآن أو تثور . وتركت هذه الاحزان تطغى عليها وتستأثر بنفسها . وتمددت فـوق التراب وتمرغت فى الرغام . ثم أدارت وجهها الى السماء وهتفت فى الم موجع :

ـ أهذا هو التكفير المنشود ؟ الم أنل كفايتى من العقاب ؟ .

ثم تفجرت الدموع من عينيها أخيرا ، فأسندت رأسها فوق القبر ودست وجهها بين الحشائش الكبيرة واستسلمت للبكاء .

جعلت الأم تبكي وتمعن فى البـكاء فى هذا الصباح المشرق الباسم وراحت تستعيد كل ما مر بها من الأحزان صغيرها وكبيرها . تذكرت كيف تشاجر زوجها معها وذهب عنها . وتذكرت انه لا توجد فتـاة صغيرة تأتى اليها وتناديها وتصحبها الى البيت . وتذكرت كيف رأت فتاها مقيدا الى تلك الفتاة عندما شاهدته لآخر مرة . وهكذا جعلت فى هذا اليوم تبكى لكل ما مر بها فى حياتها .

وفيما هى فى هذا البكاء جاء ولدها راكضا . فكان يلوح بذراعيه ويصيح موجها كلامه اليهـا . لـكنها لم تتبين ما يقول . فسمعته قائلا :

ـ امى ! امى ! جاء ولدى . حفيدك يا أمى .

أجل . سمعت الأم هذه الصيحة فى اتم وضوح وجلاء . فانقطعت دموعها دون وعى منها . ونهضت من مكانها وسارت للقائه مترنحة هاتفة :

ـ متى ؟ متى ؟ .

ـ الآن فقط ! ولد فى هذه اللحظة . وهو ولد لم أر فى حياتى طفلا فى حجمه وصياحه . وكأنه ابن سنة .

فوضعت الأم يدها على ذراعه وأخـذت تضحك ضـحكا يسيرا ممتزجا بالبكاء . ثم اتكأت عليه وتحاملت على قدميها وسارت مسرعة وقد نسيت نفسها .

وذهب كلاهما الى البيت ودخلا الى تلك الغرفة حيث تمددت الام الجديدة فوق الفراش . وكانت الغرفة مكتظة بنساء القرية اللاتى جئن من بيوتهن للوقوف على هـــذا النبأ . وجاءت بينهم الأرملة

الثرثارة وقد قوست الأعوام ظهرها واصمها الكبر . لكنها لم تشأ ان تترك هذه المناسبة تفوتها واصرت على الحضور . وما كادت ترى الأم العجوز حتى راحت تقول بلهجتها المهدمة :

ـ انت امراة موفقة . وكنت احسب ان حظك ذهب الى الأبد . لكنك الآن ترزقين بحفيد . وهاأنذا لا املك سوى جثتي العتيقة الفانية وأسقامي العديدة .

لكن الأم العجوز لم تقل كلمة واحدة ولم تنظر الى احد . بل تقدمت الى الفراش ونظرت اليه . فاذا الطفل ممدد . وهو مولود ذكر . واذا هو يصيح كما وصفه أبوه . واذا هي تراه فاغر الفم جميل الصورة قوى البنية كأجمل واقوى طفل راته عيناها . فانحنت ورفعته بين ذراعيها وامسكته الى صدرها واحست بالحياة تتدفق في كيانه حارة موفورة .

وراحت تنظر اليه من راسه الى قدميه وتضحك وتعاود النظر .. واخيرا دارت بعينيها في ارجاء الغرفة تلتمس زوجة العم . فاذا هي واقفة بين النساء وقد تعلق بها بعض احفادها لرؤية هذا المشهد .

وما كادت الأم العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكى تراه صاحبتها . وهتفت وهي تضحك عاليا وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنساء وبدت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل :

ـ انظرى يا بنت عمي . اني اشك في امتلاء نفسي بالذنوب كما خيل الى فيما مضى هل رايت حفيدي ؟

« تمت »

٢٠ قرشا

هذه الرواية

ولدت بيرل باك مؤلفة هـذه الرواية الانسـانية المؤثرة فى هيلزبورن بولاية فرجينيا الامريكية عام ١٨٩٤ من أبوين امريكيين ذهبا بها الى الصين فى سن الطفولة ثم عادت واتمت تعليمها فى احدى جامعات فرجينيا مسقط رأسها ، وعندما عادت الى الصين مرة اخرى تزوجت شابا امريكيا .

لقد نبعت بيرل باك فى الكتابة منذ مستهل حياتها ، وكانت روايتها « الارض الطيبة » التى نشرت عام ١٩٣١ ثانية أعمالها الادبية وقد نالت بسببها جائزة بوليتزر المعروفة واصبحت فيلما سينمائيا ناجحا . وبعد ان أصدرت اربع روايات اخرى هى « الابناء » و « الزوجة الاولى » و « الام » و « بيت منقسم » ، نالت ميدالية الاكاديمية الامريكية للفنون والاداب عام ١٩٦٥ ، وقد ادى هذا بالاضافة الى ملفاتها الاخرى الى ابرزها جائزة نوبل فى الادب عام ١٩٣٨ . وفى خلال ذلك اختيرت عضوا فى المعهد القومى للفنون والاداب بالولايات المتحدة عام ١٩٣٦ ، وكان رصيدها من الروايات الصينية قد بلغ ثمانى روايات .. فضلا عن ترجمة كتاب صينى مشهور هو « كل الرجال اخوة » ، وعلى الرغم من انها تحولت فى العهد الاخير الى الكتابة عن الحياة الامريكية سوف تظل امام العالم مؤلفة اروع الروايات عن الحياة الصينية .



حصريات يوليو 2014